

ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف: شافي آيين / تصوير: كيم مانريسا



ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

تأليف

شافي أيين / تصوير: كيم مانريسا

Textos: XAVI AYÉN

Fotografías: KIM MANRESA

ترجمة

ناصر مريخان

مراجعة وتحريير

مركز التعريب والبرمجة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني

REBELDÍA DE NOBEL

Conversaciones con 16 premios Nobel de literatura

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

El Aleph Editores, Barcelona (España)

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع معه

Copyright © 2009 by Xavi Ayén, Kim Manresa

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010



تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبوظبي

This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-9948-446-19-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة
THAQAFAT
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (+971-2) فاكس: 6345407 (+971-2)

دبي هاتف: 2651623 (+971-4) فاكس: 2653661 (+971-4)

بيروت هاتف: 786233 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)

إن دار الثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار.

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

المحتويات

7	المقدمة: العودة إلى العالم مع ستة عشر فائزاً بجائزة نوبل
11	وول سوجينكا: الرجل الذي أضاف الكلمات إلى أحلام إفريقيا
19	دوريس ليسينغ: الرجال والنساء يعيشون في عالمين مختلفين
27	خوسيه ساراماغو: أنا ألتزم، لكنني لا أضع آمالي في ذلك أبداً
37	نادين غوردن: الكرامة التي هزمت التمييز العنصري
45	غاو كسينغجيان: أنا هارب، ولست بطلاً
53	غابرييل غارثيا ماركيث: توقفت عن الكتابة
63	غونثر غراس: يجب أن نتكلم، حتى عن أكثر ما قد يصد، ونخرج كل شيء
71	نجيب محفوظ: لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، لكن أصدقائي هم عيناى وأذناى وریشتى
79	توني موريسون: لا تزال العبودية موجودة
87	ففى أس نايبول: اليوم بشكل خاص علينا معشر الكتاب جميعاً أن نحيط بالعالم أجمع
95	إيمرة كيرتيس: بعد المعاناة لا يعود من السهل النظر فى المرأة، والاعتقاد أنك تستحق الحياة واتخاذ دور جديد
103	كينزابورو أوى: أدافع عن وجود الفرد بصفته كينونة مفكرة مستقلة
113	ديريك وولكوت: الافتخار بالمزيج
121	أورهان باموق: لست مختبئاً، أنا أعيش فى إسطنبول
129	ويسلاوا زيمبورسكا: لا نعرف شيئاً ؛ هذا هو ما يذهل
137	داريو فو: السخرية هى أكثر الأسلحة فاعلية فى وجه السلطة

مقدمة

العودة إلى العالم مع ستة عشر حائزاً على جائزة نوبل

طبعت جميعها في هذا الكتاب. القسم الأعظم من المواد المستخدمة مثل أساساً لمقابلات نُشرت في الملحق الثقافي الذي تصدره اثنتان وعشرون صحيفة إسبانية⁽¹⁾.

في نهاية المغامرة، بات لدينا كنز لا ينضب من النوادر والخبرات، وسرعان ما اكتشفنا أن جميع الأدباء تقريباً كانوا ملتزمين إلى حدٍّ ما بقضية لا تتعلق بالأدب، وأنهم لا يستوعبون دورهم في المجتمع ما لم يتدخلوا بجوانب اجتماعية تتجاوز حدود الثقافة. فحتى أكثرهم بغضاً، السيد فيديا نايبول، حدثنا بحماسة عن مبادراته العديدة من أجل الحيوانات... كما اتفقوا جميعاً على أنهم يشعرون بأنهم على هامش المجتمع، بدرجات مختلفة، ويعيدون عن الكثير من القيم السائدة، ومناهضون لمظاهر أساسية على خط السلطة المتغلغل في الكثير من الأشياء التي لا نلاحظها. لهذه الأسباب، قرنا تسمية المجموعة ثورة نوبل، على أن تتضمن علاوة على ذلك مبادرات المؤازرة التي طرحها كل منهم.

أثارت بعض المواقف إعجابنا، وعلى وجه الخصوص مرافقتنا للمصري نجيب محفوظ في أحاديثه الأخيرة مع أصدقائه في القاهرة، قبل وفاته بأسابيع.

(1) الطليعة، إسبانيا الجديدة، ليفانتة EMV، فارودي فيغو، صحيفة قادس، المعلومات، لا بروفينشيا، صحيفة لاس بالماس، صحيفة مايوركا، صحيفة إشبيلية، رأي مورثيا، رأي تامورا، رأي لا كورونيا، صحيفة خيريث، صحيفة إيبيا، رأي ملقة، يوم قرطبة، رأي غرناطة، جنوب أوروبا، رأي تينيريفه، معلومات أوليفيا، ألكاريا الجديدة، صوت ألميرية.

بدأ كل شيء بالصدفة، في اليوم الذي جاءني فيه كيم مانريسا ليسألني إن كان في وسعي أن أحصل له على إهداء من أحد الأدباء الحاصلين على جائزة نوبل للأدب، لكتابه الذي يحوي مجموعة فريدة من صور لمشاهد يومية قام بالتقاطها في مدارس منتشرة في القارات الخمس على مدى سنوات طويلة ورائعة في آنٍ معاً، هي سنوات عمله. أخبرني أن «أياً من الأدباء يفني بالغرض». كانت تكفيه جملة واحدة تبرز أهمية التعليم وتجمع جمال الصور مع الالتزام الأخلاقي الذي لطالما عدّه أمراً جوهرياً في مهنة الصحافة. وحين أمسينا جاهزين للقيام بذلك والاتصال بأحد الأدباء، سألنا أنفسنا: لِمَ لا نستغل الفرصة لنجري معه مقابلة أيضاً؟ بعد ذلك، أخذت الأمور تتخذ منحى آخر: طُرحت فكرة دخول منازل كبار كتّاب العصر، والتطفل ليس على مكاتبهم فحسب، بل على مطابخهم أيضاً، ثم التحدث إليهم من دون الاهتمام بالوقت، والتجول في المدن التي اختاروا الإقامة فيها، أو تلك الأماكن التي أوحى لهم بكتابة أعمالهم، بالإضافة إلى التعرف إلى عائلاتهم...

أمسى الهدف يكمن في أن نتطرق إلى زوايا غير مطروقة، ونعرض للقارئ معلومات عن بعض عباقرة الأدب المعاصر؛ التعرف إليهم من دون العوائق التي تفرضها مقابلات الفنادق (كما تعرفون، نصف ساعة في بهو عمومي للحديث حصراً عن كتابهم الأخير...). بعد ثلاث سنوات من العمل، توصلنا إلى التعرف إلى ستة عشر أديباً حاصلاً على جائزة نوبل، عبر لقاءات امتدت ما بين ست ساعات وثمانية أيام

لم تمنعه إصابته بالعمى والصمم شبه التام بسبب هجوم تعرض له في العام 1994 عن الحفاظ على عاداته الدائمة من دون أن يرفّ له جفن، بالرغم من أنه أمسى مضطراً إلى القيام بذلك بوجود مرافقة من رجال الشرطة، والانتقال من مكانه بشكل دائم. وبما أن الطعنة التي تعرض لها قد أصابت وترية الصوتيتين بضرر دائم، لم تستمر نقاشاتنا لأكثر من ساعة متواصلة، واستغرقت منا أياماً عديدة.

تعلمنا درساً آخر عن الإنسانية من ممثلي آسيا. فهناك من جهة الكاتب الياباني كينزابورو أوي الذي قرر منذ سنوات خلت أن يكرّس حياته لابنه، المعوّق ذهنياً، بالرغم من نصائح الجميع والعدائية التي يديها الصبي أحياناً. أما اليوم، فهيكاري (الذي استقبلنا قاتلاً بإسبانية ممتازة: «كيف حالكما أيها الشابان؟») هو أحد المؤلفين الموسيقيين الأكثر مبيعاً في اليابان، ولقد تمكنا من التحقق من أن إعاقته لا تمنعه من التمتع بحياة أسرية كاملة مع أبويه. كما رافقنا أوي في أماكن متعددة من طوكيو وأهدانا عند الوداع زجاجة شراب ثمينة. من جهة أخرى، هناك غاو كسينغجيان، أحد ضحايا الثورة الثقافية في الصين، الأمر الذي جعله ينسف أعماله كلها عدة مرات، والذي استقبلنا في منفاه في باريس. قبل حصوله على جائزة نوبل كان يكسب قوتاً متواضعاً بفضل عمله كرسام.

إلا أن المقابلة التي أثارت ضجة كبيرة - وصلت أصداؤها إلى شبكات التلفاز مثل الجزيرة والسي أن أن - هي تلك التي أجريت مع الكولومبي غابرييل غارثيا ماركيث في قضيته المكسيكية. كان قد مضى على مؤلف مئة عام من العزلة أكثر من عشر سنوات من دون أن يتكلم مع أي صحفي، وقد اختارنا ليؤكد علناً أنه قد توقف عن الكتابة. تحضيرات اللقاء كانت أشبه بأفلام الجواسيس: جلّ ما عرفناه هو أنه سيتوجب علينا المبيت في فندق محدد في المكسيك وأنهم «سيصلون بنا». ذاك الانتظار المزعج الذي دام يومين ظللنا خلالهما قريبين من الهاتف ومعنا

حقائب سفر مليئة بالهدايا التي أرسلها إليه الأصدقاء من برشلونة، عوّضنا عنه لقاءً حارّ حضرته زوجته ميرثيديس بارشا، وابنه غونثالو، وأبدى فيه غابو توقاً شديداً إلى معرفة تفاصيل حياة فائزين آخرين بجائزة نوبل. حين عدنا إلى إسبانيا، اتصل بنا هاتفياً ليكمل بعض الأمور التي كان قد صرح عنها.

أما المكان الأصعب للوصول إليه فهو نيجيريا، حيث لم يصدق رجال الشرطة في مطار لاغوس أننا ذهبنا إلى ذاك البلد لإجراء مقابلة أدبية، في الوقت نفسه الذي كانت فيه ثلاث عصابات من أصول مختلفة تمارس نشاطاتها في مناطق متنوعة، فتم اختطاف العديد من الأجانب، وارتفعت مؤشرات الخطر لتجاوز حدها المعهود. بعد نحو الساعة من الاستجواب صاح الضابط متنهداً ومتسماً في آن واحد: «حسناً، إذًا، فقد جئتما إلى هنا للحديث عن الكتب. لِمَ لا؟ إننا بلد ديموقراطي ذو ثقافة غنية. أهلاً وسهلاً بكما في نيجيريا». على الجانب الآخر، وجدنا بانتظارنا حارسين شخصيّين أرسلهما إلينا مضيفنا وول سوجينكا، الذي اصطحبنا بدوره بالسيارة إلى ضيعة آبيوكوتا، مسقط رأسه.

تركنا نبيت في منزل قريب بناه بنفسه في الأدغال، ثم شغل المولد الكهربائي فانتشر النور، كما قدّم إلينا طعاماً وفيراً. في اليوم التالي، ذهبنا إلى لاغوس لمرافقه في مؤامراته مع الجمعيات الديمقراطية، وجعلنا نمر بما يدعى حي خطوط الأنابيب حيث يقوم عشرات الأشخاص بثقب الأنابيب التي تنقل النفط ليعيدوا بيعه كتجارة حرة، متسبين بذلك بانفجارات قاتلة ومتفرقة. بعد الحديث مع أصدقائه الناشطين، أجرى مقابلات مع رؤساء أحزاب سياسية، كل على حدة، في محاولة منه لحثهم على القيام بإصلاحات لأجل الناس المتواضعين. في أثناء ذلك، كان يقدمنا على أساس أننا «صديقه الإسبانيّان الموثوق بهما».

الحملة الثانية على القارة السوداء كانت من

أجل رؤية نادين غوردنيمر، مناضلة محنكة ضد التمييز العنصري، والتي أرادت أن تعرض علينا رمز إفريقيا الجنوبية الديمقراطية الجديدة: فرع المحكمة الدستورية في بلدها، القائم في السجن القديم حيث كان صديقها نيلسون مانديلا مسجوناً، وحيث يتحد النظام القانوني الغربي مع تقاليد الآباء الإفريقية، كتحيق العدالة تحت شجرة مورقة على سبيل المثال. استقبلتنا غوردنيمر في حيها السكني الراقي المعروف بعدم الأمان (فصاحت بنا من النافذة «استقلّ السيارة! لقد نُهب ثلاثة أشخاص الأسبوع الماضي!»). وبالفعل، بعد أن استقبلتنا بعدة أيام، قام بعض اللصوص بتكبيها ونهب منزلها.

أكثر المقابلات تسلية هي تلك التي أجريناها مع داريو فو، الذي أمضينا بصحبته بضعة أيام في روما كانت ضرباً من الاحتفال الطريف والسياسي والثقافي. فلقد توالى العروض المسرحية الجامعية، وارتجالاته المرححة وسط الشارع، إضافة إلى تجمعات اليسار الاشتراكي الإيطالي وأغانٍ مثل بيللا تشاو تشاو تشاو مع أصدقائه حتى الفجر. كما غنّت لنا - سرّاً - الشاعرة المحافظة ويسلاوا زيمبورسكا التي أذهلتنا حين هاجمتنا بمجرد دخولنا قاعة: «أولاً، لا أحب الحديث عن الشعر. ثانياً، لا أحب الحديث عن ويسلاوا زيمبورسكا، أي أنا. وثالثاً، لا أحب الحديث عن السياسة». لكنها لحسن الحظ، سرعان ما نكثت بوعدها. وهي بالإضافة إلى غابو وليسينغ الثلاثة الوحيدون ممن أجرينا معهم مقابلة، والذين لم يتمكن من إخراجهم إلى الشارع. لقد تغاضى التركي أورهان باموق - الذي هدّدته في ذلك الوقت عصابات قومية تركية بالموت - عن أمر اصطحاب حارس شخصي معه، ورافقنا في نزهة في حيه وهو يقهقه ضاحكاً على مزحته المبهمة التي مفادها: «لو جاء قاتل ما لاعتقد أنكما حارساي». استغل باموق وجودنا لينفي للمرة الأولى خبر هروبه من اسطنبول، كما كانت قد أكدت بعض وسائل الإعلام.

من النزهات الممتعة الأخرى، من دون شك، تلك التي أمضيناها في برلين مع إيمرة كيرتيس، الذي لم يرغب باصطحاب زوجته ليرينا الآثار الهامة، بل قام بجولة معنا في حيه شارلوتنبيرغ، وأرانا المحلّ الذي يشتري منه الخضار، والتراس الذي يأكل فيه البيتزا، واللوحات التذكارية البسيطة للمكان الذي اعتقل فيه، وهي أحد أوجه تاريخ أوروبا الذي وجدناه متبايناً مع لقائنا بغونثر غراس، الذي اعترف حديثاً بماضيه مع الشوتزشتافل، والذي رافقنا في مدينتين: في منزله الذي تحول إلى متحف في لوبيك، ثم في مدريد بعد بضعة أسابيع. تجولنا مع البرتغالي خوسيه ساراماغو وزوجته بيلار ديل ريو في كل أماكن لشبونة المذكورة في رواياته، لاحقين بجسده الطويل من دون تنفس على السلالم والمنحدرات اللامتناهية للشبونة. وبعد أن أمسينا كظله، رافقناه إلى الأوبرا ونشاطات الحزب الشيوعي وعروض عدة.

الخلاصة، إنّ الجملة المخطوطة باليد التي طلبها مني كيم قد تحولت إلى ساعات وساعات من التسجيل، وست عشرة قصة لشخصيات فريدة تشكل مجموعة استثنائية. لم ينقصنا إلا أربعة فائزين: ألفريد يلينيك الذي احتفى برهابة الاجتماعي المشخّص ليتهرب من لقاء شخصي طويل يتضمن جلسة تصوير متعبة (كتلك التي جعلت ساراماغو المنهك يصبح في لشبونة: «سأطلق الرصاص على المصور!»)، ودجيه أم دجي لو كليزيو، ودجيه أم كويتزي، الكارهان للصحافة أبداً، والإيرلندي سياموس هيني الذي كان يعاني من مشاكل صحية (بسيطة) في الفترة التي كان في وسعنا خلالها أن نزوره. وأخيراً، فإن مجلدنا يتضمن ديريك وولكوت، بالرغم من أنه في اللحظة الأخيرة لم يستقبلنا في سانتا لوثيا بل في أوفيدو وبرشلونة. لا يقدر أيّ من هذه اللقاءات بثمان.

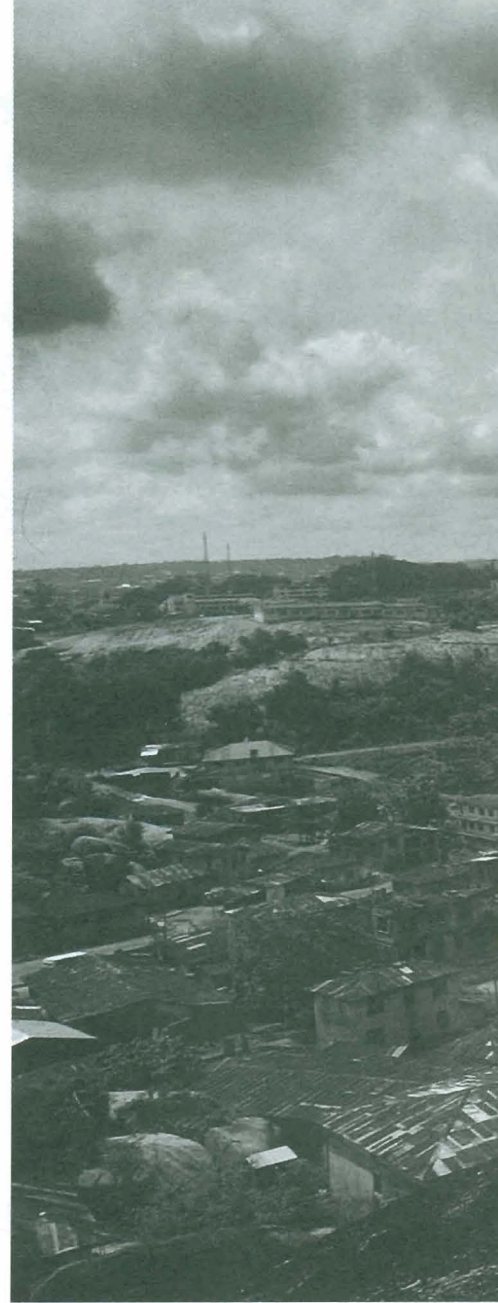
شافي آيين

وول سوجینکا



الرجل الذي أضاف الكلمات إلى أحلام إفريقيا.

من الصعب أن تقرأ كتبه في إسبانيا، إلا
أن نتاجه في مجالات الكتابة كافة هو
من الأعمال الأساسية في الأدب المعاصر.
يعيش وول سوجينكا في بلاده نيجيريا
التي ينتقد من دون خوف افتقارها إلى
الديموقراطية الحقيقية، وتجارة النفط
التي تُثري الحكومة وأصدقاءها، والأزمة
بين المتعصبين في أي دين كان. إنه
قدوة شعبية، إذ يدعو الكثيرون بمانديلا
النيجيري.





تتضمن تحت عنوان الموت للخونة صوراً لرؤوس بعض الثوار في المنطقة الغنية بالبترول في دلتا نهر النيجر. وبما أن متوسط العمر في نيجيريا هو أربعون سنة، فإن الشعب النيجيري الذي يعد من أفقر شعوب العالم بالرغم من الثراء الفاحش الذي ينعم به بعضهم بسبب البترول، يواجه مشاكل كالكرهية الدينية، وأزمة الخدمات الاجتماعية، والمصحات، والبنى التحتية المزرية، والمعدلات المرتفعة للجريمة في مناطق مثل لاغوس؛ أكثر مدن إفريقيا سكاناً بقاطنيها الذين يربو عددهم على خمسة عشر مليوناً. يكاد السفر إلى هناك لإجراء المقابلة يبدو جنوناً.

تواعدنا مع الكاتب في نقطة معينة من الطريق. وحين رأنا قادمين ترجل من سيارته لاستقبالنا. إنه طويل ومليء بالطاقة. يعيش هذا الرمز للديموقراطية في بلده: «ثلث العام في الولايات المتحدة، وثلثه الآخر في نيجيريا، والثلث الأخير في الطائرات».

عانى السجن، والجلد، وعقوبات مختلفة خلال الحقب السياسية المختلفة التي مرت بها نيجيريا منذ العام 1960 حين نالت استقلالها من بريطانيا العظمى. عانقنا وهو ويقول: «أهلاً وسهلاً. سنذهب اليوم في

الصحفي جالس في مدينة أوفيدو، إلى جانب المصور كيم مانريسا، في البهو الفخم لفندق التحرير، وهو ينظر إلى الساعة ببعض القلق. يقيم الأديب النيجيري الحائز على جائزة نوبل وول سوجينكا بضعة أيام في هذا المبنى الأثري في عاصمة مقاطعة أستورياس ليشارك في اليوم العالمي للشعر الذي نظمتها الأمم المتحدة ومؤسسة أمير أستورياس. يصل مبتسماً ومعتذراً عن تأخره: «عذراً، لكنني كنت أحرر بعض الرهائن».

يصيح ديريك وولكوت، أحد الشعراء الجالسين إلى الطاولة: «ماذا؟ ما هذا الذي تقوله يا وول؟».

- لقد اختطف عصابة دلتا النيجر تسعة غربيين يعملون في شركة شيل. كنت أجري بعض الاتصالات ليحرروهم... لا تنظر إلي هكذا يا ديريك، فقد توصلت إلى تحرير ستة منهم، ولم يبق إلا ثلاثة. لكننا سنحررهم أيضاً، انتظر وسترى...

ليست نيجيريا بلداً مملاً؛ نتذكر ذلك اللقاء الأول، في الطائرة التي تنقلنا من لندن إلى لاغوس، بعد شهر، ونحن نتصفح مجلة ذا ويك التي ينشرها في العاصمة البريطانية منفيون نيجيريون، والتي

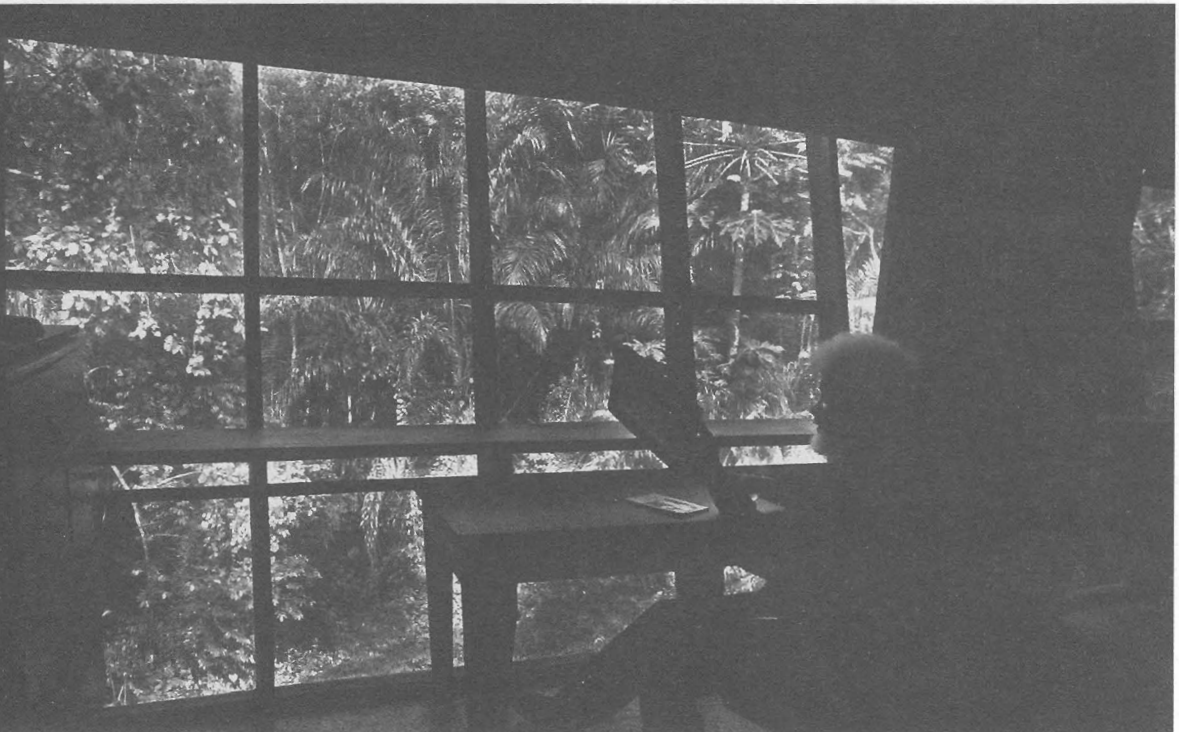
الخيال يمكنك أن تقتل شخصية، أو تبعث بها إلى مكان آخر، أو تجعلها تمرض أو تقع في الحب... في الخيال، القرار كله بيدي، ولكن هنا، أف...». الكتاب هو أيضاً قصة البلد خلال الخمسين عاماً الأخيرة، ويحاول شرح كيف يمكن لإحدى القوى النفطية في العالم أن تكون في الوقت ذاته رائدة في الفقر والحرمان. «قيدتنا حكومات عسكرية متتالية. جعلنا النفط نفقد نظامنا الإنتاجي: هجرنا الصناعات الصغيرة والزراعة... أطاح النفط بكل شيء، وتحول إلى مركز نظامنا الاقتصادي. وبما أنه حكر على الحكومة، فإن حكومتنا هي الأغنى في العالم. لكن الغنى لا يتجاوز الحلقة الحاكمة المحدودة».

وصلنا أخيراً إلى بيته، وقد بدا كسدّ من الطوب الأحمر، حديث البناء، يتصب في وسط الغابة الاستوائية في جبال آبيوكوتا، وتحيط به النباتات من كل مكان. «حين فرّ بنوبل امتلاً رأسي بالمال. فقد امتلكتُ أكثر بكثير مما كسبته أجيال من عائلتي مجتمعة، وأردتُ إنشاء منزل تقام فيه ورش عمل للكتاب، يمكنهم أن يأتوا ليعملوا فيه بهدوء».

إلا أن بعض الأكياس والأدوات والشذوذ في السطح تعطينا انطباعاً بأن البناء قيد الإنشاء. «أجل، لقد دمره العساكر، لكنني أعيد بناءه ليصبح مطابقاً لما كان عليه تماماً. يسجلون كل شيء، وقد اعتقدوا أنني



رحلة إلى آبيوكوتا». وهي المدينة التي ولد فيها في العام 1934، وتبعد ساعة ونصف عن لاغوس. تحدّثنا عن كتاب ذكرياته الجديد (الذي يُفيدُ عنوانه معنى: عليك أن تباشّر طريقك مع الفجر) والمنشور حديثاً في إفريقيا والولايات المتحدة، والذي مثّل له تحدياً مهنيّاً كبيراً. يقصّ علينا: «في



امتلكْتُ أجهزة إذاعة المعارضة الديمقراطية، لكنهم لم يجدوا شيئاً، ها ها».

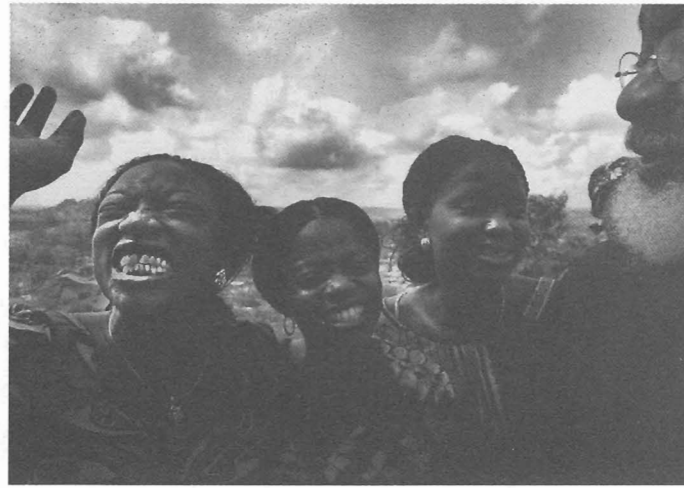
منزل سوجينكا - الذي صممه بنفسه - فيه اكتفاء ذاتي من الماء والغاز والكهرباء. «لديّ مولد، وصفائح لتوليد الطاقة باستعمال الأشعة الشمسية، وجرار غاز، وبئر. لا يمكنك أن تثق بأن الحكومة ستؤمنها لك، فقد قال الرئيس أوباسانجو إننا جميعاً سننعم بالكهرباء خلال سنتين، لكنهم أعلنوا لتوهم أن هذا لن يحدث قبل العام 2056! لا يهمهم إصلاح ذلك، لأن تجارة بيع المولدات ضخمة وتدرّ أرباحاً كثيرة من الضرائب والعمولات».

وبالرغم من هذا النظام المقلقل (بحيث ينقطع التيار الكهربائي عن المنزل أحياناً) فإن المكان المليء بمنحوتات تقليدية تنتشر فيه روح أصالة أخاذة. يعرض علينا سوجينكا بحجور المسرح الدائري «حيث يمثل الفنانون». بعد اجتياز غرفة تكّس فيها علب الكتب، نصل إلى الاستوديو: وُضعت فيه طاولة أمام نافذة ضخمة تتيح المجال لرؤية الغابة المحيطة بالمكان كلّها. نبذل جهداً لنسمعه، من دون الاستسلام لتأمل الغابة المورقة التي لعلها تملي عليه في الليل بعضاً من القصص الإفريقية التي يكتبها.

وبينما يرش برذاذ قاتل للحشرات قناعاً يوروبياً احتلّه النمل الأبيض (وهو يصرخ على هذا الدخيل: «سأقتلك أيها الملعون!») يدعونا لتذوّق الشراب.

القضية: مع الديمقراطية ضد النسيان

منذ التزامه المبكر باستقلال نيجيريا، تحول وول سوجينكا إلى وجه وصوت الصراع من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان في بلده، مواجهاً المرة تلو الأخرى الحكومات العسكرية المتتالية التي بلغت سدة الحكم في هذا البلد شديد التنوع الذي تنتشر فيه مئات اللغات والأعراق، بالإضافة إلى موظفي السلطة التنفيذية المنتخبين منذ العام 1999. لوحق وسجن مرات عدّة، ونُفي في الفترة الممتدة بين عامي 1970 و1975. يعتقد سوجينكا أنهم بحاجة إلى دستور وعملية ديمقراطية. «لا ينفك يزداد في هذا البلد



القضية: مع الديمقراطية ضد النسيان

منذ التزامه المبكر باستقلال نيجيريا، تحول وول سوجينكا إلى وجه وصوت الصراع من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان في بلده، مواجهاً المرة تلو الأخرى الحكومات العسكرية المتتالية التي بلغت سدة الحكم في هذا البلد شديد التنوع الذي تنتشر فيه مئات اللغات والأعراق، بالإضافة إلى موظفي السلطة التنفيذية المنتخبين منذ العام 1999. لوحق وسجن مرات عدّة، ونُفي في الفترة الممتدة بين عامي 1970 و1975. يعتقد سوجينكا أنهم بحاجة إلى دستور وعملية ديمقراطية. «لا ينفك يزداد في هذا البلد عدد مخالفات حقوق الإنسان، فلم يسمعوا يوماً رأي الناس هنا. نطالب بجمعية تشريعية تسنّ دستوراً لأمركنيا وديموقراطياً».

التزامه الآخر يتعلق بإقرار السلام في بلده، وهو صلة وصل بين الحكومة وعصابات دلتا النيجر التي تكافح للتحكم بالثروات النفطية في المنطقة، كما أنه يدافع عن توزيع أكبر للأرباح التي يدرّها الذهب الأسود، وكثيراً ما يزور تلك المنطقة. يقول مازحاً: «لورافتماني أعدكم بألا يختطفوكم».



عدد مخالفات حقوق الإنسان، فلم يسمعو يوماً رأي الناس هنا. نطالب بجمعية تشريعية تسنّ دستوراً لامركزياً وديموقراطياً.

التزامه الآخر يتعلق بإقرار السلام في بلده، وهو صلة وصل بين الحكومة وعصابات دلتا النيجر التي تكافح للتحكم بالثروات النفطية في المنطقة. كما أنه يدافع عن توزيع أكبر للأرباح التي يدرّها الذهب الأسود، وكثيراً ما يزور تلك المنطقة. يقول مازحاً: «لو راقتماني أعدكما بالاً يخطفوكما».

إفريقي «يشبه كثيراً الأوروخو» من ثمار القصب البري. نلاحظ الإرادة الهائلة لهذا الرجل، الذي أعاد بناء منزله بعناد، في نواذره، كذاك اليوم الذي عاد فيه إلى الخربة التي حلت محل منزله بعد أن دمره الجيش: «وجدتُ عدداً هائلاً من الخفافيش التي احتلت كل شيء. فاق عددها الخمسة آلاف! وشيئاً فشيئاً أخذتُ أخرجها أو أقتلها».

أوغون، هو سيد سوجينكا المبجل

أوغون هو سيد سوجينكا المبجل، وبما أنه يوروبي جيد، فقد اختار واحداً من بين عدّة أسياد مبجلة محتملة. يشكل اليوروبيون واحداً وعشرين بالمئة من سكان البلاد، ويعملون بالزراعة المنزلية،

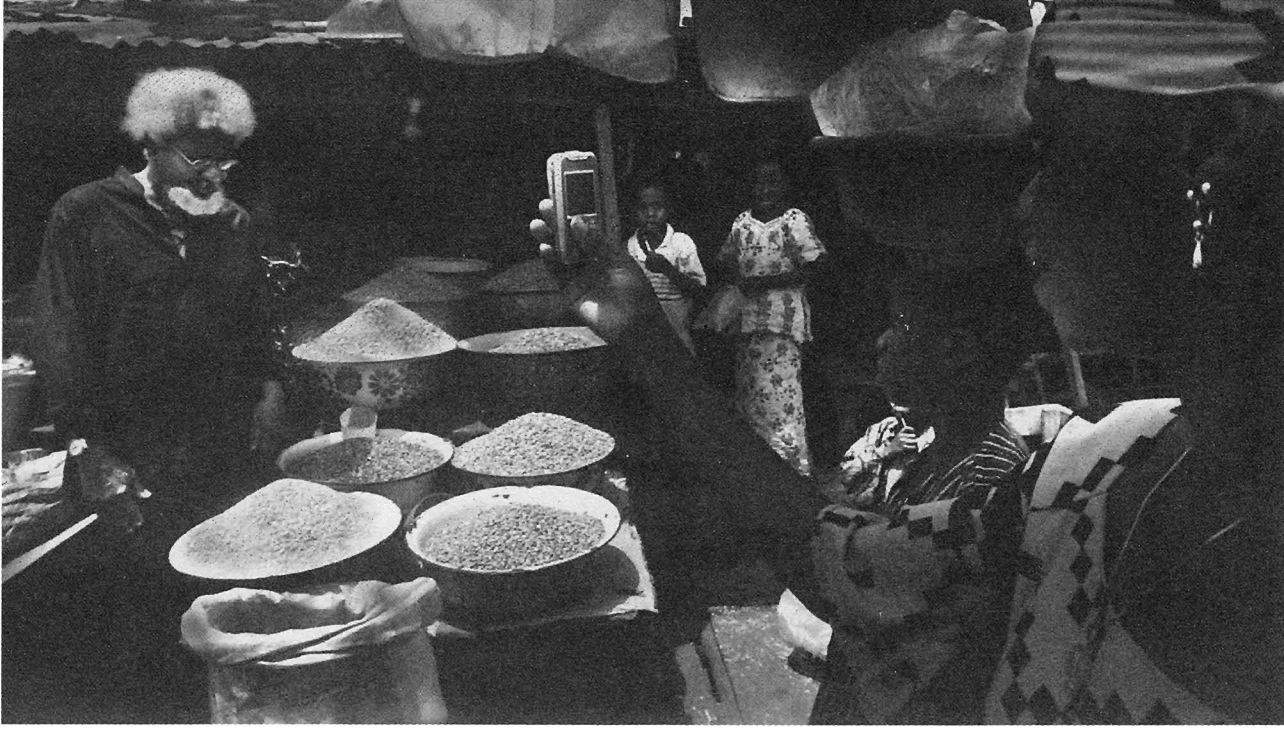


كما أن بعضهم من أهم فناني إفريقيا. وبانضمامهم إلى مجموعات العبيد، انتشروا في بلاد مثل كوبا (حيث نشروا الديانة السانتيرية) وجامايكا.

الفلسفة اليوروبية الداعية إلى السلام والتسامح لا تزال حية في بلد أطاح به العنف. يتحسر الكاتب قائلاً: «لدينا متعصبون من الديانتين الإسلام والمسيحية هدفهم القضاء على بعضهم بعضاً. يعتقد كل من أتباع هاتين الديانتين أنه متفوق على الآخرين. تحدث جرائم قتل وتدمير في القرى بشكل دوري... هذا يحزنني لأن غنى الأديان المختلفة والعلاقات بينها تشدني منذ طفولتي. اعتدتُ النهوض لأذهب إلى المدرسة المسيحية وأنا أصغي إلى صوت المؤذن في الجامع. وعلى الطريق، كنت أرى العروض الحيوية للديانات الإفريقية التقليدية:

جو الكرنفال ذاك بشخصياته الجذابة... كل ذلك عنى لي الأمر نفسه: مجازات تعبر عن محاولة البشر للتواصل مع الكون الواسع المجهول. تمكن اليوروبا من البقاء، وليس في وسع أحد اجتثاثها. ساعد الراديو كثيراً على الحفاظ على التراث المحكي».

كيف تصف أوغون، سيدك المبجل الحارس؟



المتفاجئ ممّا يقوله له الأستاذ، فتعود إليه ذكريات «كان ذاك في اليوم الأول من الدراسة، حين لم يتجاوز عمري الستين والنصف. لم يكن عليّ الذهاب إلى المدرسة بعد، لكنني ذات صباح لحقتُ بأختي الكبرى إلى هنا... وبقيت».

نصعد إلى صخور آبيوكوتا وصوت المؤذن الذي ينتشر كالنسيم العليل يرافقنا. هذه الصخور هي حالياً مركز جذب سياحي (وهي مفارقة في بلاد لا يزورها السياح بعد بالرغم من جهود الحكومة).



لستُ تقياً ولا متعبداً. ليس هذا جيداً. لكن شخصية أوغون هو السيد المبجل للطرق والدروب، وكلاهما مهمّان جداً في حياتي، كما يمثلان الطبيعة الثنائية المتناقضة للبشر؛ نحن بنّاؤون ومدّمرون في الوقت ذاته. أعتبر تطابقي مع صفاته بمثابة تحرير لي. أوغون حربي جداً، أو إنه بالأحرى يمتلئ بالطاقة عند الأزمات، ويكتسب قوته من ذلك. إنه سيدنا المبجل؛ نحن عاشقو الوحدة، كما أنه شاعر غنائيّ وصيّاد. ليست اليوروبا «ديانة مهجورة، فهي تتجدد باستمرار لتتضمن الحقائق الجديدة: كالاستعمار في حينه، والتكنولوجيا اليوم». يفتن سوجينكا التشابه بين السادة المبجلة لدى كل من الإغريق واليوروبا: «أدهشني اكتشاف امتلاكنا هيكل السادة المبجلة نفسه. في كلتا الحالتين، هناك الكثير من السادة المبجلة التي يختص كل منها بموضوعات محددة جداً، وتتصرّف بطرائق إنسانية جداً: ترتكب أخطاء فادحة، وتكذب، وتتصّف بالشبق والفظاظة... تمثّل طرة عملة صفاتنا ونقشها».

ياخذنا سوجينكا في نزهة إلى المدرسة القديمة التي درس فيها في صغره. لا تزال الجدران الأربعة للبناء الذي يبدو على وشك الانهيار قائمة، بالإضافة إلى بعض المقاعد ولوح قديم. يجلس في المكان نفسه الذي اعتاد الجلوس فيه، وتصنّع وجه الصبيّ

يشرح الكاتب أنه: «بين هذه الصخور اختبأ رجال العصابات وقاموا بهجماتهم». من هذا الارتفاع يمكننا أن نرى المدينة بأكملها.

مانديلا النيجيري

تتحول سوق المدينة التي تبدو كفوضى من الألوان والصخب والروائح المفعمة بالحياة إلى قنّ دجاج حقيقي، ولكن من البشر. حين يدخلها سوجينكا، تناديه النساء ليظهرن له عواطفهن: «بابا!» أو «يا بني!» كل واحدة حسب عمرها. كل الناس يصورونه بهواتفهم النقال، يقطع الباعة والزبائن نشاطاتهم، حتى إن أحد الصبية يركل عترة كسولة على ظهرها لأنها اعترضت طريق سوجينكا. ليس هناك ما يثير الغرابة في أن يدعى مانديلا نيجيريا وفي سبب طلب الكثيرين منه أن يترشح لرئاسة البلاد. «رفضت ذلك في النهاية. هذا لا يناسب مزاجي، فالحرية والسلطة على طرفي نقيض». وزيراً للثقافة؟ «لا!!!!!! سيتوجب عليّ عندئذ التعامل مع الفنانين، وهم أكثر الناس إثارة للمشاكل، ولا يقتنعون أبداً. أفضل أن أصبح وزيراً للسجون قبل ذلك...».

تفوح من لاغوس، أكثر مدن القارة سكاناً، رائحة البنزين. بكل ما للكلمة من معنى. تلك الرائحة نفسها التي نشمها في محطات الوقود تنتشر هنا في أحياء كاملة، خاصة تلك القريبة من الشاطئ والجزر حيث تمر أغلب القنوات التي ينساب فيها الذهب الأسود. كُتب على ملصقات وضعتها الحكومة بأحرف كبيرة: «لا تشاركوا في أعمال تخريب أنابيب النفط». قبل وصولنا بيوم انفجر فرع من هذه الأنابيب، ومات قرابة مئتي شخص. أعمال التخريب التي تحدث عنها الحكومة محاولات يائسة يقوم بها آلاف الأشخاص الذين لا يجدون طريقة لإطعام عائلاتهم إلا بثقب الأنابيب التي تنقل النفط لبيعوه بعد ذلك بسعر زهيد. ليست آبيوكوتا الجميلة المركز الأساسي للاغوس، لكننا جئنا إلى هنا لمرافق سوجينكا في يوم عمل مليء بمؤامرات سياسية متنوعة.

في أثناء اجتماعات الحركة الديمقراطية،

خلف أبواب مغلقة، انتظرناه بصبر يحرسنا مرافقوه من نظرات الجالسين. وعلى العكس، في أثناء اجتماعاته بالحكّام انضممنا إلى موكبه. عبر نافذة سيارة أخرجوها بأعجوبة من مكب السيارات، راقبنا البؤس العالمي بأشد أشكاله: هناك أطفال عراة يلعبون فوق النفايات، كيلومترات وكيلومترات من الأكواخ، مراهقون منتشرون على أرصفة الطرقات السريعة لبيعوا بضاعتهم للسائقين...

يرفض سوجينكا الحديث عن حياته الخاصة رفضاً قاطعاً، ولا يقول لنا إلا إنه يملك الكثير من الأبناء والأحفاد. ويذكر بشكل عام أن «المرأة النيجيرية متحررة أكثر بكثير من غيرها في مجتمعات أخرى. وحتى في حالات تعدد الزوجات، فإنهن يسيطرن إلى حد ما على حياتهن. بالنسبة إليّ، لا علاقة لتعدد الزوجات بالتمييز بين الجنسين».

في طريقنا إلى المطار كنا نفكر في التمرد الذي انفجر قبل أيام في رحلة بين مدريد ولاغوس: منع الركاب الطائرة من الهبوط بسبب وجود نيجيريتين بينهم لا تملكان أوراقاً أعادتهما الحكومة الإسبانية إلى وطنهما. يستوعب سوجينكا سبب التمرد: «لكل بلد سياساته المتعلقة بالهجرة. السؤال هو: أي سياسة يجب تطبيقها؟ ويبدو لي من المؤسف أنه حين يخاطر الناس بالكثير، حتى بحياتهم، ليدخلوا بلداً، فإنهم يعانون فوق ذلك من التمييز، أي تفضيل الأجانب مثلهم - الذين يأتون من بلاد أخرى - عليهم».

يتسم الكاتب حين يذكر أن «كوفي عنان، أمين عام الأمم المتحدة، جاء إلى نيجيريا عند موت الديكتاتور آباتشا، وقال لي: وول، عليك أنت وشعبك أن تكونوا منطقيين. نكون منطقيين؟! أتعرف ما طلبناه؟ جمعية تشريعية تدعو لانتخابات ديمقراطية. ألا يبدو هذا لك منطقياً؟ الملايين من البشر مثلي يريدون أن يصبح العالم أكثر منطقية...». يقول ذلك من دون أن يفقد ابتسامته، بينما السيارة تتعد عن رائحة البنزين.

دوريس ليسينغ



«الرجال والنساء يعيشون في عالمين مختلفين».

تتحدث دوريس ليسينغ عن رجال ونساء،
عن مشاكل الناس الحقيقية، وعن العمر
والحب. تتجول كتبها الجدية وكتب
الخيال العلمي في فضاءها الثري، المتقلب،
المزدحم.





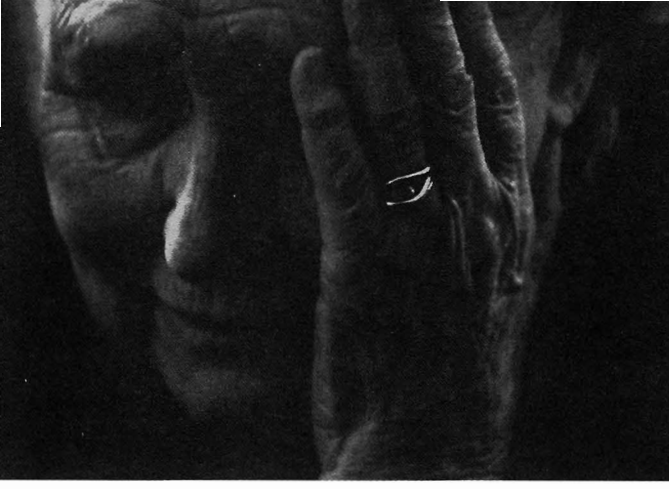
يُسمع عبر التلفاز ضجيج الأدغال، فمهرجان ركوب الخيل في شلتنهام هو إحدى المناسبات التي ينتظرها بفارغ الصبر مشجعو سباقات الخيل الإنكليز كل عام. تتابع مضيفتنا باهتمام أخبار حصان سباق يدعى كاوتو ستار، وهو على ما يبدو من عرق الأحصنة المدعو بالزידان. في إحدى اللحظات، تبدو وكأنها قد خرجت من عالم التلفاز لتسألنا «ألا تحبان الأحصنة؟»، ثم تسحب بيأس، وتهذب في آن واحد، جهاز التحكم عن بعد الموضوع تحت جبل من الصحف، وسرعان ما تتحول شاشة التلفاز التي يظهر عليها حصان يقفز فجأة إلى السواد. «هيا، فلنباشر المقاتلة». تستقبلنا البريطانية دوريس ليسينغ ذات الثمانية والثمانين عاماً بحيوية، وتلفظ الكلمات كما لو كانت ممثلة مسرح؛ هي طبيعية جداً، بملابس المنزل، في يوم ماطر كثيب، في منزلها ذي الطوابق الثلاثة في لندن. وبعد أن تدعنا نلتقط لها بعض الصور، تتجه إلى أريكة حمراء طويلة، فتبعد قليلاً الملاءة والبطانية وتأمرني «اجلس هنا، إلى جانبي!».

- وهذه الملاءة؟

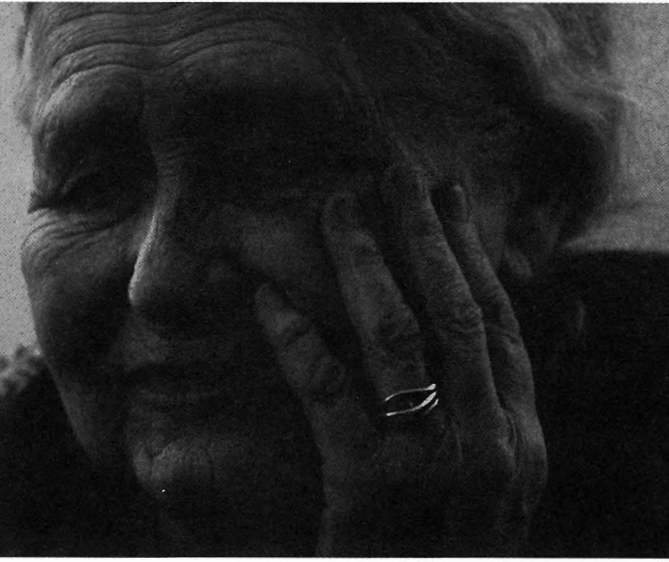
- نحن جالسان على سريري أيها الشاب. أنام هنا ليلاً في الوقت الحالي؛ سريري الحقيقي في الطابق العلوي، لكن عليّ صعود سبع درجات للوصول إلى هناك، وهذا يتعبني كثيراً لأن ظهري يؤلمني...

نبدأ بالحديث عن آخر رواياتها المنشورة، الأنثى، التي تدور أحداثها في عصر رجل الكهف، وتروي اللقاء الأول بين الرجال والنساء. تبين ليسينغ قائلة «هناك علماء يؤكدون أن الإنسان الأول على الأرض كان امرأة، ولذلك فقد جاء الرجال في ما بعد. ومن دون التطرق إلى صحة ذلك أو عدمه، يبدو الأمر موحياً جداً بحيث إنني كلما فكرت أكثر في الموضوع، وجدت له احتمالات أكثر. هكذا، بدأت أتخيل ما الذي كان سيحدث لو أن النساء وحدهن قد سكنن الأرض لمدة طويلة، في جزيرة ما ذات طقس رائع، ولديهن طعام تحت تصرّفهنّ، فتصورت مجتمعاً بدائياً يقتصر على النساء، يمتلكن فيه القدرة





على التكاثر من دون اشتراك الرجال. وفي أحد الأيام يولد ذكر فجأة. أتنخيلان ذلك؟ لا شك في أن تأمل أعضاء التناسلية قد سبب صدمة كبيرة للنساء، وعلى الأغلب أنهنّ قد نظرن بازدراء إلى تلك اللواحق البشعة جاهلات وظيفتها. وهكذا نجد في كتابي أن الصقور تحمل الأطفال المسوخ (كما يدعونهم) إلى مكان آخر ليعيشوا ويكبروا بعيداً عن الإناث، إلى أن تقرر في أحد الأيام جماعة منهنّ مباشرة حملة للوصول إليهم، إلى الجداول».



يمكن قراءة الكتاب كحكاية رمزية تطرح موضوعات مختلفة كمفاهيم المتعة، والعمل، والمسؤوليات بين الجنسين، واضعة الرجل في مرحلة أكثر طفولية، ولكن من دون ازدرائه، فيبدو ذكر البشر مخلوقاً «رائعاً وحيوياً». نقول لها إن العنف في بعض المشاهد يتناقض مع الطابع اللطيف العام للقصة، فتجيب: «أبامكاني أن أخبرك بأمر حول ذلك؟ في المقالات النقدية قالوا ما أبشع تشويه الأطفال الصغار حين تقتلع النساء أعضاءهم التناسلية كما أكدوا على القسوة النسائية؛ إذاً، فلنقل إن أحد النقاد قد شعر بشكل أو بآخر أن أعضاء التناسلية شخصياً قد استؤصلت. لكن ما يثير الفضول هو أنني قد وصفتُ اغتصاباً جماعياً في البداية، حين يتعرف الصبيان إلى الفتيات، فيغتصب الجميع المرأة قبل قتلها، ولم يذكر أحد الموضوع! أتساءل إذا كان هذا أقل عنفاً من استئصال أعضاء الذكور التناسلية». على كل حال، تقول ليسينغ: «الرجال والنساء يعيشون في عالمين مختلفين، ليس في كتابي فحسب، بل في الواقع أيضاً. نحن مختلفون جداً، وإنكار ذلك خطأ فادح. إننا عرقان مختلفان يحاولان الحياة معاً كي لا نشعر بالوحدة؛ هكذا أرى الموضوع».

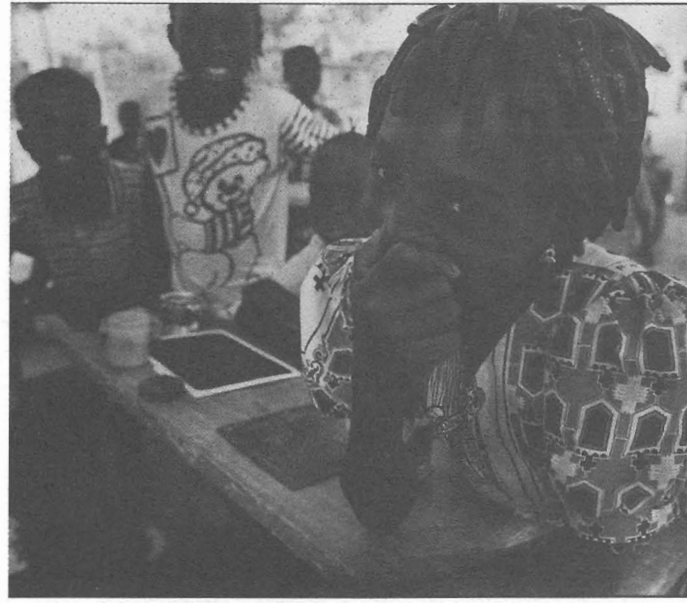


يرن الهاتف فجأة. على عكس غيرها من الحائزين على جائزة نوبل في سلسلة المقابلات هذه، ليس لديها مساعدون للقيام بالأعمال المكتبية. دائماً تُجيبُ هي شخصياً، كما لو كانت الأم العزباء نفسها التي وصلت في العام 1949 إلى لندن الرمادية التي دمرها قصف الحرب العالمية. يومها كانت تحمل بين

ذراعيها ابنها بيتر، وهو الشخص ذاته الذي كان ينتظر في المطبخ في اللحظة التي كنا نتحدث فيها. لم يعودا يسكنان في نزل يتقاسمان فيه الطابق مع الساقطات، وإنما في منزل برجوازي، بريطاني جداً، ذي لمسة فوضوية تظهر من خلال الكتب المتكدسة في الزوايا الأقل توقفاً في المنزل، مشكّلة أكواماً تتحدى قانون الجاذبية، أو تجدها فوق بعض الدرجات كما لو أنها تهرب من اللعب الكرتونية نصف الممتلئة. تضيء الشمس أحياناً، في البهو حيث نتحدث، الغبار المتطاير من البسط والسجاد الفريد المتراكم والذي يكاد أن يقع.

من الممكن متابعة أحداث ليسينغ العائلية في كتب سيرتها الذاتية مثل بحثاً عن إنكليزي (1960) - الذي أعيد نشره تحت عنوان صنع في إنكلترا - وفي داخلي (1994)، ونزهة في الظلال (1997). باختصار، بعد أن ولدت في إيران لأبوين بريطانيين، وهجرتها أمها في عمر الخمس سنوات حين سافرت إلى روديسيا (زيمبابوي الحالية)، تزوجت وهي صغيرة جداً، فأنجبت صبيّاً وبتناً، ثم تطلقت، وتزوجت بغوتفرايد ليسينغ، أحد نجوم الحزب الشيوعي، والذي تركها لأجل فتيات أصغر سناً بعد أن أنجبت منه ابنها بيتر (الذي لا تزال تعتني به بسبب إعاقته). ذهبت ليسينغ بمفردها إلى إنكلترا وفي جيها ما لا يزيد عن المئة جنيه ومخطوط روايتها الأولى الأعشاب تغني، تاركة عائلتها السابقة.

جعلتها التجارب المتتالية تفقد ثقتها بالحب الرومانسي المثالي، الأمر الذي يطابق تقريباً موقفها من الشيوعية. ونظراً إلى أنها أم عزباء ولا تملك النقود، فقد عملت في كل المجالات: عاملة مقسم، جليسة أطفال، عاملة مكتبية، حتى إنها اشتغلت كصحفية، ثم تركت العمل لأنه كما تقول: «كان المدير يملئ عليّ الأفكار التي توجب عليّ الدفاع عنها في مقالاتي، وهو أمر لا يغتفر أليس كذلك؟». ابنها الأكبر، جون المزارع، مات بنوبة قلبية في العام 1992، فيما ابنتها جين تقيم حالياً في جنوب إفريقيا. ومع أن بيتر كان موجوداً في المنزل في أثناء حديثنا،



القضية: كتب للعالم الثالث

استغلت ليسينغ فرصة خطبة استلام جائزة نوبل للقيام بحملة لإرسال كتب إلى الدول النامية. تؤكد أن «جميع الحكومات تشكل مصدر خجل لمواطنيها أحياناً». حيث تذكر بغضب أن حزب العمال الحاكم قد قلص ميزانية بولك إيد إنترناشيونال (BAI)، وهي منظمة تشجع الأدب في بلدان العالم الثالث عن طريق توزيع الكتب المستعملة. تدخلت شخصياً في تأسيس نظام لإيصال الكتب إلى القرى النائية المنسية، لأن «المولفين لا ينشأون في بيوت خالية من الكتب». ويجب أن يتمكن الجميع من تطوير مواهبهم.

إن وصفها لواقع زيمبابوي وأهمية القراءة ليتمكن جيل الشباب من التمسك بالأمل حمل دار هاربر كولينز للنشر على التبرع بعشرة آلاف كتاب إلى مدارس روديسيا الجنوبية القديمة. توجه ليسينغ اتهامها مباشرة إلى رئيس زيمبابوي روبرت موغابي لحرمان الشعب من إمكانية شراء الكتب أو الكتابة للحفاظ على «مملكة رعبه الفظيعة».

إلا أن أمه لم تكن تريد أن يظهر في التقرير. «عمري ثمانية وثمانون عاماً، وأنا أعطني بابني المريض. ليست هذه الحياة التي كنت أحلم بها بالضبط لكنني بالطبع لا أتحدث عن الموضوع».

لا تزال ليسينغ في مكانها المعهود أبداً: إلى جانب الضعفاء، ولو أنها مع العمر قد شكّلت غطاءً من الشك يحيط بالأيديولوجيات. «لا أحب التفكير المنغلق، وأجدد أفكاري دائماً. كنت شيوعية حتى العام 1954، وقد غرسوا في ذهني فكرة الطبقة العاملة كما لو كانت نوعاً من المثالية الطاهرة، أو من الفضيلة الأفلاطونية التي لا يمكن الوصول إليها، والتي لاحقتها بذهابي إلى المصانع لأعمل، لأرى إذا ما كنت سأصبح عاملة بحق. إلى أن اكتشفت أن الموجود في الواقع هو الناس؛ ناس مختلفون جداً يضطرون إلى تدبير أمورهم بأقل القليل ليتمكنوا من الوصول إلى آخر الشهر. هذا كل شيء».

زرنا دوريس ليسينغ في المنزل نفسه قبل أيام قليلة من التصريح بأن حالتها الصحية تمنعها من استلام جائزة نوبل في ستوكهولم. عندها حدثنا عن مشاكل ظهرها. تكشف قائلة: «في الحقيقة، أصبت بمشاكل خطيرة في القلب. ليس ظهري بحالة جيدة، لكن الأخطر الآن هو قلبي».

- لعل السبب يكمن في صدمة النوبل؟
- (تنهد) لن أتفاجأ بتاتاً إذا كانت الجائزة هي السبب. فعندما تفوز بهذه الجائزة (والتي هي من ناحية أخرى مصدر سعادة كبيرة) تتغير حياتك كلياً. بوم بوم بوم! كما لو أنهم يطلقون الرصاص على الأرض كل يوم، وعليك أن تقفز. بوم بوم بوم! يندق الباب، يرن الهاتف، الجميع يريدون رؤيتك... فتأزّم حالة جسدك وقلبك. عليّ أن أرتاح كثيراً، ولا يمكنني صعود الدرج...

- ولكن، إذا كنت تنامين هنا... أين تكتبين؟
- مكتبي في الطابق العلوي أيضاً! هناك ظلت ألتقي الكاتبة القديمة بانتظار أن يتحسن ظهري لأتمكن من الصعود والعثور عليها. لذلك، أنا لا أكتب في الوقت الحالي، بل أجري المقابلات، وأستقبل الناس.

قال لي أحد الأصدقاء (بيتر، باموق) إنك خلال السنة الأولى التي تلي استلام جائزة نوبل لا يمكنك الكتابة، بل ستمضيها في استقبال الناس. ظننت أنها إحدى ترهات الكتاب، لكنني الآن أرى أن هذا صحيح.

سلمت ليسينغ لتوها روايتها الجديدة إلى ناشرها، وهي بعنوان ألفريد وإيميلي (اسماً أبويها) وستنشر في أيار في بريطانيا العظمى. «تدور أحداثها حول كيف كان العالم سيبدو لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى. كان أبواي ضحيتين لهذه الحرب، فلقد فقد أبي إحدى رجله، لكن المهم أن الأزمة دمرت حياتهما. في القسم الأول من الكتاب أتحدث عما كان سيحدث لو لم تنشب هذه الحرب. على سبيل المثال، ما كنا لنرى الثورة الروسية ولا الاتحاد السوفيتي ولا الرايخ الثالث ولا هتلر ولا لينين، ولا الحرب العالمية الثانية، طبعاً». لكنها ليست رواية تدور حول أحداث تاريخية عظيمة لأنني: «قبل كل شيء أعرض حياة الناس اليومية، وخاصة حياة أبوي التي كان من الممكن أن تتخذ مجراها الطبيعي. وبالعكس، فإن النصف الثاني من الكتاب هو ما حصل فعلاً، وأنا متأكدة أن القراء سيكونون تماماً كما بكيت وأنا أكتبها؛ عانيت مع هذه الرواية فترة رهيبية... إنها ضد الحرب كلياً، فأنا أظهر كيف تحطم الحرب حياة الناس البسيطة. تبرز شخصية أبي الذي كان سيصبح مزارعاً في إيسيكس؛ كان هذا حلمه. وأمي شخصية طيبة جداً وذكية، تنظم كل أنواع النشاطات الإنسانية».

- وأنت؟ ما الذي كان سيحصل لك؟
- أنا لا أظهر. لم أولد مطلقاً، لا أنا ولا أخي.

السياسة والدين

تدافع عن نظرة تآخ للأديان بحماستها تجاه الزهد الصوفي. «لو قرأنا جميع كتب العهد القديم، الواحد تلو الآخر، والأسفار، والعهد الجديد والقرآن الكريم، لأدركنا أنها تدور جميعها حول الأشخاص أنفسهم، وتسرد القصص نفسها، ... هذا يعني أنه يمكن رؤية الإسلام والمسيحية واليهودية كدين واحد في مجالات أو طرائق مختلفة، لكن أتباع

هذه الأديان جميعاً يغارون كثيراً من بعضهم بعضاً، ويؤكدون أن ديانتهم هي الديانة الحقيقية الوحيدة. كتبتُ شيكاستا مستعينة بمعارفي من جراء قراءتي للكتب الثلاثة هذه الكتب جميعها، لأن المسلمين أيضاً يتحدثون عن يسوع ومريم. استعملت كل ذلك لأنني بنفسي عالماً جديداً، فيه كواكب وإمبراطوريات مجرّية وشيطان...».

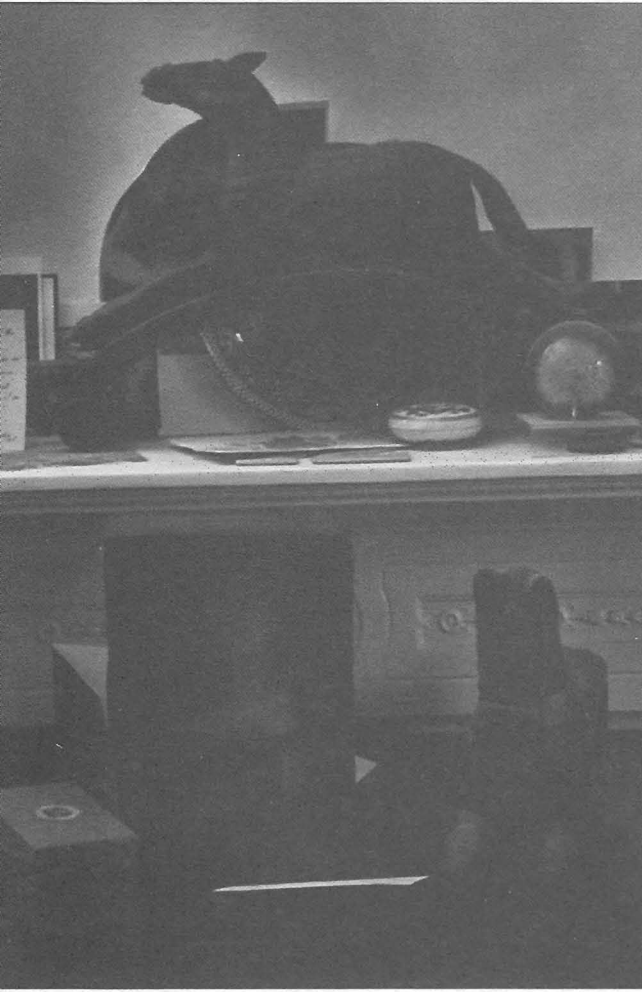
بالنسبة إلى السياسة، تؤكد قائلة: «إنّ كلمات مثل اليمين واليسار لم تعد تعني لي الكثير. أرى السياسة كعمل درامي كبير، وهو عرض فيه بعض اللحظات الجيدة، كما حصل حين فرض ملككم خوان كارلوس الديموقراطية في إسبانيا في وجه انقلاب اليمين المتطرف. رائع! ولكن مع بوش وطوني بلير الرهيبيين لم نحظ إلا باللحظات السيئة. تحسّناً مع غوردون براون، ليس لأنه شخص لامع، بل لأنه كان من المستحيل أن يسوء الوضع أكثر». تنظر باستحسان إلى وقوف الديموقراطيين مع رئاسة الولايات المتحدة، ولو أنها ترى أن باراك أوباما «لن يظلّ رئيساً لمدة طويلة. فالعديد من أصدقائي في الولايات المتحدة يعتقدون أنه سيقتل إذا فاز. الأمر غريب بالنسبة إلى الأوروبيين أليس كذلك؟ أن يعتقدوا أن رئيسهم قد يُغتال، إلا أن الكثيرين من أميركا الشمالية مقتنعون بذلك، وهو أمر مقلق، لأن أحداً لا يفكر مثلاً في أن بوش في خطر الموت، بالرغم من تصرفاته البربرية».

تقصّ علينا ليسينغ مبتسمة كيف اقترب منها مرة في السبعينيات عضو من لجنة نوبل وقال لها بنبرة باردة: «أنت لا تعجبيننا، ولن تحظي بالجائزة يوماً». «كان ذلك بسبب موافقي الانتقادية بخصوص الحركة النسائية، أخبروني أن موقفي فضائحي. عشت في ظرف محرج جداً، لأنني بالرغم من تعاطفي مع قضية المرأة، لم أحاول يوماً دعمها في كتبي، وبعد صدور الدفتر الذهبي (1962) اعتبرني العالم أجمع نموذجاً مثالياً عن قضية المساواة بين الجنسين، ووصلتني مئات الرسائل من نساء أصبحن جنديات بعد قراءة كتابي. أصبت بالإحباط لأن أحداً من النقاد لم يتكلف عناء

ذكر رأيه في ما لو كانت الرواية مكتوبة بشكل جيد أم لا، فلم يتحدثوا إلا عن بعض الأفكار المذكورة فيه، وبالغوا كثيراً في التفسيرات التي اعتبرها الناس جيدة. لم أتنفّق مع المدافعات عن حقوق المرأة في الستينيات لأنهنّ اعتقدن بالمسلّمات. لا أحب مثلاً أن نكرر ما فعلته النساء دائماً: الجلوس في المطبخ والشكوى من الرجال. قال هذا، لم يقل ذلك... هذا الابتهاال العقيم الذي تكرر على مدى التاريخ، والذي حولته بعضهنّ إلى نموذج. كما لا أتنفّق مع تلك الفكرة العاطفية التي مفادها أن النساء أكثر ميلاً إلى السلام: قادت السيدة تاتشر بوحشية واضحة حرباً ضد الأرجنتين. انظر، إنّ أفضل حليف لحرية المرأة - في الحقيقة - هو العلم الذي اخترع حبوب منع الحمل وآلات كالغسالة».

بالرغم من أنها قد روت رقة الحب كما لم يروها أحد، تعترف قائلة: «الحب الرومانسي ليس لي». ثمّ تتحدث مازحة عن تجاربها السيئة مع رجال زنوج («علاقتي بواحد منهم دامت ثلاث دقائق فحسب!»). وتذكر قائلة: «على عكس الأساطير، فإن الرجال الإنكليز هم الأكثر رومانسية في العالم، لأنهم يُسجنون في المدارس الداخلية حين يكونون في السابعة من عمرهم، حيث يكون ليلة تلو الأخرى من شوقهم إلى أمهاتهم. ولا شيء يشبه هذا الحرمان المبكر للأم من أولادها إلا أن تنجب أبناءً يقعون بشكل متكرر ودراميّ في حب أشخاص يصعب منالهم. ولكنهم حين يجدون شريكاً في نهاية المطاف يصبحون أفضل العشاق وأكثرهم ذكاءً وتسليّة».

ما يفتنها في العشق هو «السبب الذي يمكن شخصين من الشعور في لحظة واحدة أنهما منجذبان إلى بعضهما إلى هذا الحد؛ يؤكد العلماء أن الأمر وراثي، لكنني لا أستطيع أن أجد نموذجاً مشتركاً بين الرجال الذين أحببتهم». لكنها متأكدة من أمر واحد: الشغف لا ينقص مع التقدم بالعمر، ولذلك كتبت الحب من جديد (1996) وهي قصة رائدة عن المشاعر المتأججة لكاتبة مسرحية في الستين من عمرها، تجاه رجلين أصغر منها بكثير. في هذه القصة



«تري البطلة كيف يصبح العمر أمراً مهماً، بالرغم من أنها تشعر بالحب كما شعرت به في شبابها، وهذه كارثة بالنسبة إليها. فبالرغم من وجود الكثير من الأشخاص الذين يقعون في غرام من هم أكبر سنّاً منهم، إلا أن المجتمع لا يفهم ذلك». وتعترف قائلة: «مع وصولي إلى مرحلة الكهولة، استسلمت للشرب؛ شعرت بأنني مهجورة وغير مرغوبة، وشربت كل يوم نصف زجاجة إلى أن قلتُ لنفسي في أحد الأيام وأنا أحبو ساحة نفسي باتجاه المغسلة كي أتقيأ: دوريس، عليك أن تتوقفي... وتوقفت. لم أعانِ إلا أربعة أشهر من إدمان الشراب».

يشتدّ المطر فجأة خلف زجاج منزل ليسينغ الفوضوي والمريح في آن معاً، حيث لا تزال الأوراق والخردوات في مكانها، متكومة كما لو أن جنياً مضطرباً قد بعثرها. توقفت طيور الحديقة عن الزقزقة، وتهادت القطة البيضاء والسوداء على الدرج. تصيح ليسينغ: «لقد كبرنا يا يميم!». وهو اسم أطلقته عليها تيمناً بإحدى شخصيات الأوبرا الكوميدية ميكادو. تقول الكاتبة ضاحكة في رواق منزلها: «التقدم بالعمر أمر سيئ يا صديقي!». فتعدينا طاقتها التي تنكر فحوى جملتها.



خوسيه ساراماغو



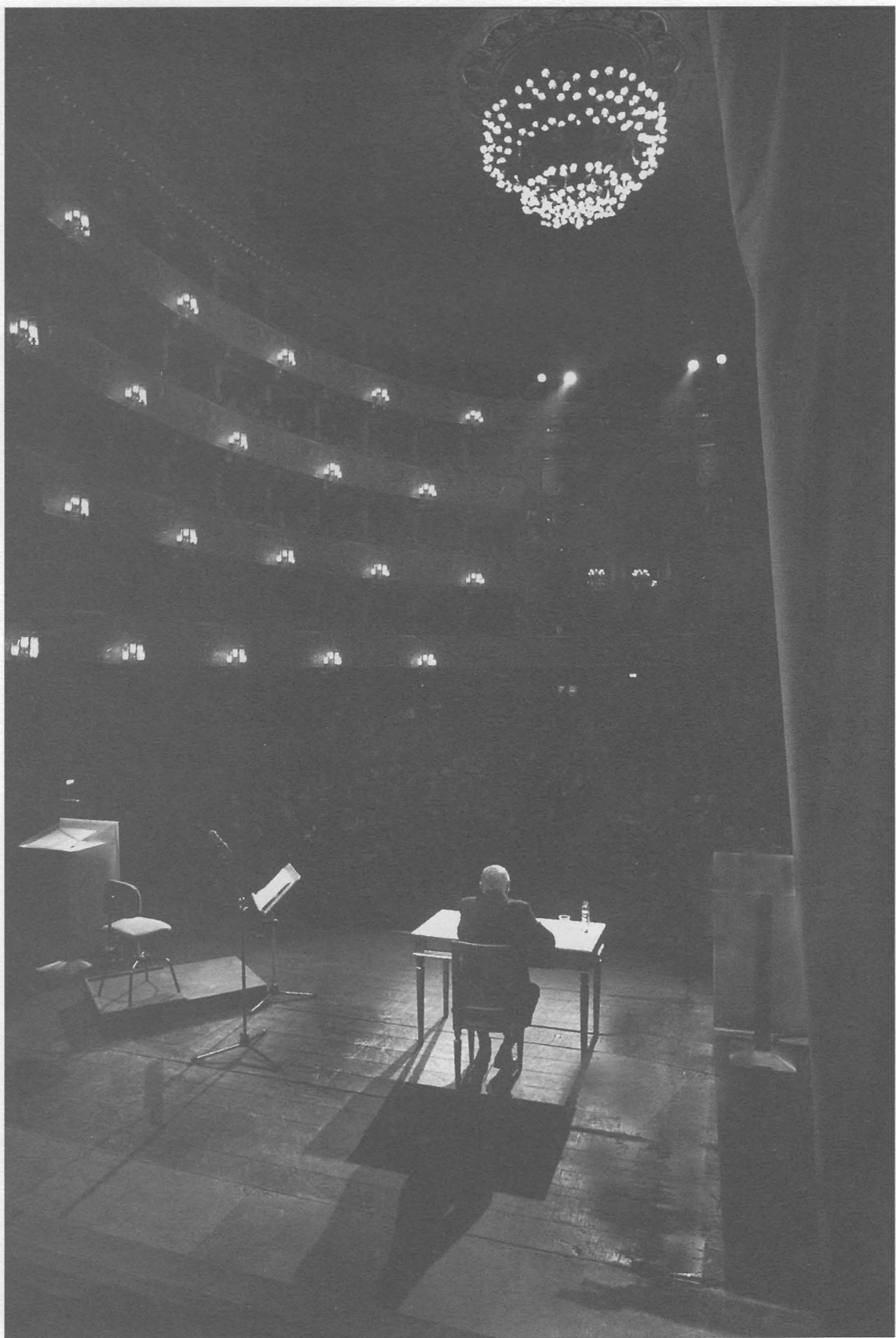
أنا ألتزم، لكنني لا أضع آمالي
فيه ذلك أبداً.

يقع منزل خوسيه ساراماغو الجديد في حي
محافظ وسط لشبونة، وهو منزل فسيح
وبسيط، كما أن اسمه: بليموندا، مثل تلك
الشخصية التي في وسعها أن ترى عبر الجلد
في روايته المذهلة ذكرى الدير.









تستقبلنا عند الباب، تحت المطر، زوجته بيلار ديل ريو، الصحفية من غرناطة والتي تقدّمتنا إليه: خوسيه، هذان هما السيدان اللذان سيلازمانك كظلك خلال الأيام الثلاثة القادمة.

يقول فيرد الحائز على جائزة نوبل للآداب في العام 1998، والذي قد استيقظ لتوه من النوم: «آه، تشرنفا. أتعرفان أنني اشتريت هذا المنزل من دون أن أراه حين كنت في برشلونة في اليوم العالمي للكتاب؟».

بينما تقدم لنا بيلار الشاي في المطبخ المتواضع والدافئ في آن معاً، تشرح لنا قائلة: «كنا واثقين ببعض أصدقائنا الذين كانوا قد رأوا المنزل إلى حدّ أننا نسينا أن نسأل عن السعر. وحين أخبرنا البائع أن مشتري المنزل هو ساراماغو اقشعرّ جسده، وقال لنا إنّ المنزل يدعى بليموندا. كان معجباً بخوسيه، حتى إنه دعاه إلى مركبه ذات مرة ليشاهد الدلافين». يوضح الكاتب قائلاً: «كان في ودنا أن نحصل من جديد على مكان خاص بنا في لشبونة، فالأوقات التي أمضيها في إسبانيا والبرتغال لا تنفك تتقارب، ومع أن مدينة لاثاروتة لا تزال الغالبة بقوة، إلا أنني شعرت بحاجة إلى إعادة توطيد علاقتي الحميمة مع البرتغال».

تخاصم ساراماغو مع السلطة في البرتغال في العام 1992، حين منعت الحكومة البرتغالية رواية الإنجيل وفقاً ليسوع - التي تنتقد بشدة الكنيسة الكاثوليكية - من الترشح لجائزة أدبية أوروبية ما. فانتقل في العام التالي إلى لاثاروتة حيث يعيش حتى الآن. في الثاني والعشرين من كانون الثاني التالي، كانت ستقام في البرتغال انتخابات رئاسية، وكان المؤلف قلقاً جداً من احتمال فوز آنبيال كافاكو سيلفا، المرشح اليميني الوحيد: «لم أنسَ ما فعلوه بي. كان كافاكو سيلفا أول وزير حكومة يمنعي، وباقتراض وصوله إلى سدة الحكم لن يعود لديّ أي دافع للحفاظ على علاقتي به، ولا حتى العلاقات الرسمية».

يسرف خوسيه وبيلار في إظهار مشاعرهما الجياشة، فيمسك أحدهما بيد الآخر، ولا يترددان في

تقبيل بعضهما بشغف وسط الشارع. كما أن الأدب يجمعهما (فهي مترجمة أعماله إلى الإسبانية)، وقد بدأت قصة حبهما في العام 1986: «اتصلت بي في لشبونة، وقدمت نفسها على أنها قارئة تريد أن تسرق مني ربع ساعة. فوافقت، واتفقنا على اللقاء عند الرابعة عصراً. كان عمرها ستة وثلاثين عاماً وأنا ثلاثة وستين. تحدثنا كثيراً، ومشينا في الأماكن المذكورة في رواياتي. ذهبت، لكنها تركتني متأثراً. بعد ذلك بقليل كتبتُ لها رسالة: لو أن ظروفك الحياتية تسمح لك، ففي ودّي أن نلتقي. كانت تلك طريقتي لمعرفة إن كانت متزوجة أم لا. وعندها بدأ كل شيء. مشينا أول مرة في المقبرة لنرى مكان قبر بيسوا، وبعدها ذهبنا إلى دير لوس خيرونيموس حيث عاشت، وفندق براغانسا وهو مسرح أحداث روايتي عام وفاة ريكاردو ريس. سنرى كل هذه الأماكن».

رنّ الجرس وأينا مدير دار النشر كامينو حيث ينشر ساراماغو كتبه بوفاء. وكان قد جاء ليصطحبه إلى تقديم طابع بريدي جديد عليه صورة ألفارو كونال المتوفى، وهو القائد التاريخي للحزب الشيوعي البرتغالي (PCP) الذي ينتمي إليه الكاتب. «أعتقد أنني وكونال الشيوعيان الوحيدان اللذان تظهر صورتاهما على الطوابع... مع أنني أشعر ببعض الغيرة لأن طابعه وصورته سيتشران الآن عبر البريد العادي لأن سعر طابعه بضع سنتيمات. لم أر يوماً رسالة تحمل طابعاً عليه صورة وجهي، بسبب السعر المرتفع الذي حدّده للطابع الذي يحمل صورة وجهي!».

استقللنا السيارة لنلحق بالتقديم، وتحت أضواء زينة الميلاد في الشوارع، كشف لنا ساراماغو لمن كان سيصوّت في دورة ثانية افتراضية: «سأختار ماريو سواريس لو أمكن». لعل الحزب الشيوعي البرتغالي هو الحزب الشيوعي الوحيد في أوروبا الذي لا يزال محتفظاً برموزه، وبالمنجل والمطرقة اللذين يميّزان ملصقاته. «يقدم نفسه باسمه، وهذا لا يسيء إليه. نحن من نحن: لسنا مضطرين إلى وضع مستحضرات تجميل مزيفة؛ ما زلنا نحن الشيوعيين نعتقد أن

مشاكل العالم يمكن حلها بتوزيع أكثر عدلاً للأرباح». ترشحت ابنته للكتلة اليسارية، فيقول بخضوع أبوي: «وهو يسار مستقل وفعال جداً، لكنه يرفض كل ما يتعلق بالحزب الشيوعي. نصيهم بالغثيان». نترجل من السيارة. ونصل إلى البريد حيث يتأمل الكاتب إصدار الطوابع بعد بعض العناقات الاضطرارية، ويحدق إلى وجه كونال على المغلفات. وفي الخلف يوقّع جيرنيمو دي سوسا، المرشح الشيوعي للرئاسة، للناس كنجوم الروك.

يخصص ساراماغو أيامه هذه للترويج لروايته الأخيرة انقطاعات الموت، والتي تروي ما قد يحدث لو أن الموت توقف فجأة في بلد ما وعاش الناس إلى الأبد.

في اليوم السابق للمواكب العديدة على شرف السيدة مريم العذراء - والتي ستغرق الشوارع - يقول الكاتب الذي يقرأ كتب الفيزياء الفلكية بكثرة: «لست متديناً، ولا أفهم كيف يمكن للبعض أن يكونوا متديتين. هذا أمر صعب جداً مع التطور العلمي الحالي. وسيستمر الوضع هكذا حتى اليوم الذي ينتهي فيه كل شيء: الأرض، والمجرة، والنظام الشمسي».

- ألا تفكر حقاً في الموت أبداً؟

- حين ولدتُ كان متوسط العمر لسكان ضيعتي ثلاثة وثلاثين عاماً. وفي السابعة عشرة من عمري أدركت للمرة الأولى أنه علينا جميعاً الرحيل. عشت ذعراً حقيقياً!

«أخذت أتجول في الشوارع وأنا أشعر بالفكرة تقع على رأسي كالمقصلة، فأتوقف وأصبح متعجباً: سحقاً، سحقاً، عليّ أن أموت! ولكن هذا الهوس زال مثلما جاء. والآن، وأنا في الرابعة والثمانين من عمري لا أفكر في الأمر؛ علينا التخفيف من الدراما. أفهم أنه أمر محزن بالنسبة إلى العائلة، ولكن ما الذي في وسعنا فعله؟ طالما أنني أتمتع بصحتي، فأنا أعيش كرجل في الخامسة والسبعين من عمره، وهو عمر رائع. أحياناً أعيش كأنني في الثانية والستين من عمري، وهو أيضاً عمر جيد.



القضية: يجب على الكتب ألا تقتل الغابة

إن الصراع ما قبل الأخير الذي يخوضه خوسيه ساراماغو هو ضد تصحّر كوكبنا. لذلك، قرر بالتعاون مع منظمة السلام الأخضر غير الربحية أن تطبع أعماله الأدبية بأكملها باستخدام ورق لا يحتاج إلى تدمير الغابات الرئيسة على كوكبنا. «إن عبارة الورق صديق الغابة لا تعني أن الورق لم يعد تصنيعه أو أنه لم يحتاج إلى قطع الأشجار فحسب، وإنما يعني أن كل مراحل العملية قد تمت باستخدام تكنولوجيا لا تضر بالنظام البيئي، ولا تتسبب بدمار أخشاب هذه الغابات. أخبرت كل ناشري في العالم برغبتي بأن يعملوا بهذه الطريقة، بالرغم من أنني لا أستطيع أن ألزم بذلك ناشري في البلدان الفقيرة. الورق يصبح أغلى قليلاً، لكن ذلك لا يشكل عائقاً. على صناعة الورق كلها أن تتخذ هذا النهج، فمن المحزن أننا أمسينا نقتل الغابات لنتج الثقافة. لقد فقدنا حتى الآن أكثر من ثمانين بالمائة من الغابات الرئيسة. وإذا بقينا على حالنا، فسنفقد الغابات الباقية خلال عقود». استجاب لهذه المبادرة كتاب آخرون مثل دجيه كيه رولينغ، وغونثر غراس، وإيزابيل ليندي، وخافيير ثيركاس، ومانويل ريفاس، وخافيير مورو، وخوسيه لويس سامبيدرو، وروسا ريغاس.

- وما رأيك بحياتك؟

- معجزة... لو أن المعجزات حقيقة. تعلمت بنفسني لأن عائلتي كانت فقيرة. عملتُ مصلحاً للأقفال مدة سنتين، وأنا مرتدٌ لباس العمل الأزرق التقليدي. ومارست مهناً أخرى كثيرة. تعلمتُ الأدب في المكتبات العامة لأننا لم نكن نملك أي كتاب في بيتنا، وكانت أمي أمية. لم تكن هناك مؤشرات تدل على أنني سأسلك الطريق الذي سلكته. كتبت رواية واحدة وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وبعدها لم أكتب شيئاً إلى أن خسرتُ عملي كصحفي في جريدة الأخبار بعد أن تجاوزتُ الخمسين، فقررتُ أن الوقت قد حان لأنفرغ للكتابة. حين يسألونني عن سبب تمضيي كل تلك السنوات من دون كتابة، أجيبهم بصراحة أنه ليس لديّ ما أقوله.

في الليل يحين وقت الأوبرا، وهو شغفه الكبير الآخر. في برنامج مسرح سان كارلوس أوبرا عطيل لفيردي، من إخراج أنطونيو بيرولي، «بالرغم من أن الأوبرا المفضلة لدي هي دون جيوفاني لموزار». عند باب المسرح، تعرض عليه متسولة جريدة للأعمال الخيرية فيعطيه ساراماغو بشكل مفاجئ ورقة من فئة خمسة يورو قبل أن يدخل البهو مسرعاً. تلحق المرأة المذهولة بخطاه؛ ولعلها تريد التأكد من هوية هذا الرجل. وبعد أن تتجاوز المدخل، وتكتشف جمال الصالة المذهبة والسقف المزخرف وأثاث السيدات الأنيقة ترسم رمز النصر الديني بذهول وترك نفسها لحظات لتأمل باستمتاع. تبدو الخرق التي ترتديها مهلهلة بالنسبة إلى سائر الموجودين لكنها تبقى فترة من الزمن وهي تتأمل كل شيء بدهشة.

كانت بيلار هي منظمة نزهتنا. ولقد وضعت خطة لعطلة نهاية الأسبوع، حيث سرنا في أنحاء المدينة التي ذكرت في روايات زوجها إلى أن شعرنا بالإرهاك. وبينما كان المطر ينهمر خفيفاً، بدأت نزهتنا في ساحة روسيو، وهي أوضح مثال للمدينة القديمة. في العام 1969 نشر ساراماغو في إحدى جرائد العاصمة قصة يتحدث فيها عن الأشخاص الذين يجدون رسالة في زجاجة في

النافورة الموجودة وسط هذه الساحة. تقرأ بيلار ديل ريو الآن نص القصة بصوت عال، فيما هو ينظر إليها بابتسامة عريضة وكأنه قد عاد شاباً. في القصة، ورد في الرسالة: «النجدة!». في إشارة إلى الحكم الديكتاتوري السائد في تلك المرحلة.

كان اللحاق بساراماغو في نزهة أمراً مرهقاً. فهو طويل، ورشيق، وحيوي، ويشبه دون كيشوت؛ إذ ينتقل من مكان إلى آخر، ويصعد ويهبط درجات سان كريستين المثئين، وهو يشرح تاريخ كل زاوية في لشبونة التي تشرق بمساحاتها الخضراء الجديدة، والتي تحاول منذ المعرض الدولي في العام 1998 أن تتخلص من لقب المدينة المنحوسة بسبب الكوارث التي ألمت بها على مدى التاريخ. «لم يقتصر الأمر على الزلازل والحرائق، بل أيضاً التسونامي الأول في تاريخ الغرب في العام 1775». ولكن، في كل ليلة، تكذب أصوات مغني الفادو الذين ينتشرون في المطاعم الشعبية للمدينة القديمة كل الجهود المتفائلة بجعل لشبونة مدينة معاصرة.

نمر في الحافلة بالساحة التي أحرقت فيها محاكم التفتيش كلا من المهرطقين واليهود والمثليين، ونذكر مشهداً قاسياً من كتاب مذكرات دير، كما نمر بحفرة الزوج «حيث كانت جثث الأفارقة تُرمى في القرنين السابع عشر والثامن عشر». تضمّنت النزهة وقفة أمام فندق بارغانسا القديم حيث نزل بطل رواية عام وفاة ريكاردو ريس في الغرفة 201. كما عمل ريس في عيادته الطبية في ساحة لويس كامويس، حيث يتصب حالياً تمثال الهوى - «ضعها بين قوسين» - البرتغالية؛ وأشدّد على كلمة تمثال. «حيث تتجلى قلة احترام طيور الحمام للشخصيات الهامة».

يستخرج الكاتب ألف قصة من زوايا كل شارع وبلاطاته وروائحه. لكن أكثرها شيوعاً هي تلك التي تتحدث عن الشاعر فيرناندو بيسوا («عاش في كل أنحاء المدينة تقريباً، في شقق مستأجرة»). وهو المسبب الرئيس لتحوّل عامل الأقفال السابق هذا إلى كاتب. يقصّ علينا قائلاً: «في شبابي قرأت قصيدة له تركت أثرها في حياتي:

لتصبح كبيراً، كن بأكملك:
لا تبالح أو تقلل من أي شيء تملكه
كن بأكملك في كل شيء. ضع كل ما أنت عليه
في أصغر ما تفعله،
لذلك يلمع القمر بكامله
في كل بحيرة، لأنه يعيش بسمو.
بعد قراءة هذه الأبيات قلت: نعم، سأعيش
هكذا».

تعرف ساراماغو إلى الطبيب الذي اعتنى
بييسوا في أواخر حياته، «وأخبرني أنه حين كانت
العائلة ترافقه إلى غرفته كان يقول له ادخل، ادخل يا
دكتور، ها هو ذا عديم الفائدة. لا تحب العائلة ذكر
ذلك. لكن هذا ما حدث؛ بما أنه لم يكن رأسمالياً أو
صاحب بنك فهو عديم الفائدة». وبعدها، يهز رأسه
متأسفاً أمام قبر الشاعر في دير لوس خيرونيموس،
ويعيد ساراماغو قراءة هذه القصيدة، ويطلق على
حجر القبر كما لو أن أحداً سيحييه، ثم يتحدث برقة
إلى بقايا الشاعر ويقول لنا ببعض الجدية: «ها هو ذا
بييسوا أيها السيدان!».

الالتزام والأدب

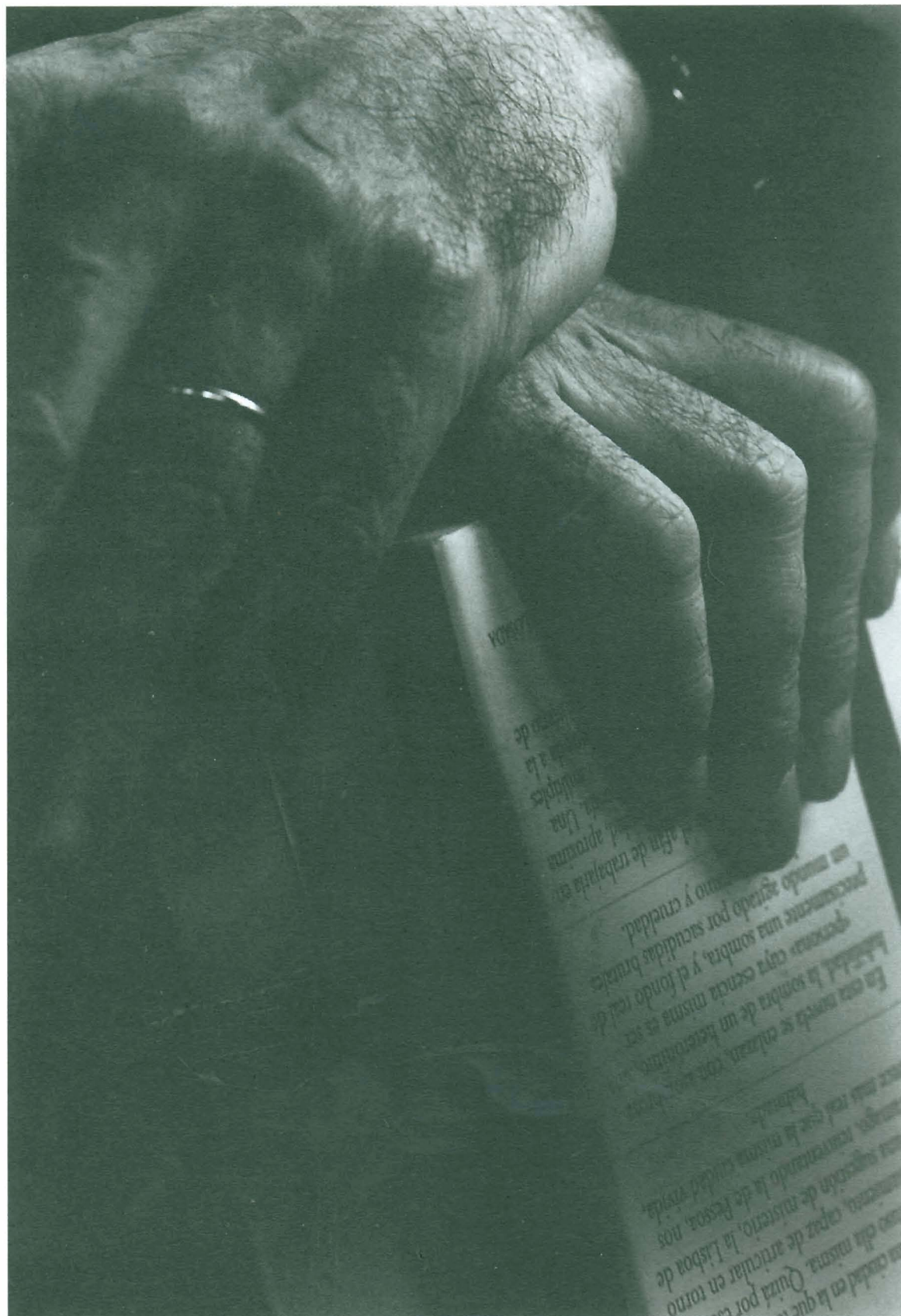
بعد زيارة قلعة سان خورخي، بالقرب من
منزل مصحح كتاب تاريخ حصار لشبونة نأكل في
مطعم مارتينو دا آرkada وهو الأقدم في العاصمة،
حيث يحتفظون بالطاولة التي اعتاد أن يجلس عليها
عديم الفائدة ذاك المدعو بييسوا، كما لو كانت كنزاً.
في انتظار الطعام، يعبر ساراماغو عن آرائه المبدعة
حول البلد، فيوضح: «لست متأكداً من استمرار وجود
البرتغال بعد خمسين عاماً. نعيش عملية انحدار بطيئة،
فيها بعض مواضع الحماسة كالجمهورية أو ثورة
المنثور. هذا يؤكد عدم قدرتنا على الاحتفاظ بنبض
عالٍ للحياة، وهو ما قد لا يسمح لنا بالبقاء. قد
يبقى البرتغاليون بصفاتهم جماعة من الناس الناطقين
بالبرتغالية، لكن الحكومة البرتغالية قد تندثر. قبل
فترة اختفى بلد يدعى يوغوسلافيا. نحن باقون هنا
طبعاً، لكن التغيرات الجيوستراتيجية والاقتصادية قد

تقودنا إلى درجة غير مسبقة من البدائية. حتى لو لم
يحدث ذلك غداً، فإنه مرتبط بالدور القوي للحكومة
الإسبانية، فإسبانيا بلد حي يتطور. من المنطقي أن
تنجذب البرتغال إليه، وأن تنضم إلى حكومة أيبيرية
جديدة، ولو أن ذلك سيتم بدرجة عالية من الحكم
الذاتي. هذا مجرد تخمين، لأنني شخصياً لست مع
ذلك ولا ضده، لكنني سأقول لك إنه من الممكن
أيضاً أن تمتلك البرتغال، بصفتها حكومة فيدرالية إلى
جانب إسبانيا، أهمية لا تتمتع بها حالياً».

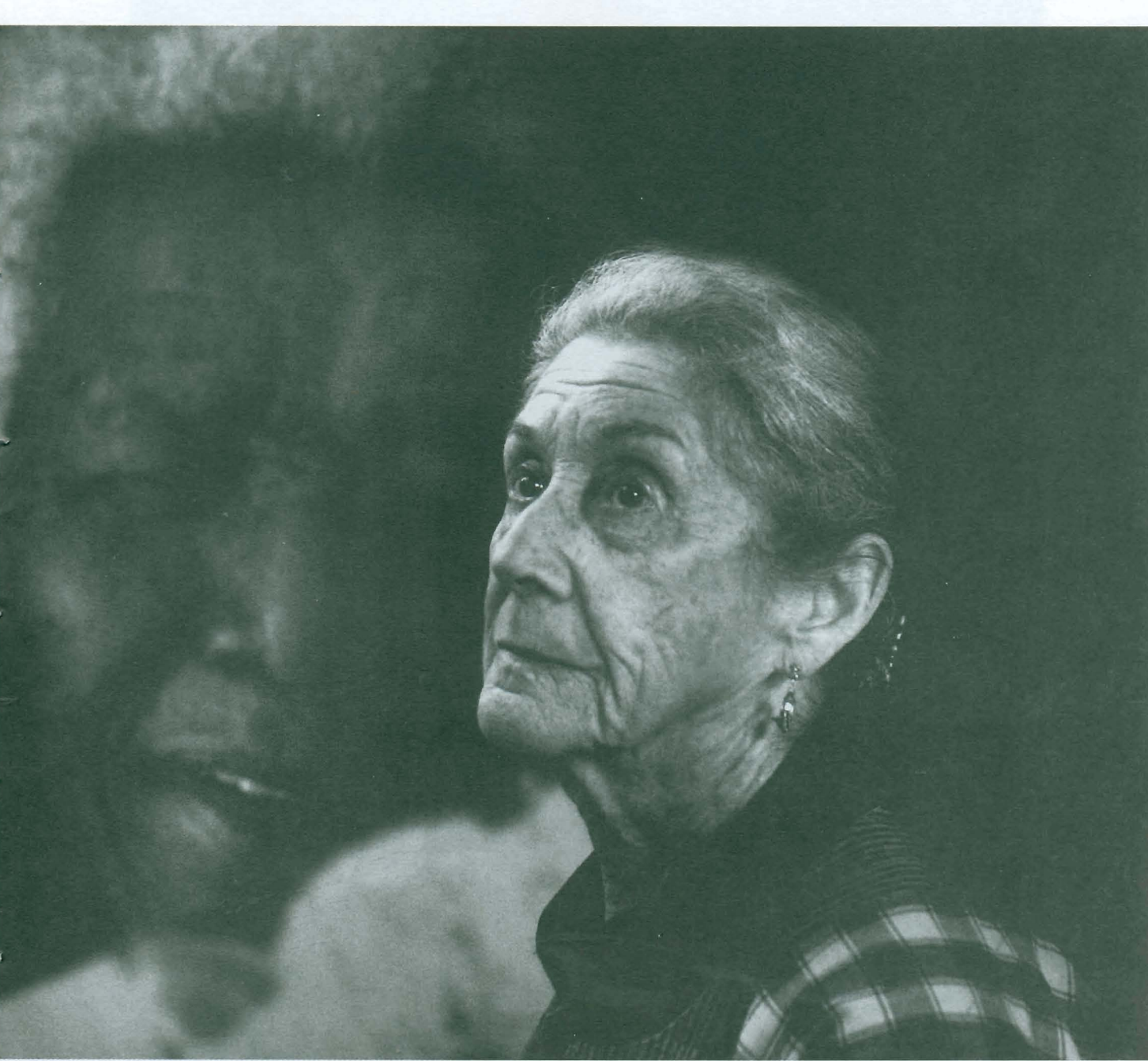
مع حلول الظلام نكتشف أن بيلار ديل ريو
تنزعج كثيراً حين يصفون ساراماغو على نحو يجافي
الحقيقة، بقولهم إنه ملتزم محترف أو أنه يحب المثالية
أو أنه محاضر تقدمي. يعتقد الكاتب في الحقيقة أن
«الفن لا يستطيع تغيير العالم. لو كان الأمر كذلك
لأسينا سعداء جداً لكتابة أعمال مثل دون كيشوت
والإخوة كارامازوف وهاملت... يجب على الكاتب
ألا يتخذ موقف الرسل. أنا ملتزم، لكنني لا أضع
آمالي في ذلك».

تؤكد بيلار قائلة: «منزلنا ملجأ أخير يقصده الناس
الذين يعانون من مشاكل كثيرة، وقد حاولوا كل شيء
من دون فائدة: أفارقة بلا مستشفيات، وأطفال معوقون،
ومهاجرون بلا أوراق رسمية... هناك كاتالاني غبي
- اكتبه هكذا - ألف كتاباً تدخل فيه بحياة زوجي
ومانويل باثكيث مونتالبان، من دون أن يعرف أن في
العالم الكثير من الألم والكثير من الناس الذين يعانون
الكثير من دون مكان يلجأون إليه».

يقلل ساراماغو من أهمية الانتقادات ويقول: «إنَّ
البعض يقولون لي إنني أبالغ في وضع الإيديولوجيات
في كتبي. بالنسبة إليهم كتاباتي هي إيديولوجيا،
وكتاباتهم ليست كذلك. لا يعتبرون الكاثوليكية
إيديولوجية ولا القناعات الثابتة. وحدهما الشيوعية
والماركسية إيديولوجيتان بالنسبة إليهم. أشعر أن
الناس يحبونني، لكن قسماً منهم يزعمه أن أبيع كل
هذه الكتب. لدي ما أقوله لهم: في الطبيعة أشجار لا
تنمو كثيراً لأنها تنتمي إلى نوع مختلف، لكن أشجار
السيكويا ليست أفضل من الزيتون. والعكس صحيح».



نادين غوردنير



الكرامة التي هزمت التمييز العنصري.

إنها صغيرة الحجم وقوية. ناضلت نادين غورديمر الجنوب إفريقية والحائزة على جائزة نوبل للآداب في العام 1991 ضد التمييز العنصري في بلادها، وانتصرت. تتذكر الكاتبة الذعر الذي شعرت به في تلك السنوات التي كانت تدافع فيها عن إنجازات الديمقراطية حديثة السن. أما الآن، فهي غارقة في كفاحها ضد الإيدز، وملتزمة بالكتابة كل صباح حول الواقع الذي يحيط بها.



يتحدث شاب وشابة ويضحكان، ثم يقول الشاب فجأة: «أعتقد أن هذه العلاقة يجب أن تنتقل إلى المرحلة التالية». لم تستطع الشابة أن تخفي انفعالها، وصارت تنتظر أن يلفظ تلك الكلمات الرائعة التي قالها متمماً: «هل ترغبين بالخضوع لفحص الإيدز؟».

تغمر الفرحة الشابة فتصيح: «أجل، أريد ذلك!».

أهلاً بكم في جنوب إفريقيا. الإعلان الذي نراه على شاشة تلفاز الفندق جزء من الحملة الحكومية الأخيرة للحد من انتشار فيروس الإيدز. فحسب إحصائيات الأمم المتحدة، يحمل 20 بالمائة من سكان هذا البلد الفيروس. ويشكل هذا المرض، إضافة إلى الفقر (الذي يؤثر في 53 بالمائة من السود مقابل 4 بالمائة من البيض) وارتفاع معدلات الجرائم (تتعرض امرأة من بين كل أربع نساء للاغتصاب قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها) المشكلة الأساسية للأمة التي ألغت في العام 1991 نظام التمييز العنصري القائم على العرقية وحرمان الزوج من حقوق الإنسان.

في جوهانسبورغ، العاصمة الاقتصادية، وُضع فاصل حدودي واضح بين الأحياء التي يمكن زيارتها والأحياء التي يحظر المرور بها. يعد حي باركتاون ويست حيث تقطن نادين غورديمر منذ نحو خمسين عاماً منطقة آمنة - خلال النهار على الأقل - إلا أنه لا يخطر ببال أحد التنزه في طرقاته التي تلتف بين الحدائق والبيوت القديمة. لا نجد في طريقنا أي سيارة أو مارة، والمؤشر الوحيد إلى الحياة هو العشب وموظفان في شركة الكهرباء يحملان سلماً بتكاسل. بعد دقائق من البحث هباء عن الجرس، تكتشف المؤلفة بحدسها وجودنا، فيفتح أحد الخدم باب شقتها المؤلفة من طابقين، وهي من تصميم المهندس الإنكليزي هيربرت بيكر، مصمم بناء البرلمان الهندي في نيودلهي والبرلمان الجنوب إفريقي في بريتوريا. تصرخ امرأة صغيرة الحجم من النافذة: «ماذا تفعلان؟ استقلاً السيارة! لقد نُهَبَ ثلاثة أشخاص الأسبوع الماضي!».

المرأة هي نادين غورديمر، بالطبع. إنها مليئة



بالطاقة ووثقة من نفسها، حتى إنها متأمرة قليلاً، وقد وافقت على تخصيص يومين من حياتها المليئة بالأشغال لنا، من دون أن يؤثر ذلك في إيقاع عملها المنظم. «أكتب صباح كل يوم، مدة أربع ساعات على الأقل، لا أرد خلالها على الهاتف ولا أفتح الباب... أنقطع تماماً عن العالم الخارجي». في الحديقة تعدو تيللا، الكلبة الضخمة ذات العشر سنوات، والتي تببح عند رؤية الجبال في الأفق في الأيام الصافية.

في اليوم التالي، باشرنا مع غوردنير رحلة قصيرة إلى قلب الذعر العنصري. أخبرتنا في أثناء وجودنا في السيارة أننا «ذهبون إلى المحكمة الدستورية التي تأسست في العام 2004. كانت حصناً عسكرياً قديماً لجمهورية البويريين تحوّل إلى سجن، فأمسى مركزاً للزنايات الفردانية والتعذيب والقتل خلال مرحلة التمييز العنصري. أمضى نيلسون مانديلا هناك قسماً من السنوات السبع والعشرين التي أمضاها في السجون. لو أنه موجود في بلاد أخرى لكان قد هدم، لكننا قررنا تحويله إلى إحدى مؤسساتنا الأكثر شرعية، وهي المسؤولة عن الدفاع عن دستورنا».

في إفريقيا كان مسنّو القبيلة ينفذون العدالة حول شجرة، لذلك فشعار المحكمة هو شجرة، والمبنى - وخاصة حيث تقام المحاكم - مغطى بالخشب، «ليفهم الناس أن العدالة تأخذ هنا مجراها، نجمع بين التقاليد القديمة والقوانين الحالية». وبالرغم من تشييد بناء حديث، لا يزال قسم كبير من السجن على حاله. يشبه شكله معسكرات الاعتقال النازية، بمظلات الحراس، وجدران الإعدام، وزنايات التعذيب، وملصقات عليها قصص وحشية لا يمكن نشرها هنا، غير أن غوردنير ترويها بالتفصيل بابتهالات مؤثرة:

«كانوا يقتلونهم أمام هذا الحادث، أترى ان الثقوب الناتجة عن الرصاص؟ وعلى مسافة قريبة من هنا كانوا يرشونهم بخرطوم الماء وهم عراة، وهنا يقتلونهم أطفالهم... معاملتهم للأحصنة كانت أفضل من ذلك». مئات الآلاف من الأشخاص عاشوا خلف هذه الجدران والأسوار الشائكة؛ إن ما حصل لهم هو أبشع ما قد يفعله الإنسان! وإلى جانب هذا



القضية: قصص ضد الإيدز

نادين غوردنير (سفيرة النوايا الحسنة لمشروعات التطوير التابعة للأمم المتحدة) ملتزمة جداً بمكافحة انتشار الإيدز. «لا يزال الناس في أوروبا والولايات المتحدة يعتقدون أن المشكلة بعيدة عنهم، وأنها مرتبطة بالبلدان النامية. ليس هذا صحيحاً، فهي البلاء الجديد في هذه الألفية، وعلينا مواجهته لأنه ما من أحد في مامن». فكرت غوردنير ذات يوم حين رأت كيف يقوم الموسيقيون بحفلات كبيرة لجمع التبرعات: «نحن الكتاب وقفنا مكتوفي الأيدي، لذلك خطر لي أن أجمع مقتطفات أدبية مؤلفة من عشرين قصة لكبار الكتاب، فاتصلت بأصدقائي غابرييل غارثيا ماركيث، وكلاوديو ماغريس، وآرثر ميلر، وخوسيه ساراماغو، وكينزابورو أوي، وغونثر غراس، وودي آلان، وغيرهم، وطلبت منهم أن يتبرعوا لي بقصة للكتاب. أجاب العشرون بالموافقة، وجاءت قصصهم رائعة ومختلفة كلياً عن بعضها. أنا ذات الرقم 21، أشارك بقصة عن فتاة صغيرة تدخل إلى حديقة كروغر للهرب من حرب موزمبيق». الكتاب المسمى Telling Tales أو نحكي الحكايات نُشر في أحد عشر بلداً حتى الآن، وقد خصصت دور النشر أرباحه لمكافحة الإيدز.



نجد القسم الآخر مغايراً: إذ إن هناك معرضاً فنياً ومكتبة وألواناً زاهية، بل إن صالات انتظار تبدو وكأنها آتية من حفلات البوب في السبعينيات... تتساءل غوردنير في لحظة تأثر مباغتة: «لماذا عسانا نبني محاكم مملة كتلك التي في أوروبا؟». قبل أن تدخل جناحاً مخصصاً للنساء حيث اعتادت أن تزور واحدة من أعز صديقاتها. وفي الغاليري الذي يشغله معرض عن أسر مانديلا، يعرض العديد من الفنانين المحليين

لوحات لنساء حوامل، في أحشائهن أطفال مصابون بالإيدز. وهذا المرض بالذات هو الموضوع الذي جعل غوردنير تلتقي الرئيس الجنوب إفريقي تابو مبيكي بشحمه ولحمه، وهو عضو في حزب الملتقى الوطني الإفريقي (CNA) الذي أسسه صديقه نيلسون مانديلا، والحاكم حالياً في جنوب إفريقيا بعد فوزه بسبعين بالمئة من الأصوات.

تقول نادين متأسفة: «يزداد وضع الإيدز سوءاً يوماً بعد يوم». من الصعب جداً تغيير العادات الجنسية للناس لنصل إلى العادات الآمنة. ليست المسألة مسألة واق ذكرى فحسب، بل المشكلة هي أنه بين جيل الشباب تنتشر فكرة معينة. وهي أنه يجب على الجميع ممارسة الجنس حين يذهبون إلى حفلة ما. هناك اختلاط جنسي رهيب، وهي الثقافة المنتشرة هنا، كما أن المصابين بالفيروس يخجلهم الاعتراف

بذلك. وخاصة في أوساط السود. لقد تأخرت الحكومة كثيراً في تأمين الدواء اللازم لنا». في جناح النساء تذكر غوردنير صديقتها المسجونة: «كانت هونغونتي لكنها أصبحت شيوعية ونقابية. كانت بشرتها بيضاء، وتنحدر من عائلة جيدة، وصديقتها أسود. عاشا معاً مدعياً بالضرورة أنه خادمها. حين سجنوها لم يتمكن من أن نحمل إليها إلا البطانيات، ولم يتمكن من أخذ الطعام أبداً. ادعت أنني أختها، لأن الزيارات العائلية كانت وحدها المتاحة. المسكينة... تركت حياتها البرجوازية للمرة الأولى لتدخل السجن...».

«لن أنسى أبداً هذا الطريق، فهو ذاته الذي قطعته لزيارتها. هذا الباب، وهذا الممر...»، وتعرف قائلة: «بدأت أفعل». نصل إلى زنانات الحبس الإفرادي حيث «اعتاد الحراس على اغتصابهن وضربهن». وقد رسمت كيم مانريسا وجه صديقتها إلى جانب زناناتها، بالرغم من أن ذلك ممنوع. وعلى الجدران توجد صور بالحجم الكبير لسجناء قدامى يروون قصصهم ويتحدثون عن العذاب الذي عانوه، كما يوجد جهاز يمكنك أن تسمع من خلاله الأغاني التي غناها السجناء ليرفعوا من معنوياتهم. الأمر واضح بالنسبة إلى غوردنير: «الرئيس السابق دي كليرك يصطاد السمك بسرور في مزرعته الجميلة. لا يتمتع الشعب الجنوب إفريقي بروح الانتقام. أين



يمكن لرجل حظي بحكومة كهذه أن يبقى في بلده؟ يعيش في جنوب إفريقيا كأبي مواطن آخر، من دون أن يزعجه أحد. هذا دليل على التسامح اللامعقول للسود في بلدي، وهو مثال يحتذى به».

غوردنر ابنة ساعاتي يهودي ليتواني الأصل وامرأة إنكليزية. تمثل غوردنر كغيرها من الأشخاص القليلين الالتزام بمكافحة العنصرية. تعكس أعمالها الآثار النفسية على الأشخاص في مجتمع مقسم على أساس العنصرية. في اليوم السابق لزيارة السجن القديم، سألتها في بهو منزلها الخشبي الواسع: «متى أدركت للمرة الأولى أنك تعيشين في عالم ظالم؟». فأجابت: «كان ذلك في سبرينغز، المدينة الصغيرة التي ولدت فيها في العام 1923. فمع ظهور التمييز العنصري في العام 1944، حصل تقسيم كامل. أسر الزوج في منطقة محدودة بشدة. قصدت مدرسة راهبات تقتصر على الفتيات البيضاء، وكنت أذهب إلى السينما المخصصة للبيض حصراً في أمسية أيام السبت، وإلى المكتبة المحلية التي لم يُسمح للسود بدخولها. لو كنت سوداء لما أصبحت كاتبة، لأن الطريقة الوحيدة للتحضير هي القراءة. لا يمكن لأحد أن يعلمك الكتابة». وهكذا مضت غوردنر تسير وهي تقول: «كنت أذهب كل يوم من البيت وحتى المدرسة، مارة أمام منجم ذهب يوظف مالكة عدداً كبيراً من العمال السود، الذين كانوا يُكدسون في حجرة صغيرة، ويُسجنون مسجونين المشاكل. وحين أكون في طريق العودة إلى المنزل، كنت أراهم يخرجون من العمل ويقصدون دكاناً، إلا أن حاجزاً يمنعهم من المرور، ولذلك، يشيرون من الخارج إلى ما يريدون شراءه: فونوغراف، حقيبة... فيسلمهم البائع ما يريدونه إذا دفعوا له ذهباً. كنت فتاة في الحادية عشرة من عمري، وبدا الأمر لي غريباً، لأنني حين كنت أذهب مع أمي لشراء شيء ما، كالحذاء مثلاً، كان في وسعنا تجربته، بل حتى أخذه معنا إلى المنزل لنعرف إن كان ملائماً لي أم لا. وهكذا قلت لنفسني: ما هذا؟ لماذا يمكنني أنا فعل ذلك، فيما لا يستطيعون هم القيام بذلك؟ وفي

عمر الخامسة عشرة كتبت قصتي الأولى حول تلك التجربة المبكرة. مثلت تلك بداية إدراكي».

بعد الحرب العالمية الثانية، درست غوردنر في الجامعة لمدة عام. «في حرم الجامعة كان كل شيء مفصلاً. قصد بعض السود كليات السود، ولم يتمكنوا يوماً من الوصول إلى مستوى الطلاب البيض نفسه. أخذت أبتعد شيئاً فشيئاً عن هذا المخطط لأنضم إلى سياسة معاداة التمييز العنصري». تُظهر كتبها بشكل دقيق العلاقة بين الحياة الخاصة والسياق السياسي، «وخاصة في الأوضاع المبالغ فيها» كجنوب إفريقيا. في هذه الحالات ليس هناك أي مظهر من مظاهر الحياة - حتى الأكثر حميمية منها - لا تحتله القوانين التمييزية. انتهت الحركة النازية في أوروبا في العام 1945، إلا أن مذهبهم بات يطبق هنا يومياً: «كانت العلاقة الجنسية بين البيض والسود محظورة، إذ اعتبر ذلك جرمًا أخلاقياً. عاشر أحد أصدقائي الإنكليز فتاة سوداء، فأمضى فترة الميلاد في السجن».

عندها، أصبح نتاجها الأدبي مفيداً في التأثير في القراء المقيمين في مجتمعات أكثر تحراً. «بدأ الناس يفهمون ما يحدث هنا بشكل أفضل، فشاهدوا على شاشة التلفاز الاضطرابات والمضايقات التي استخدم فيها الغاز المسيل للدموع، لكنهم لم يعرفوا كيف شعر الناس في أيام خروجهم في المظاهرات، ولا عرفوا بوجود المشاكل العائلية، ولا بصراع الأجيال، ولا بانفصال الأزواج لأن أحدهم اعتقد أن الارتباط بالآخر سيجعل عائلته في خطر».

لطالما عاشت مؤلفة المحافظ في جوهانسبورغ، في أوقات التمييز العنصرية وفي الوقت الحالي، وهي إحدى المدن ذات معدلات الإجرام الأعلى في العالم. تقاطعني قائلة: «ولكن ما هذه المقارنة التي تقوم بها؟ لا يمكننا مقارنة خطر أن يعتدي عليك أحد أو يختطفك بنظام تمنعك فيه الحكومة والقوانين عن كل شيء لأنك أسود. نحن اليوم في مأمن، فليست الحكومة مجرماً يهاجم مواطنيه». بالرغم من أن الحائز على جائزة نوبل الجنوب إفريقي الآخر كويتزي قد هجر بلده (حيث إنه يقطن في أستراليا حالياً)، كما

المخدرات ذاتها. «لديّ الكثير من الأصدقاء الشباب، في العقد الثالث والعقد الرابع من أعمارهم، يأتون لزيارتي. إنهم ممثلون، ومصممون... أعشق تعليقاتهم لأنهم، مثلي، لم يفقدوا شغف الفن بعد. الأمر مثير للاهتمام، ففي شبابي كنت أنجذب إلى الأشخاص الأكبر سناً مني بسبب اهتماماتهم الأوسع. والآن، كما ترى».



في الكثير من رواياتها، تظهر شخصيات من أعراق مختلفة يدأون قصة حب ما وتواجههم بسبب ذلك مشاكل كبيرة فيما هم ينمون داخلياً. في رواية اللقاء (حيث تقع شابة بيضاء في حب الميكانيكي) تتناول موضوع الهجرة غير الشرعية: «هناك ملايين الأشخاص بيننا يعملون ويأكلون ويعيشون ويحبون، لكنهم غير شرعيين. هذه أزمة أعمق من مجرد جانب اقتصادي، فهم ناس يخشون أن تطلب منهم أوراقهم التي يحاولون إخفاءها قدر الإمكان». تتناول رواية أمسك الحياة المخاطر التي تهدد البيئة، وهي مستوحاة من محطة كوبورغ للطاقة النووية، القريبة جداً من مدينة كابو، والتي افتتحت قبل سنوات: «مهما تم توظيف هذه الطاقة بحذر، فإنها خطرة دوماً». في الكتاب، يدافع بول عالم البيئة الأبيض للحفاظ على السبخات «التي يريد مدير زوجته أن يشيد مكانها كازينو محاطاً ببحيرات صناعية، ومناطق للهنود». عند خروجنا من المحكمة الدستورية، هطل المطر. نزلنا الدرج تحت مظلة واحدة، ملتصقين بهذه المرأة التي لا يكاد طولها يتجاوز المتر والنصف، وكنا نفكر في ما قاله لها الأسقف ديزموند توتو الحائز على نوبل للسلام: «حضرتك صغيرة إلى حدّ يمكنني معه أن أخبئك في جيب بنطالي الخلفي، لكنك عملاقة في المظاهر الأخرى كافة».

فعلت قبله دوريس ليسينغ وغيرها من المثقفين، فإن غوردنر تصوت واثقة لصالح عملية التغيير: «نتمتع بالديموقراطية منذ أكثر من عشر سنوات، ولا يمكن للتغيرات أن تحصل بين ليلة وضحاها».

«البيت الذي نعيش فيه كبير وهادئ. عشت هنا مع أبنائي وزوجي. انتشر أبنائي في أنحاء العالم، وتوفي زوجي منذ أربع سنوات». بعد زواجها الأول، عقدت قرانها في العام 1955 على تاجر الأعمال الفنية رينهولد كاسيريه، الهارب من ألمانيا النازية. باشرت الكتابة، التي أصبحت أمماً مشروعاً أدبياً يركز على ذكريات زوجها «الذي عمل لصالح المخابرات السرية البريطانية، وزار باريس ولندن ومصر، وتقرّب من المثقفين...».

الرواية والعالم

نتج عن العولمة والنمو الاقتصادي في جنوب إفريقيا تحول في روايات غوردنر. لطالما قالت إن كتاباتها الثرية تركّز على الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي، ومن ذلك تولد «الشخصيات والحبكة والجو العام والمشاعر». وفيما تكشف لنا كتبها الأولى عن أجواء قسرية وعن حقائق بعيدة وغريبة في الوقت ذاته، فإن ملاحظتها اليومية الحالية تتعلق بالمشاكل والمشاهد ذاتها التي نجدها في أوروبا: جيل الشباب ذاته، المهاجرون غير الشرعيين ذاتهم، الموسيقى ذاتها، تلوث البيئة ذاته، بل حتى

غاو كسينغجيان



«أنا هارب، ولست بطلاً».

بيت غاو كسينغجيان الباريسي هو أكثر ما يشبه مختبراً
شخصياً للإبداع من بين ما رآه هذان الصحفيان، فما من حائز
آخر على جائزة نوبل من بين الذين تستعرضهم هذه السلسلة من
المقابلات قد تطرق إلى أمور كهذا الصيني المستقر في فرنسا
منذ الثمانينيات. المسرح، والأوبرا، والسينما، والرسم، والرقص،
والشعر، والرواية... ما من نوع من أنواع الإبداع يفوت غاو الذي
تبعده بساطته، بالرغم من ذلك، عن هيئة الفنان النهضوي الذي
يكشف عنه تنوع أعماله.



أمطرت، وإذا كان الطقس جيداً أذهب إلى حديقة توليريا. خسرت على الأقل ثلاث ساعات عمل في النهار، وها أنا الآن أنام عشر ساعات. لكنني لا أذهب في إجازة ولا أتوقف في عطلة نهاية الأسبوع. لقد أضعت شبابي في الصين، والآن عليّ أن أعمل بجد، فلا يزال لدي الكثير لأقوله».

نتقل إلى صالة المونتاج الرقمي، حيث يعرض علينا بلهفة بعض المقاطع من لا سيلويت سينو لومبر (الصورة أو الظل)، وهو فيلمه الأول كمخرج. على الشاشة نرى في الخلف امرأة (زوجته) ذات شعر طويل، حاسر الرأس، ولوحات ضخمة، ثم نسمع إلقاء شعر، ونرى رجلاً مشوقاً يتأرجح... يحاول المؤلف أن يشرح لنا: «ليس الفيلم سيرة ذاتية، وليس وثائقياً، أو خيالياً، لا نعرف بالضبط ما هو... إنه قصة خرافية من عصرنا. لطالما وضعت مشروعات سينمائية لم تبصر النور لأن المنتجين أرادوا تصوير فيلم مختلف

يقطن غاو كسينغجيان منذ العام 2002 في شقة ذات جدران بيضاء وزخارف معمارية، في شارع باريس رائع في حي ليز آليه، في منتصف الطريق بين متحف اللوفر والبومبيدو. مسكنه قليل الديكور، يبدو مثالياً لممارسة التأمل. في الصالون البسيط، يتحسر الكاتب أمام فنجان الشاي مع الليمون الذي تقدمه زوجته الشابة: «من قبل، كنت أعمل من دون توقف، منذ نهوضي وحتى وقت متأخر، من دون أن أنام تقريباً. لكنني عانيت مشاكل صحية جدية، فأجروا لي عمليتين، ووجدت نفسي مضطراً إلى التخلي عن العمل في الليل الذي كنت أعتبره وقتاً للإبداع. والآن، أستيقظ في وقت متأخر إلى حد ما، فأتناول الفطور ولا أبشر العمل حتى العاشرة صباحاً، إما هنا أو في الاستوديو خاصتي. عند منتصف النهار أتوقف لأتناول الغداء، وبعدها أعود لأعمل حتى السادسة مساءً. عندها أخرج لأتمشى حتى الباليه رويال إذا



دوما...».

تمشينا مدّة خمس عشرة دقيقة، من بيته إلى الاستوديو القريب، وتوقفنا للحظات أمام المنزل الذي مات فيه مولير. تبدو شوارع باريس العتيقة، المرصعة بمشاغل الثياب، والكافيتريات، والمقاهي، والمعارض، ومحالّ الحرف وكأنها تصبغ وجه غاو بالسعادة، فيقول: «طريق جميل، أليس كذلك؟». قبل أن يفتح لنا باب الاستوديو، وهو عبارة عن عليّة يقوم فيها بشكل رئيس برسم لوحات كبيرة الحجم، ويعرض أحياناً أفلاماً على شاشة ضخمة.

على جدران هذا المشغل القديم تتدلى بقع سوداء كبيرة؛ إنها لوحاته. في السنوات الأخيرة، لم يستعمل إلا الحبر الصيني. ليس الرسم بالنسبة إليه وسيلة للتسلية فحسب؛ والحق أنه قبل أن يفوز بجائزة نوبل في العام 2000، كان يكسب قوت يومه من بيع اللوحات المائية (وفي اليوم الذي منحوه فيه أكثر

عن الذي أقترحه. لكن هذا هو فعلاً فيلمي أنا». يجمع الفيلم - الذي استغرق من غاو ثلاث سنوات - بين صور عديدة من ابتكاراته: الأوبرا المذهلة لا نيج ان أوت (الثلج في آب) التي تتضمن أكثر من مئة شخص على المسرح، وتجمع بين الأكروبات والرقص وخفة اليد، بالإضافة إلى مسرحية ومعرض «عن مراحل الفنان الإبداعية... كما يظهر الموت بكثرة».

جو الزن

حول جو الزن الذي نشره في غرف مسكنه، يعترف وهو يرتدي المعطف ليخرج: «أجل، أمارس هنا التأمل، وهو أمر لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة إليّ في هذا العالم المتسارع جداً... أشرع بتأمل شيء ما، محاولاً الحصول على رؤية واضحة عن طبيعته. الأمر صعب، فلا يمكنك أن تصل إلى السكينة



المشاهدة. إذ يضع دائماً الموسيقى التي يختارها بدقة وفقاً للعمل الذي يفكر في القيام به، فيقول: «تجعلني أركز، فتبعث جواً من التوتر وإيقاعاً داخلياً. يهمني كثيراً أن تكون ملائمة، وأنا أهتم كثيراً بذلك: أختار المؤلف جيداً، والمقطوعة... العمل التحضيري عظيم الأهمية: أنتج الجو الذي يناسبني. إذا أردت أن أكتب أدباً، فالمسودة الأولى شفوية دائماً، حيث أسجل على أشرطة عديدة لأسمع نفسي لاحقاً وأختار الأصوات التي تعجبني. ولكن في الرسم، تأتي الحركة من الجسد، لذلك أرسم تبعاً للموسيقى».

على الجدران نكتشف بعض البقع الحمراء والصفراء، كأنها زخات فرح طافت من اللوحة في لحظة مميزة من إنتاجها الراقص. على عكس الكتاب الذين يرون في احترافية عملهم أكبر ضمان على الاستقلال، يعتقد غاو أنه «لو تناول الكاتب عمله كوسيلة للرزق، فسيضطر إلى الخضوع للسوق. ليعيش الإنسان يمكنه القيام بأشياء أخرى كثيرة: يعمل

جوائز الأدب قيمة في العالم، رد بواب مزرعته على الصحفيين قائلاً: «كلا، لا يسكن هنا أي كاتب، وهذا الرجل الذي تبحثون عنه هو رسام». يشرح لنا قائلاً: «في شبابي، كان رسامو اللوحات الزيتية الغربيون قدوتي. ولكن، بعد زيارتي الأولى لأوروبا، في العام 1978، وحين رأيت أعمال كبار الفنانين، بدأت أعيد حساباتي. في الصين، ليس هناك تقليد للرسم بالألوان الزيتية، ولكن الألوان المائية يعود تاريخها إلى أكثر من ألف عام، إلا أن القوانين تحدها كثيراً، وهامش الإبداع فيها صغير. والآن فقط، وبعد ثلاثين عاماً من المحاولات، بدأت أجِد صوتي: أستعمل المواد التقليدية الصينية؛ الحبر والورق، ولكن من دون أن أرسم بالطريقة الكلاسيكية. أحاول أن أنقل إلى الطرائق الشرقية ضوء الرسم الغربي ومنظوره بعمق آخر. إنه أمر أكثر روحانية وذهنية، وليس مجرد تمثيل هندسي للحقيقة».

إنّ طريقة عمل غاو بحدّ ذاتها تستحق

صحفياً أو مدرساً أو مترجماً... بالإضافة إلى ذلك، يرضى برفاهية الاستقلالية».

- هل يمكن للسوق أن تتحول إلى أمر استبدادي كنظام سياسي ديكتاتوري؟

- يواجه الفنان عاملي ضغط دائمين. الأول هو السلطة السياسية التي تفرض معيارها، وتجبرك على اتباع شعاراتها والدفاع عن مصالح حزب ما. يُؤمر المثقفون بالتفكير بطريقة معينة، لذلك يضحكني أن يقول أحدهم إنه يدافع عن قضية، في الوقت الذي يكتفي فيه بالخضوع. من الواجب أن يكون المرء صلباً جداً في الداخل ليحافظ على سلوكه ووجهة نظره الخاصة في وجه السلطة. أما الثاني فهو عامل ضغط معاصر: السوق التي احتلت كل شيء منذ بداية العولمة، محولة أي شيء إلى بضاعة تُستهلك. لكنّ للأدب قيمة بعيدة عن التجارة، لأنه طريقة لمعرفة معنى أن تكون إنساناً معرفة عميقة. يجب على الأدب ألا يكون وسيلة للحصول على شيء آخر. لم ينقذ الفنان العالم يوماً، فهو على الأكثر يحقق ذاته فحسب معبراً عما في داخله.

كان غاو ضحية الثورة الثقافية (1966-1976)، مما اضطره إلى الالتحاق بمعسكر إعادة تأهيل حيث حُظر عليه أن يكتب. يشرح لنا وهو يسير بنا إلى أحد المقاهي التي كان يرتادها بعد وصوله إلى باريس بقليل، فيقول: «ومع ذلك كنت أكتب. خبأت الكتابات في أوصص ودفنتها في الأرض، في حفرة في غرفتي. دفتتها كلها، وحين تمتلئ الأوصص كنت أحرقها، وأعيد كتابة القصص ذاتها. هكذا، أخذت أكتب، وأدفن، وأحرق... اضطرت إلى تدمير أعمالي كافة، فاخفت الأوراق بالكيلو، لكنني لم أجد أماناً خيراً آخر».

منع في الصين

سمحت له حركة التحرر في الثمانينيات بنشر كتب عديدة في بلاده، بالرغم من صداماته العديدة مع الرقابة. سبّب أحدها ضجة كبيرة (حيث اعتبرت السلطات كتابه موقف حافلة «الأشدّ خبثاً في تاريخ

الجمهورية الشعبية») ودفعته إشاعة أنهم سيسجنونه في مزرعة للهرب إلى غابات الجنوب الغربي، فجال لمدة خمسة أشهر في عمق بر الصين، وهي المناطق المليئة بالأساطير، والحكايات، والأغاني، والاحتفالات، والتقاليد الشعبية، والشخصيات التي تحولت إلى موادّ غذّت تحفته الأدبية جبل الروح، وهي سيرة ذاتية متخيلة اقتضت منه سبع سنوات (فليجمع عدداً أكبر من الأحداث المثيرة قام بثلاث رحلات، امتد أطولها مسافة خمسة عشر ألف كيلومتر) إلا أن أحداً من قاطني الصين لا يستطيع قراءة هذه التحفة الأدبية. يعلّق غاو مغلوباً على أمره: «أنا محظور كلياً، فكل كتبي ممنوعة، ولا يمكنهم حتى ذكر اسمي أو الاقتباس من كلامي في محاضرة أو مقالة ما. لم يغير الاقتصاد الرأسمالي أو جائزة نوبل شيئاً. بالعكس، أصبحوا أكثر تشدداً: فاسمي محظور الآن على مواقع الإنترنت أيضاً. المرة الأخيرة التي وطأت فيها قدمي الصين كانت في أواخر عام 1987؛ حين غادرتها».

بابتسامة حزينة، يتذكر غاو قائلاً: «لقد اقترح عليّ المحرّرون الفرنسيون تعديلات في كتاب جبل الروح. إذ لم يرغب أحد بترجمة هذه السيرة الذاتية، ورفضتها كل دور النشر الكبيرة. قالوا لي إنه عليّ أن أنقص منها مئتي صفحة، فأجبتهم إذا لم تنشروها فأنتم الخاسرون. قال لي غاليارد إنه كتاب عظيم، لكنني لأسباب اقتصادية لا أستطيع طباعة كتاب بهذا الطول لكاتب غير معروف. وفي النهاية نشرته لوب، وهي دار نشر صغيرة. بعد ذلك بقليل واجهت المزيد من المتاعب في الولايات المتحدة، فلأجل العرض الأول لمسرحيتي عن تيانانمين، طلبوا مني إجراء تعديلات لجعلها أكثر دعائية. رفضت مجدداً القيام بالتغييرات، واضطرت في النهاية إلى تقديمها في السويد».

لقد تغلبت الصين على فرنسا - البلد الذي يحمل غاو الآن جنسيته وحيث تحرر من فكرة الوطن الخيثة - بصفتها القوة الاقتصادية الرابعة عالمياً. قد تصبح الأولى يوماً ما. نسأله حين نمر أمام تمثال لويس الرابع عشر في ساحة فيكتوار: ما الشعور الذي

تمنحك إياه هذه الفكرة؟ فيجيب: «سيكون هذا جيداً بالنسبة إلى الصينيين. ولكن في الوقت نفسه، إن تزايد الشعور القومي الذي سيرافق ذلك مقلق». بالمناسبة، ما رأيك بأزمة الضواحي الفرنسية، حيث عشت لبضع سنوات؟ يجيب: «تعاني فرنسا من تساؤلات عميقة حول ذاتها، إلا أن المثقفين لا يواجهون الموضوع مباشرة، فيبقى كل شيء عند السطح. لا نزال متأثرين بشكل زائد بالماركسية وباعتقادنا أننا نتقدم، لكن هذا لا يحصل بالضرورة».

- رغبتك الثابتة بالكتابة، ومقاومتك للسجن، واستقلاليتك... كلها أدلة على قوة هائلة، فلماذا تعرّف عن نفسك بالرجل الهش؟

- أنا هشّ. فالقوة السياسية كان في إمكانها أن تسحقني في أي لحظة، والأمل الوحيد لمتابعة الكتابة تمثّل بالهرب. أنا هارب، ولست بطلاً، فلولا هذا الهروب لسحقوني كالصرصار. من السهل جداً اعتباري منشقاً، لكنني لست كذلك، إذ لم أتبع سياسة المعارضة. أنا كاتب اضطر ببساطة إلى الهرب ليفي بالتزامه وليتحرر، فأصبح على هامش سلطة استبدادية رفضت وترفض الشروط الأساسية للوجود الإنساني الحق. اضطر الناس منذ الأزل إلى الابتعاد عن السلطة والذهاب إلى المنفى كي يُبدعوا. إنها قصة قديمة، فالشاعر هو بطل الهروب الأكبر، وللمفارقة، فإن كلمته هي التي تبقى. أنا أنطلق من فكرة أن الإنسان ليس كاملاً، بل هشاً، وهذا يمنحني كل الحوافز اللازمة للتعلم».

نذكر له أن المحرر خورخيه هيرالدو قال ذات مرة: «إنّ أي ترجمة إلى الإسبانية من عمل صيني أو ياباني هي مجرد تقريب، وتفسير شخصي جداً».

- كيف نعرف إذا كنّا قد وصلنا إلى جوهر كتبك؟ كيف نستطيع أن نستوعب أن أعمالك «تتجاوز حدود اللغة الصينية؟».

يتسم غاو حين نمر أمام مكتبة الفنون الجميلة التي اعتاد أن يقصدها في سنوات بوهيميته الباريسية الأولى، ويقول: «حسنًا، في الحقيقة لا أتكلّم إلا الصينية والفرنسية. لكنني أؤكد لك أن جبل الروح



القضية: ضد السلطة

بدلاً من أن تفتخر وسائل الإعلام الصينية بالحائز على جائزة نوبل في العام 2000، عتّمت على الخبر، وهو حالياً ممنوع في الصين. ردّاً على ذلك، يشير إليه الجميع في باريس بصفته «الفرنسي الثالث عشر الحائز على جائزة نوبل». وبعد كتابته الهرب، وهو عمل مستوحى من مجزرة تيانانمين، صنفه النظام الشيوعي رسمياً على أنه شخص غير مرغوب به. يعتقد هو أننا «نعيش نزاعات ليس لها علاقة أساسية بمصالح الناس، وإنما بمصالح الأحزاب. ومن يمكنه الدفاع عنا هو نحن أنفسنا، فحيث توجد السلطة لا توجد حرية. حتى في الديمقراطية، ينتخب السياسيين عددٌ معين من الناس بحيث يُمسي من السخيف الاعتقاد أنهم يمثلون أحداً حقاً. أنا أجد نفسي بعيداً عن الفرق السخيف بين اليمين واليسار، لأن أي مبدأ يقلل من جوهر الفرد. أعتقد بالأنظمة التي تعتمد على الكثير من آليات الحد من السلطة. والتزامي، بهذا المعنى، هو اللاسياسية الجذرية - إذا ما اعتبرنا السياسة صراعاً لأجل السلطة - عالم بلا توقعات ولا وعود، العيش من دون ياء النسبية هو طريقي في المقاومة».

فإن التمييز بين الواقع والخيال ليس واضحاً كما هو الحال في كتاباتكم».

عندما حان وقت الطعام، اكتشفنا أن غاو نباتي، فيقول: «أنا نباتي مئة بالمئة بسبب مشاكلتي الصحية، وليس بسبب قناعتني؛ في السابق كنت ذواقة. أكل كثيراً في المطاعم اليابانية لأن السمك النيء موجود في حميتي لخلوه من الدهن».

في لحظة معينة اضطررنا إلى مغادرة شقة الكاتب بسبب المقاطعة المستمرة للاتصالات الهاتفية. يقول معتذراً: «جائزة نوبل جلبت معها الشهرة، وهكذا انتهت حياتي الهادئة. هذا هو الحال: أنا مشغول أكثر من أي وقت مضى. أستقبل طلبات عديدة من كل حذب وصوب، فتارة يريدونني أن أقوم بدور الزهرية في أقل الأماكن احتمالاً، وطوراً يطلبون أن أشارك في بعض المناسبات لأبتسم وأبدو لطيفاً. ليس لدي سكرتيرة لأن الوضع سيئ عندئذ:

فمن جهة، إن جعلني أصدقائي يتحدثون مع سكرتيرة أمر غير مقبول ومن جهة أخرى، أنا متأكد من أنهم عندها سيطلبون مني المزيد. يرن الهاتف طوال اليوم، كما تسمعان، لكنني لا أملك جهاز رد تلقائي، ولذلك، ليس لدي رسائل هاتفية أيضاً. كما تصلني الفاكسات طوال اليوم، والرد على كل هذا سيضعف عملي. لهذا، فإنني أتهرب من الأمر بهذه الطريقة».

قد لا يتفق هذا المقت للحياة الاجتماعية مع بعض الصور التي تجمعه مع القادة السياسيين، كالزيارة التي قام بها قبل أشهر قاصداً خوسيه ماريّا أثنار في قصر المونكلوا. «لقد قبلت الدعوات إلى حفلات استقبال كهذه وغيرها أحياناً من باب التهذيب، لكنه أمر يحتاج إليه السياسيون وليس الكتاب. لا أحب فعل ذلك، فأبتعد قدر الإمكان عن هذه الأمور لأنها تتعبني. إنها نوع من الطقوس التي يمارسها المرء مجبراً، ومحاولاً تقليصها قدر الإمكان. هذه اللقاءات لا تضيف إليّ شيئاً ولا إلى الأدب». يؤكد ذلك مستمتعاً بالشمس في مقهى مفتوح قريب من مركز ليزال التجاري.



جيد بالفرنسية. في كل اللغات هناك ثلاثة أشخاص: أنا وأنت وهو. وهذه الصدفه بعالميتها وسحرها تعني أن هناك إنسانية عميقة في الموضوع، وأن وعينا يُلفظ عن طريق هذه المراحل الثلاث. هذه هي القاعدة المشتركة. ومن جانب آخر، ليس هناك في الصينية تصريف ولا تمييز بين الفعل والاسم والصفة والظرف. قد يسمي الفعل صفة، فالكلمة هي ذاتها دائماً، وموقعها في الجملة هو ما يحدد الدور الذي ستقوم به. غياب أزمنة الأفعال هذا يجعل العملية العقلية للراوي هي وحدها المهمة. ولذلك،

غابرييل غارثيا ماركيث



«توقفتُ عن الكتابة».

يعترف غارثيا ماركيث أنه لم يعد يكتب،
وأنه حالياً متفرغ للقراءة، بالرغم من أنه لا
ينفي احتمال عودة طاقته الإبداعية.





ويقطن فيه نجوم السينما والرؤساء السابقون وأصحاب البنوك. وبعد أن اجتزنا البوابة الخارجية والفناء الداخلي المزدحم، وصلنا إلى غرفة المعيشة بعد أن كادت أنفاسنا تنقطع بسبب حمل هدايا الميلاد الثقيلة التي أرسلها إليه أصدقاؤه في برشلونة. يعيش غابو وزوجته ميرثيديس بارشا هنا منذ أن غادرا إسبانيا في العام 1975. بالرغم من أنهما قاما بتوسيع المكان وتعديله بشكل مستمر منذ ذلك الحين. هناك دعامات من الخشب وألف ثغرة - من شبابيك وشقوق - تدخل منها الشمس وتبسط سيطرتها في الداخل، مضيئة، على سبيل المثال، صور أحفاد الكاتب الخمسة الذين تتراوح أعمارهم بين سبع سنوات وثمانية عشرة سنة، أو لعبة صفراء ضخمة تبدو كنوع من الأرانب.

في الساحة المكسيكية ثوكالو الزاخرة بالحياة - وهي مركز ثقل سلطات البلاد، ومسرح لاعتراضات مختلفة - بين المخيمات واحتجاجات الفلاحين الذين لا يملكون أراضي، والمدنيين الذين لا يملكون بيوتاً، ونساء هن ضحايا العنف أزواجهن، وجماعات عديدة من الهنود الذين يطهرون المارة من الأرواح الشريرة مقابل بعض المال تغوينا فكرة أن نطلب خدمتهم، إذ لم يبقَ لدينا سوى بضع ساعات لنذهب لمقابلة غابرييل غارثيا ماركيث، وهو امتياز لم يحظَ به إلا بضعة صحفيين منذ حصوله على جائزة نوبل للآداب في العام 1982، ويتابنا القلق من أن يفشل الأمر في اللحظة الأخيرة لأي طارئ.

يعرف السائق جيداً مكان بيدريغال دي سان آنخل، وهو حي سكني مبني فوق صخور بركانية،



انتظرنا بفضول عند الطاولة التي استقرت عليها كتب صور الحائزين على نوبل، وغيرها من الصور التي التقطها ريتشارد آفيدون (الذي سيقول عنه غابو لاحقاً: «آفيدون هذا... جاء إلى هنا والتقط لي صورة ثم مات بعد خمسة عشر يوماً، لم أرها يوماً»). ثم عبرنا حديقة مليئة بالزهور - كالأوركيد الرائع - ووصلنا أخيراً إلى المكان الذي بنى فيه غابرييل غارثيا ماركيث استوديو معزولاً ليعمل فيه. فاجأناه وهو أمام الحاسوب، ولكن ليس في لحظة كتابة، وإنما وهو يطالع الصحافة العالمية على الإنترنت. دعانا إلى الجلوس بلطف، ثم أوضح لنا أنه سيقوم مستسلماً بشكل استثنائي بالإذعان لإجراء هذه المقابلة لأنه لم يتمكن من مقاومة الأحاديث في جوه العائلي والعاطفي. في هذه اللحظة، شدنا من ذراعينا ويسألنا

هامساً: «أخبراني الآن، كم دفعتما لزوجتي؟». وهكذا، بدأ اللقاء الأول في الاستوديو، لا تقاطعه إلا بعض العبارات الجهرية بالإنكليزية يلفظها حاسوبه بين الفينة والأخرى، كما لو أنها مداخلات من السي آي آيه. يمتلك غابو آلة حديثة جداً، فيها كل الوسائط المتعددة المتقدمة، حيث تخلق عن آله الكاتبة الإلكترونية الأسطورية منذ سنين عديدة. يسلم قائلاً: «لا بد أنني قد استخدمت الحاسوب الأول في الأسواق. حين كنت أستعمل الآلة الكاتبة كنت أنشر كتاباً كل سبع سنوات كمعدل وسطي، ومع الحاسوب أصبحت أنشر كتاباً كل ثلاث سنوات، لأن الحوسبة تقوم بالكثير من العمل نيابة عنا. لدي العديد من الأجهزة المتطابقة، واحد هنا وآخر في بوغوتا وثالث



في برشلونة، وأحمل في جيبي دائماً قرصاً مضغوطاً». كان يشرب في أثناء حديثه معنا الكولا، وهو إدمان لا تتفوق عليه إلا حاجته إلى التواصل الدائم مع الأخبار والمعلومات التي تصله عبر الهاتف أو الإنترنت أو الفاكس أو الإيميل - من مصادر مباشرة في كثير من الأحيان - حول وضع العالم الحالي بشكل عام وبلده كولومبيا بشكل خاص.

كان متكتماً في حديثه عن حياته الخاصة، («لهذا السبب، لديّ مؤرخ سيرتي الذاتية الرسمي، الأميركي جيرالد مارتين، والذي بالمناسبة يُفترض به أن ينشر الكتاب في الوقت الحالي - بالفعل، نُشر هذا الكتاب وتُرجم إلى اللغة العربية وصدر عن الدار العربية للعلوم ناشرون- لكنني أعتقد أنه ينتظر أن يحصل معي أمر ما...»). ويقول لنا: «أمضيت العام 2005 مستريحاً. لم أجلس أمام الحاسوب، ولم أكتب سطوراً واحداً. بالإضافة إلى ذلك، ليس عندي أي مشروع أو نية للقيام بمشروع. لم أتوقف يوماً عن الكتابة، وذلك العام هو الأول في حياتي الذي لم أكتب فيه. اعتدت أن أعمل كل يوم من التاسعة صباحاً وحتى الثالثة عصراً، قائلاً إنني أقوم بذلك لأحمي ذراعي... لكن السبب الحقيقي هو أنني لم أعرف ماذا أفعل صباحاً».

- وهل وجدت الآن أمراً أفضل لتقوم به؟
- وجدتُ أمراً رائعاً: أستلقي في سريري لأقرأ! أقرأ كل تلك الكتب التي لم أحظ يوماً بالوقت الكافي لقراءتها... أذكر أنني في ما مضى كنت أعاني ارتباكاً كبيراً حين لا أكتب، أيا كان السبب. اضطررت إلى اختراع نشاط ما لأستطيع الحياة حتى الثالثة عصراً، كي لا أصاب بالاكئاب، لكنني الآن أجد الأمر مدعاة للسرور.

- والجزء الثاني من الذكريات؟
- لا أعتقد أنني سأكتبه. لدي بعض الملاحظات، لكنني لا أريدها أن تصبح مجرد تقنيات احترافية. اكتشفت أنني لو نشرت جزءاً ثانياً، فسأضطر إلى ذكر أشياء لا أريد ذكرها، بسبب بعض العلاقات الشخصية غير الجيدة. الجزء الأول، أحيا لأتحدث

عنها، هو ما أردته بالضبط. في الجزء الثاني، وجدت أن هناك عدداً من الناس ينبغي أن يظهروا، والذين لا أريدهم أن يكونوا في ذكرياتي، تباً. من قلة الاحترام أن أبقهم خارجها، بسبب أهميتهم في حياتي، لكنني لا أستلطفهم.

مع أن غابو لا يذكر أسماء، إلا أننا لا نستطيع تجنب سؤاله عن ماريو فارغاس يوسا؛ الكاتب من بيرو الذي انقطعت أواصر صداقته معه بعد أن لكمه علناً، هنا في المكسيك في العام 1976، بسبب حادثة شخصية أخبر كل منهما كاتب سيرته الذاتية المستقبلية عن سببها. أليس من الممكن أن تتم المصالحة بينهما يوماً؟ في هذه اللحظة تجيب ميرثيديس بارشا، التي دخلت الاستوديو قبل دقائق، بحدة: «بالنسبة إليّ، الأمر لم يعد ممكناً. لقد مرت ثلاثون سنة». يسأل غابو متفاجئاً: «كل هذا الوقت؟». فتؤكد ميرثيديس قائلة: «عشنا خلال السنوات الثلاثين الماضية بسعادة كبيرة من دونه بحيث لا نحتاج إليه أبداً». ثم تنوه قائلة: «غابو أكثر دبلوماسياً مني، لذلك يمكنكما كتابة هذه الجملة عن لساني حصراً».

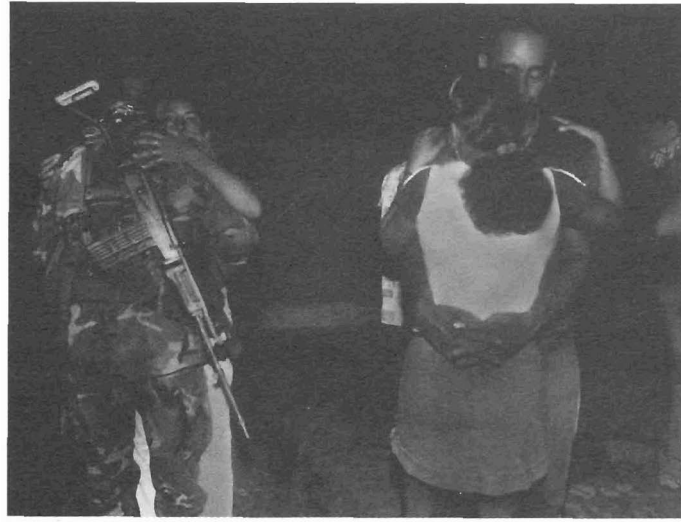
بالعودة إلى الفترة غير المعتادة لنشاطه المتوقف، يوضح الحائز على جائزة نوبل قائلاً: «عام الاستراحة قد انتهى، لكنني وجدت أعذاراً لتمديده حتى نهاية العام 2006. فبعد أن اكتشفت أنه يمكنني القراءة من دون الكتابة، لا أعرف إلى أين سأصل، وأعتقد أنني أستحق هذا الأمر بعد كل ما كتبت، أليس كذلك؟ مع أنه لو خطرت ببالي غداً فكرة رواية ما فسأجد الأمر رائعاً! في الحقيقة، نظراً إلى خبرتي، يمكنني كتابة رواية من دون مشاكل: أجلس أمام الحاسوب وأستخرجها... لكن الناس يتجهون إلى أنك لم تضع فيها كل طاقتك. خلفي تعمل كل الأجهزة الحاسوبية، مستعدة لتباشر العمل في اليوم الذي أرغب فيه بذلك. أحب كثيراً أن أجد موضوعاً ما، لكنني لست محتاجاً إلى الجلوس كي أختبره. على الناس أن يعرفوا أنني لو نشرت أمراً آخر، فذلك لأنه يستحق العناء». ثم يعلق: «في الحقيقة، لم أعد أستيقظ ليلاً مرعوباً لأنني حلمت بالأموال الذين حدثني عنهم جدتي

في آراكاتاكا حين كنت صغيراً، وأعتقد أن لهذا علاقة بالأمر ذاته، بأن الموضوع قد انتهى بالنسبة إليّ». لا يبدو أن توقف الإبداع المفاجئ يزعجه بتاتاً، بل إنه يعيش لامبالاةً تقليدية في الكاريبي. فيقول: «لم يغير التوقف عن الكتابة حياتي، وهو أفضل ما في الأمر! فلم تختطف أي نشاطات مزعجة الساعات التي اعتدت أن أشغلها بالكتابة».

عرض علينا الكاتب اللعبة الصفراء الكبيرة التي رأيناها حين دخلنا: «إنها حرفة يدوية مكسيكية، وهدية من فيليب غونثاليث الذي يأتي إلى هنا كثيراً». يتحول الحديث بعد ذلك إلى السلطة التي تذهله والقادة الحاليين والسابقين الذين يزورونه. «بما أنني كاتب، أهتم بالسلطة لأنها تمثل كل عظمة الإنسان وبؤسه». من بين أصدقائه يميّز كليبتون، «ألا تعرفونه؟ إنه شاب رائع! لم أمضِ وقتاً رائعاً أكثر من ذاك الذي أمضيته معه».

الإيدز هو الموضوع الأكبر الذي يشغل باله حالياً، فهو رجل تثير انتباهه قلة الاهتمام التي تبديها السلطات أمام الانتشار المخيف للمرض في مناطق جديدة؛ وخاصة في الكاريبي، ويزعجه الأمر حقاً فيقول: «لا يعيرونه اهتماماً. ولكن، لا أحد يعرف عن الموضوع أكثر منهم».

ثم أرانا صاحب النوبل مكان قاعة مشاهدة أفلام السينما الخاصة التي يملكها في منزله، وقال لنا: «من الصعب جداً أن أتمكن من الذهاب إلى العروض العادية، حيث أمضي ساعات طويلة وأنا أوقع للناس عند الباب. لذلك يرسلون إليّ الأفلام إلى هنا، أو إن لم يفعلوا، فإنهم يدعونني إلى العروض ذات الحضور المحدود». ليس شغفه بالفن السابع جديداً: ففي شبابه كان يحلم بإخراج الأفلام، وهو ما فعله ابنه رودريغو الذي يقصد مهرجانات شهيرة مثل كان ولوكارنو وسان سيباستيان. بالإضافة إلى إخراجة حلقات من آل سوبرانو، وأيضاً على بعد مترين من سطح الأرض، فهو المخرج السينمائي لأفلام مثل أشياء أقولها بمجرد النظر إليها، عشر قصص حب قصيرة، تسع حيوات. يعلق أبوه قائلاً: «لحسن



القضية: السلام في كولومبيا

إن نشاط غارثيا ماركيث الثأري المستمر قد دفع به للمشاركة في عمليات سياسية معقدة، بشكل سري دوماً. فهو صديق لسياسيين من أمثال عمر توريوخوس، وجيمي كارتر، وفيديل كاسترو، وفيليب غونثاليث، وبيل كليبتون، كما أنه يتواصل بشكل مباشر مع رؤساء عدة في أميركا اللاتينية. شكّل قبل عدة سنوات عاملاً مهماً في أن يجتمع في الهافانا مساعد ألفارو أوربي مع الجماعة اليسارية المشاركة في حرب العصابات والمسماة جيش التحرير الوطني (ELN)، وهي ثاني أكبر الجماعات أهمية، وتضم خمسة آلاف محارب، وفتح بذلك حوار حول نهاية النشاط المسلح. ساهم غابو في تحقيق هذا اللقاء الذي لم يفض إلى شيء بعد شهور من الأخذ والرد. يبدو طريق السلام طويلاً جداً في بلد تسلك فيه قوات كولومبيا الثورية المسلحة (FARC) بمحاربيها الذين يزيد عددهم عن عشرة آلاف محارب سلوكاً يتصف بالتعنت، ناهيك عن قوى اليمين الشبيهة بالجيش (والتي لا تزال نشطة) ومصالح تجار المخدرات. يقول غابو إن «المخدرات تلوث كل شيء. إنها تجارة كبيرة جداً تنفاسها مجموعات عديدة، ولن ينتهي العنف ما دامت موجودة».

الحظ، إنها ممتازة، فلَكم سيكون الأمر سيئاً لو أنني لم أجدها جيدة!».

يعيش رودريغو في هوليوود، فيما يقيم أخوه غوثالو في باريس. وكلاهما يمضيان هذه الأيام مع والديهما، وهما يدخلان ويخرجان من المنزل بالحرية ذاتها التي تمتعا بها في صغرهما. في اليوم التالي، يشرح لنا غوثالو، المصمم والرسام قائلاً: «لم يكن غابو أباً يحب اللعب، ولكنه أحب المحاورات الكثيرة ومشاركتنا أموراً خاصة بالراشدين. ما فعلناه معه خلال صغرنا تمثل بالكلام، والاستماع إلى الموسيقى».

أخذ غارثيا ماركيث بطور آليات متزايدة الفاعلية للحفاظ على حياته الخاصة، ويبدو أنه قد تجنب خطر أن يسرق منه نجاحه الوقت المخصص لمشاعره تجاه أبنائه، وأحفاده، وأصدقائه. إلا أنه قبل ذلك، وكما قال: «كادت الشهرة أن تخرجني عن خط الحياة، لأنها أقلقت الإحساس بالواقع والسلطة. فهي تحكم عليك بالوحدة، وتنتج مشكلة عدم تواصل فتعزلك». بدلاً من القيام بنزهة حقيقية في مكسيكو سيتي، اقترح علينا غابو أن نتنقل ذهنياً إلى مدينة أخرى هي برشلونة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، حيث عاش وكتب خريف البطريك. أوضح قائلاً: «لدي انطباع أن تلك المدينة لم تفاجئنا كثيراً. بدا الأمر وكأننا قد رأيناها قبلاً. وإن سبب عدم ذهابي إلى أي مكان آخر هو رامون فينيس، الحكيم الكتالوني الذي جعلته يظهر كشخصية في مئة عام من العزلة. ففي مدينة بارانكيا، حيث أمضيت شبابي، كان قد باعني صورة مثالية لبرشلونة من ذكريات منفاه إلى حد أنني لم أشك معه يوماً في حقيقة الأمر».

عند انتقالهما إلى إسبانيا، ترك غابو وميرثيديس بارشا خلفهما المكسيك العالمية، المتحررة والمثقفة، وبضع دوائر لسينمائيين وفنانين وأدباء؛ شخصياتهم ونشاطاتهم أكثر تطوراً بكثير من إسبانيا المحتشمة في أواخر عهد فرانكو.

يتذكر قائلاً: «قصداً فرنسا لرؤية أفلام مثل التانغو الأخير في باريس، الذي اكتشفناه في بيرينيان.

كنا نذهب أحياناً إلى باريس مدة ثلاثة أيام، لنطلع على آخر الأخبار في المجالات كافة. باتت برشلونة بوابة مفتوحة على أوروبا: من هناك أخذنا نتنقل إلى لندن (حيث تعلمنا الإنكليزية) وميلانو... ترددنا على الحفلات والعروض المسرحية الأولى، فهذأت كل توقي إلى الثقافة». عاش غابو وميرثيديس فورة الغوشديفين: الفجر الأبدي في بوكاتشيو، وازدهار دور النشر الجديدة، والمؤامرات بسبب موت فرانكو الوشيك. كما اجتماعاً بكتاب آخرين جذبتهم برشلونة بسبب بالسيلس الأم الكبيرة، مثل خوسيه دونوسو، وماريو بارغاس يوسا، وزارهما كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثر وبابلو نيرودا. يعلق غابو قائلاً: «يكاد الأمر يبدو مخجلاً الآن لأقر به، لكننا أمضينا وقتاً رائعاً. في برشلونة تلك، في بدايات السبعينيات، كانت الحياة ممتازة؛ وهو أمر من المخجل الاعتراف به. فعندما نفكر في الأمر قليلاً نكتشف الآن كم كان كل شيء محزناً».

وتكمن المفارقة في مغادرة آل غارثيا قبل وصول الديمقراطية: «كنا في بوغوتا حين مات فرانكو، وحين سمعنا بالخبر عدنا إلى المكسيك. ظننا أن الأمور ستهدأ كثيراً في إسبانيا، وأن عدم الاستقرار قادم، كما لم نعرف كيف سيكون رد فعل الحكومة الإسبانية الجديدة على رواية خريف البطريك الصادرة منذ فترة وجيزة، والتي صورت غياب ديكتاتور. واعتقدت أنهم لن يصدقوا أنني استقيت الفكرة من نماذج من أميركا الجنوبية. لم أعلم كيف سيفهم الأمر، إلا أن فرانكو بدا لي ديكتاتوراً زائد العصرية والتحضر بالنسبة إلى ما كان في رأسي أو روحي. في الحقيقة، إن أفضل نقد لهذا الكتاب تلقيته من عمر توريوخوس من باناما، قبل وفاته بثمان وأربعين ساعة، حيث قال لي: هذا أفضل كتبك، فكلنا هكذا كما تقول».

يتابع غابو هروبه من الأضواء العامة. إذ يعتقد أن التكتّم أكثر فاعلية دوماً، حتى في السياسة. كان تدخّله الشخصي مصيرياً بالنسبة إلى تحرير السلطات الكوبية بعض السجناء السياسيين، وتلطيف بعض وجهات



كولومبيا، بتقريب مواقف حكومة الرئيس أوريبى من مواقف عصابات جيش التحرير الوطني (ELN). «منذ أن حملت بي أمي وأنا أسمعهم يتكلمون عن عملية السلام في كولومبيا. والآن، بعد صراع طويل، اتفقوا على الحوار. شاركت في محادثات أولية في هافانا، وسار الأمر على ما يرام. لدي علاقات طيبة مع كلا الطرفين. لفتات كهذه، بالنسبة إلى كاتب مثلي معتاد على الفوز، هي دائماً علاج من التواضع، حيث تتدخل مجموعة عوامل شديدة التنوع».

«لطالما وُجد العنف، وقد مضت عليه أعوام كثيرة في كولومبيا»، كما يذكر، «الموضوع الحقيقي هو الوضع الاقتصادي المنقسم بين الشراء الفاحش والفقير المدقع. وتجارة الكوكايين فيها الكثير من

النظر. كما ان مشاركاته في بلدان عديدة تتضمن أحداثاً تليق بفيلم لجيمس بوند، كما حصل في العام 1995 حين طلب خاطفو خوان كارلوس غافيريا أن يصبح غابو رئيس كولومبيا (وكان رد الكاتب: «لا أحد يمكنه أن يتمنى أن يتحمل مسؤولية أن يكون أسوأ رئيس للجمهورية (...) حرروا غافيريا، وانزعوا الأقنعة واخرجوا لتعزيز أفكاركم حول التجديد تحت غطاء النظام الدستوري»). ويذكر قائلاً: «لطالما كنت متآمراً أكثر مني موقعاً. تمكنت دائماً من الحصول على أشياء أكثر عن طريق محاولة تصحيحها من الأسفل بدلاً من التوقيع على عرائض احتجاج».

ضمن هذه الدبلوماسية السرية يتولى الآن على سبيل المثال مهام وسيط من أجل السلام في

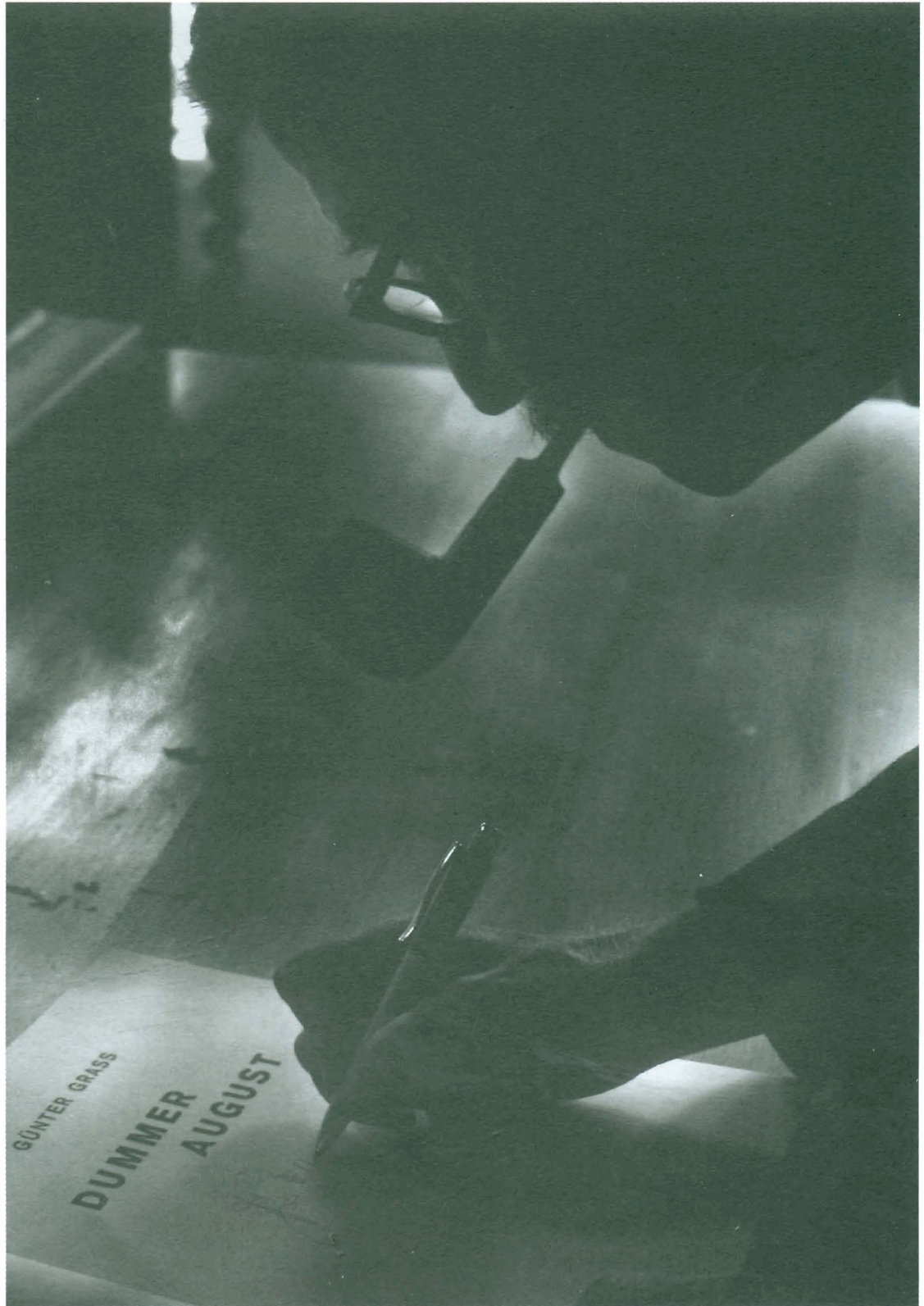


في برشلونة، وتسبب له بارتعاش عظيم حين توجب عليه الكلام علناً. «خجلي أنا؟ أحظى بالميزة العظيمة المتمثلة بأن الناس الآن يدخلون هذا البيت خجولين أصلاً. وهكذا يلائمني الأمر أكثر».

المال، براميل من النقود! في اليوم الذي تختفي فيه المخدرات سيتحسن كل شيء كثيراً؛ فهي السبب في جعل كل شيء يتفاقم. إذ إنَّ المنتجين الكبار في العالم موجودون هناك، حيث لم يعودوا يتنافسون على السياسة كالسابق، بل يتنافسون للسيطرة على المخدرات. والولايات المتحدة مشتركة كلياً في الأمر أيضاً».

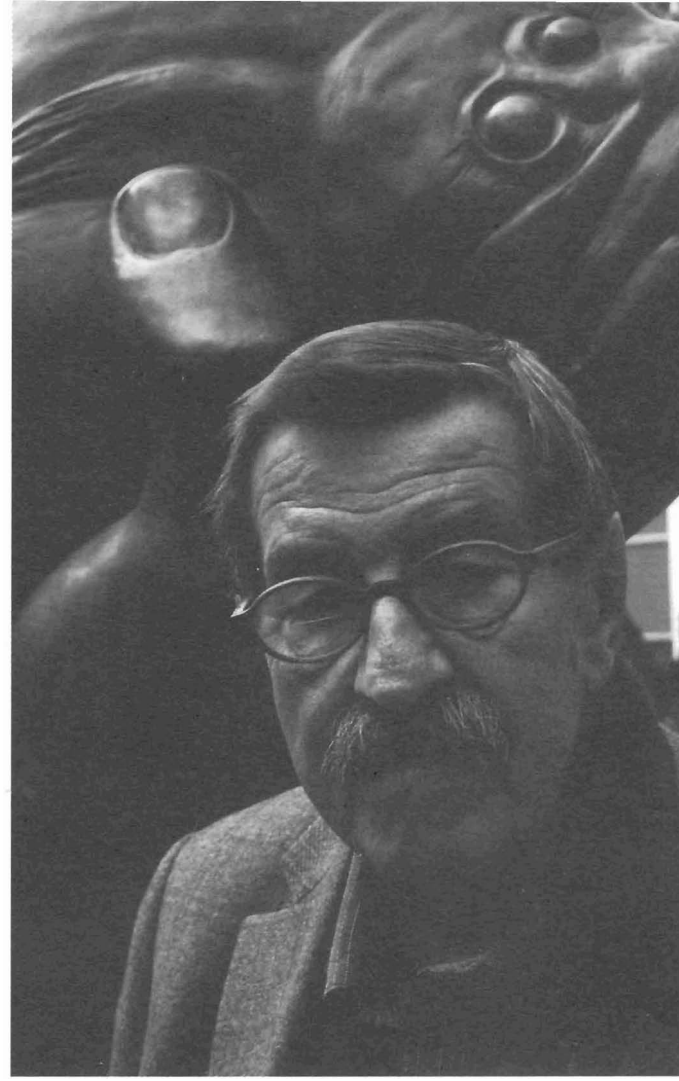
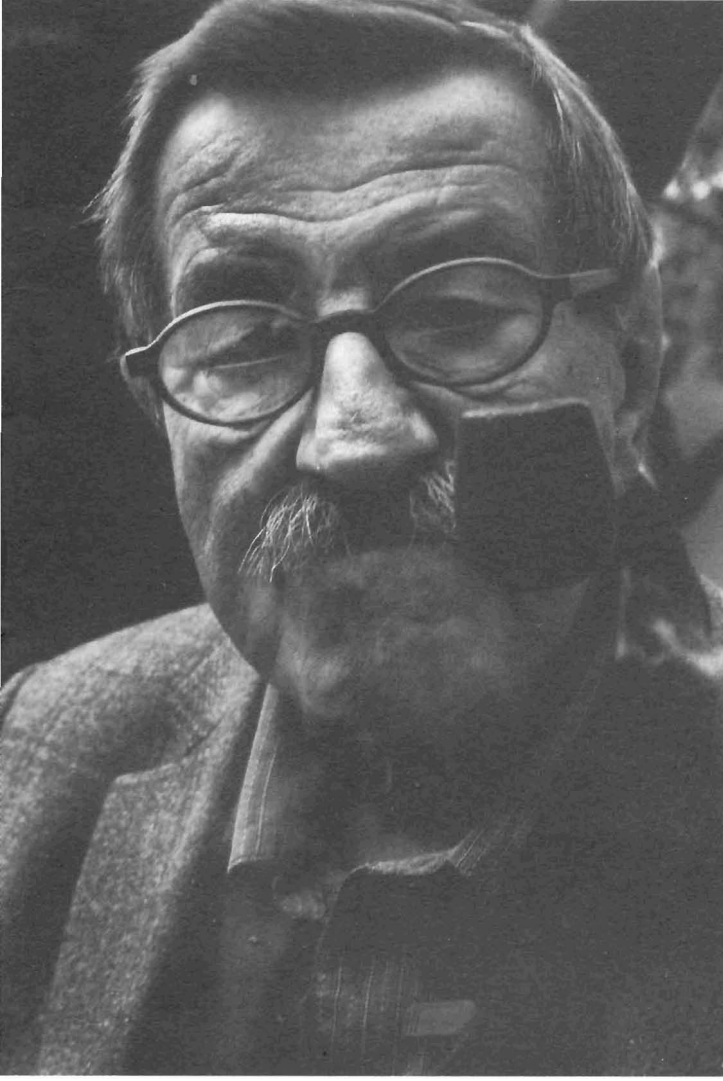
قبل أن نترك بيته، يدي غارثيا ماركيث اهتمامه بالكتّاب الآخرين المشاركين في سلسلة المقابلات هذه: «آه، أرى أنكما تختاران الجيدين فقط». إنَّ ثقته بنفسه، وقربه، يستحوذان على مستمعه بين الحين والآخر من دون أن يتمكن من ملاحظة أي دليل على خجله الأسطوري الذي دفعه للصمت التام

غونتر غراس



”يجب أن تتكلم، حتى عن أكثر ما قد يصدك،
ونخرج كل شيء.“

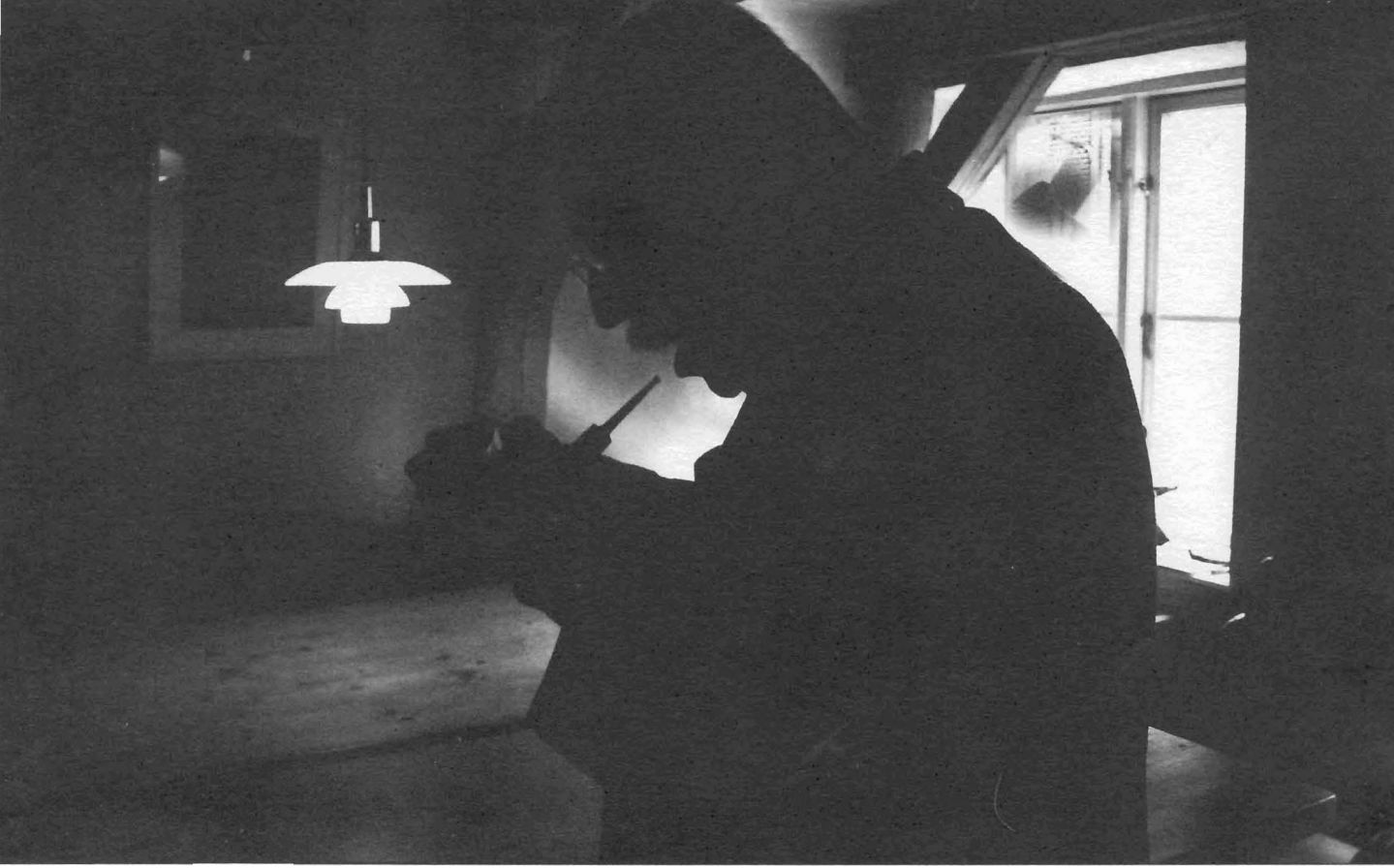
إنّ الجدل الذي أثاره نشر مذكرات شبابه ترك أثره في نفس
غونثر غراس، الحائز على جائزة نوبل في العام 1999. ينشر غونثر
القصاصات التي كتبها حين لم يدعه النقاد يموت، فيما يؤكد قراره
بالحديث عن الماضي بكل صراحة.



الاجتماعي ويلي براندت (1913-1992) والذي كتب له الكثير من الخطابات، وهو معجب أيضاً بالكاتب توماس مان (1875-1955) وهو الشخص الذي تأثر به أكثر من سواه. إنّ لوبيك مركزُ جذب للسياحة الأدبية في أوروبا، بمكانيتها الرئيسيين: منزل بودنبروك - مقصد حقيقي يجبل عائلة مان التي عاشت فيه - ومنزل غراس الذي تأسس في العام 2002.

تم لقاءنا الأول به في حديقة المنزل/ المتحف الخاص به. إذ إنّ المؤلف رسام تشكيلي وفير الإنتاج، وقد خُصّص جزء كبير من البناء لعرض لوحاته ومنحوتاته التي غالباً ما تتعلق بموضوعات كتبه، إلى جانب رأسين بشريين يبرزان من بين الحصى. ويخبرنا قائلاً: «هذه السيدة ذات الأثداء الثلاثة التي تrianها هناك، مثلاً، هي آيا التي غدّت الصيادين بأثدائها، وتظهر في روايتي سمك الترس. بعد كل

صوت القطار اللطيف، والشمس المشرقة التي تدخل عبر النافذة الصغيرة يجعلان بعض المسافرين يشعرون بالنعاس. وبمجرد الوصول إلى لوبيك، يفتحون أعينهم وقد تفاجأوا نوعاً ما ويتسمون، كما لو أنهم قد حطّوا في حكاية خرافية للأخوين غريم. تبدو المدينة القديمة، ببوابة هولستيرتور المهيبة المبنية من القرميد الأحمر، مسرحاً مثالياً لساندريللا وأميرها ولشخصيات أخرى من حكايات العصور الوسطى الرائعة. تعتبر لوبيك المبنية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر جزءاً من التراث العالمي منذ عام 1987، ويفتخر سكانها باختراعهم المرحبان، بالإضافة إلى افتخارهم بثلاث شخصيات مشهورة: الولدان الحقيقيان توماس مان وويلي براندت، والابن المتبنّى الحائز على جائزة نوبل؛ غونثر غراس. غراس شديد الإعجاب بالسياسي الديمقراطي



بیهلندورف. کلها مرتفعة عن الأرض لأنني أكتب واقفاً. الكتابة بالنسبة إليّ لا تختلف كثيراً عن الرسم أو النحت، فأنا أكتب من دون انقطاع كما لو أنني أتعامل مع الطين: أضع في المخطوط الأول أشياء شاذة ثم أبدأ بقولبتها».

على الرفوف تتراكم الكتب والأوراق والمصنفات والمجلدات بفوضى ظاهرة. هناك كرة قدم عليها جمل لكتاب ألمان حول هذه الرياضة. لا يترك غراس الغليون من يده، لكنه كثيراً ما يطفئه، وهو ما يؤكد أنها مسألة جمالية لا أكثر. كما أن هناك صوراً عديدة له على الحائط.

استعاد مؤلف الطبل القصديري طاقته. قبل بضعة أيام اعترف لنا أحد أصدقائه أن المؤلف «عاني الكثير» حين نُشرت مذكرات شبابه تقشير البصل في ألمانيا، حيث تمكن النقد الشديد من تقويضه ذهنياً. الأحداث التي يرويها في الكتاب لا تدع مكاناً للشك. يذكرنا الآن: «خدمتُ في منظمة شباب هتلر. خلال الحرب تطوعت في الجيش، إذ رغبت

كتاب اعتدتُ أن أنحت. وهذا أمر ميكانيكي بالمقارنة مع الأدب، إذ إنك لا تحتاج إلى دماغك، حتى إنه قد يزعجك. نعرض هنا نماذج لكتاب/رسامين آخرين: رسومات هرمان هسه وأوتو بانكوك، ولوحات غوته المائية...».

صعدنا معه طوابق عدة عبر درج ضيق يقود إلى عليّة شبه معتمّة، تمنحها عوارض خشبية مطلية بالأزرق السماويّ بعض اللون. جلس غراس إلى جانب طاولة كبيرة وأشعل غليونه متمهلاً. وكانت بعض الدرجات المعدنية تقود إلى سقيفة اعتقدنا أنها الملجأ الأخير للفنان. على إفريز النافذة، استقرّ تمثالان آخران له، مصنوعان من الطين.

وفي مكان شبيه بغرفة المطالعة وضعت آلة كاتبة قديمة فيها شريط ملون، من ماركة أوليفيتي - ليتيرا الأصلية، والمفضلة لديه. علّق قائلاً: «لا، ليست تحفة! أنا أستعملها! عندي العديد منها: واحدة في بيتي في البرتغال حيث أمضي الشتاء، وأخرى في جزيرة مون الدنماركية من أجل الصيف، وثالثة في



الصحف المطبوعة ذات توجهات سياسية مختلفة: «كيف تجرأت على تلقيننا دروساً طوال هذا الوقت؟». يبدي غراس، المولع بالقتال، اهتماماً بتوضيح بعض مظاهر الجدل: «بداية، لم أعترف بموضوع الأس أس، فلم أدع يوماً أنني ضد الفاشية، ولم



بركوب غواصة. لكنهم عيّنوني في الأس أس؛ وهي جماعات نخبة النازية المخيفة. في حالي أنا، لم أطلق أي رصاصة، حيث اشتركت في العراك مرتين فقط جُرحتُ خلال إحداهما وسجنني الأميركيون. لم يسبب لي الذهاب إلى الأس أس أي قلق أو خوف. ليس لدي أي عذر وهذا هو عاري؛ إذ وثقت بقدرات الزعيم، ووثقت بالانتصار النهائي لألمانيا. عشتُ النازية منذ عامي الثاني عشر مذهولاً ومبهوراً؛ نحن الشباب لحقنا بالإغراءات. لم أعلم بجرائم الأس أس إلى أن انتهت الحرب، وكان الأمر مؤلماً جداً. لكن، لا تعذبوا أنفسكم. لا يوجد ما يلطف الأمر، ولا يمكن التقليل من هول ما فعلته بالقول إنه طيش الشباب». لا تزال شظايا قذيفة موجودة في جسد غراس، تمنعه من إلقاء الأحجار بذراعه اليمنى، كما أنها بمثابة ذكرى جسدية مستديمة للذعر.

اعتبر بعض المعلقين أنه من غير المشروع بالنسبة إلى شخص ذي ماض كهذا أن يعمل بكثرة، كما فعل غراس، في «اصطياد النازيين» وفي النقد اللاذع لشخصيات الحياة العمومية؛ أصحاب الماضي السياسي في الرايخ الثالث، وردت عليه العديد من

أخف يوماً تطوّعي في الجيش. وحتى العام 1960، كنت أعتز دائماً أنني كنت في الأس أس حين كانوا يسألونني. وبعد ذلك، أمسى قبول هذا الجزء من ماضي أصعب فأصعب، وأردت أن أخفيه عن نفسي بسبب الخجل. أدركت أنني في لحظة ما سأعود إلى الموضوع... أجل، تأخرت، لكن في الوقت نفسه لا يفوت الأوان أبداً على أمور كهذه. الأمر الذي لم أرده بأي شكل من الأشكال كان تجميله.

أتريد أن تعرف ما الذي أشعر حياله بالذنب حقاً؟ لا أشعر بالذنب لأنني بقيت متكتماً خلال أربعين عاماً عن أمر كنت قد قلته سابقاً، بل إنّ أكثر ما يؤلمني (وللمفارقة لم ينتقدني أحد بسببه) هو كل ما لم أفعله وكان في وسعي فعله خلال تلك المدة. فحين قتلوا عمي في بداية الحرب، وحين أخذوا أحد زملائي في الصف وأحد مدرسيّ من المدرسة، وحين اختفى أيضاً جندي من أتباع الكنيسة بعد رفضه حمل السلاح... لم أحرك إصبعاً من أجل أحد. لم أطرح أي سؤال، ولم أرغب برؤية ذلك، لم أرغب بالمعرفة. قتلوا أشخاصاً عرفتهم، أو حملوهم إلى المعسكرات فيما غضضت أنا النظر. أتلاحظان ذلك؟ هذا أكبر ألم أحمله، ألم لن يغادرني إطلاقاً.

- يقول البعض إنك لم تعد المرجعية الأخلاقية للألمان.

- يسرّني ألا أكون هكذا. منحتني الصحافة بشكل مضحك لقب ضمير الأمة، كما فعلوا سابقاً مع هينريك بول، لكن الأمر الوحيد الذي فعلته وأفعله هو أنني ببساطة أمارس دائماً حقّي في حرية التعبير. أما الآن فالصحافة ذاتها، عبر حملة شنيعة متعمّدة، سحبت مني اللقب الذي منحتني إياه، وهو مصدر سعادة لي.

- لكن، ماذا يوجد خلف انتقاداتك السياسيين أو القضاة أو العسكريين ذوي الماضي النازي؟

- إنهم سياسيون راشدون شغلوا مناصب مرموقة في منظمات مميزة في السلطة النازية. وفي بعض الحالات، خانوا الجمهورية الديمقراطية السابقة: موظف هام في قسم الدعاية، أو مشجع على

القوانين العرقية... أهو الأمر ذاته بالنسبة إلى صبيّ مثلي كان عمره ست سنوات حين وصل هتلر إلى سدة الحكم؟ أيمعني هذا من انتقاد نازي كبير مثل كيزنغر؟ لماذا؟ تُنشر اليوم الكثير من السير الذاتية، مثل سيرة المؤرخ جواكيم فيست (المتوفى حديثاً)، حيث يصرّح أن الجميع معادون للفاشية. هذه محض ترّهات. اسمعاً، لقد أمر قاض عسكري - تابع عمله بعد نهاية الحرب - بقتل عمي فرانز الذي عمل كساعي بريد ولم يزجج أحداً. ترك عمي خلفه زوجة وأربعة أبناء في مثل عمري. سأنتقد دائماً هذا النوع من الأشخاص.

- أأثر فيك سيل النقد إلى هذا الحد؟

- فاجأني الأمر، وأنا في منزلي في الدنمارك. كنت أرسّم كعادتي دائماً حين أنهى كتاباً ما، وهو أمر لا أزال أقوم به، بالإضافة إلى كتابة قصائد حول كل ذاك الهرج والمرج. لم أستطع النوم، لكن الرسم وكتابة القصائد ساعداني، وفي أشد لحظات الأرق استسلمت، وأعدت قراءة تريستام شاندي، وهو كتاب كلاسيكي للورنس شتين هذأني كثيراً. من المذهل كيف قد يشفيك عمل أدبي هام. ولقد كان في حالتي تلك مسلّ جداً! إذ أعاد إليّ البسمة...

من القصائد التي كتبها صدر كتاب دومر أوغوست الصادر حديثاً في ألمانيا والذي يمكن ترجمته إلى العربية: غباء آب (الشهر الذي اشتدّ فيه الجدل) أو أغسطس الغبي نسبة إلى المهرج ذي الوجه الأبيض الذي يعمل في السيرك ويهاجمه الآخرون. موضوع كتابه الأساسي هو «زيف الذاكرة. كيف تكذب ذكرياتنا دائماً: تغير ترتيب الأحداث، وتعطي معنىً لشيء لم يكن له معنى، وتجمّل وتبجّل... لهذا، أكتفي بما فعلته، بالمظاهر المحددة، بشكل موضوعي. لا أرغب بتضليل أو باختراع أشياء عن ذكرياتي».

- ألهذا السبب تتحدث عن اغتصاب الجنود

الروس أمك من دون مظاهر كره؟

- أقصّ ما حدث. لم أعرف من أختي إلا أنهم قد اغتصبوها مرّات عدّة، قامت أمي بحماية

أختي التي كانت في عامها الرابع عشر قائلة للجنود: «خذوني أنا، ودعوا الفتاة بسلام». أكان في وسعي شرح الأمر بطريقة أخرى؟ لا أدري.

- ألا تذكر أنك كرهت أحداً يوماً؟

- لا. بالنسبة إليّ كان العدو فكرة مجردة. كنا صغاراً جداً، وكان مصدر معلوماتنا هو الدعاية. رغبتُ بالهروب من عائلتي؛ لأنها كانت تسبب لي الاكتئاب، ومن الشقة التي عشنا فيها كلنا في غرفة واحدة، ومن الحمام الذي تقاسمته أربع عائلات في الطابق الأوسط؛ أردت هجر الفقر. حلمت بأن أصبح بطل حرب، وذلك بإغراق القوارب، أو بتفجير الدبابات المعادية، أو بإسقاط طائرات الحلفاء التي قامت بهجمات إرهابية. لفت ارتداء الزي الأنظار إليّ، وزاد من قوة الأنا الداخلية لديّ. فحين لا ألبسه، كنت أشعر بالخجل من ربّتي ساقّي ومن جوربي.

- أقتلت أحداً؟

- لم أبحث يوماً عن هدف بجهاز التسديد، ولم أضغط يوماً على الزناد، لكنني عشت أسبوعاً واحداً فحسب من الحرب الحقيقية في ميدان المعركة. ولم يكن السبب في ذلك تميّزي بأي شكل.

أفرغ الغليون في المنفضة قبل أن يملأه من جديد بالتبغ. ويتذكر قائلاً: «لطالما وعدتُ أمي أن أصبح فناناً مشهوراً. لم أذكرها حين سلموني جائزة نوبل وأنا مسنّ جداً، لكنني تذكرتها حين قرأت مقاطع من الطبل القصديري، ومنحني الزملاء الكتاب جائزة قدرها 4500 مارك، وهو أمر مهم جداً، أهم بكثير من جائزة نوبل لأنني يومها كنت أعيش في باريس، وكنت فقيراً جداً، أكتب في قبو موبوء جعلني أصاب بالسل، وقد سمح لي هذا المبلغ بمتابعة الكتابة. حصل هذا بعد وفاة أمي بأربع سنوات فقط. وعندها، كان في وديّ حقاً لو وجدتُها معي».

غراس هذا نفسه يجلس مباشرة ليتفاوض مع ناشره الألماني - الذي تخيله أكثر استياءً من عائلته الكئيبة - والذي يطالب دائماً بمزيد من النقود له. «منذ السبعينيات، فرضتُ على ناشري أن ينظم اجتماعاً في ألمانيا لكل مترجمي إلى لغات أخرى



القضية: الذاكرة التاريخية

«أثارت فضولي كثيراً ردود فعل القراء الإسبان تجاه مذكراتي. لقد عشت تجربة تاريخية تشبه النازية: حكومة فاشية سيطرت على المجتمع بأكمله. لاحظتُ أنكم لا تزالون تتجادلون بشأن الحرب الأهلية وهذا يبدو لي جيداً. إذ إن للشباب الحق في معرفة كيف أمكن تدمير كل هذه الحيوانات والضمائر. لا شك في أن تاريخ إسبانيا سيلاحقها. لا يزال لديكم في مدريد وادي القتلى، أليس كذلك؟ ذاك النصب الضخم الذي جعل فرانكو آلاف السجناء يبنونه تحت ظروف فظيعة ليمجد حكمه، ومع ذلك يقصده السياح. أجد هذا... غريباً، بل غريباً جداً؛ لا أعتقد أن هذا سيحدث في بلد أوروبي آخر.

كل ذلك سيعود، وستجدون بشأنه شاءوا أم أبوا، مثله مثل العدد الكبير جداً من المحكوم عليهم بالإعدام لسنوات وسنوات بعد الحرب الأهلية. نسمع في ألمانيا كل فترة سياسيين ومؤرخين يقولون: حسناً، علينا أن نفتح صفحة جديدة وننسى الماضي. وهم مخطئون دائماً. الماضي يعود دائماً».

كلما كتبت كتاباً جديداً، فأعيش معهم بضعة أيام، وأشرح لهم نقاط القوة في الرواية واللغة التي ترافقها، وهم يسألونني عما يحيرهم... أؤكد لك أن نوعية ترجماتي قد تحسنت بشكل ملحوظ. لا أعرف لماذا لم تنتشر هذه الطريقة».

تذكر صحيفة اليوم أن ريتشارد كابوشينسكي متهم بالتعامل مع مخابرات بولندا الشيوعية. غراس المولود في غناسك، التي كانت حينها مدينة ألمانية وهي اليوم بولندية، يؤكد قائلاً: «إنّ حمى ملاحقة الشيوعيين التي سببها الأخوان كازينسكي عودةً للوقوع في أسوأ مراحل تاريخ بولندا، وهي تعني استعمال الطرائق نفسها التي يتبعها الديكتاتورون تماماً. ويا لها من حماقة! فهو الأمر نفسه الذي يحصل في ألمانيا: يلوحون مهديدين بأرشفيف الستازي (جهاز أمن الدولة في ألمانيا الشرقية سابقاً)، تلك المخابرات الشيوعية المخيفة، كما لو كانت الحقيقة المطلقة. بالله عليكم! هناك أشخاص يصدقون تلك الأوراق تصديقاً أعمى، وينسون أنها معلومات غير صحيحة صادرة عن واثين دنيين في كثير من الأحيان».

يمضي غراس بعض الوقت في بولندا مرة كل سنتين على الأقل منذ العام 1958، كما يقول: «لأنني واحد من أربعة عشر مليون ألماني فقدوا مسقط رأسهم بسبب الحرب. أفضل إنجازات ما بعد الحرب كان استقبال ملايين اللاجئين. في كلتا الألمانيتين سُنت قوانين تجبر العائلات على إيوائنا. لطالما شعرتُ بارتباط شديد ببولندا، ومن واجبي المساعدة على الاحتجاج ضد هذه الحكومة. لمستُ في إسبانيا كذلك صعوداً خطيراً للتعصب الكاثوليكي الذي يريد التدخل في السياسة».

لا يزال رأي غراس في السياسة على حاله، وهو يحتفظ بانتقاداته حول اتحاد الألمانيتين: «جاءت الحقيقة أسوأ مما توقعت. لم أعارض الوحدة الألمانية، لكنني عارضتُ أن تُسبب تلك الوحدة تبعيةً واستغلال ستة عشر مليون شخص من قبل الرأسمالية المجاورة. كان على كل ذلك أن يتم بطريقة أكثر حذراً وبطئاً، وعلى قاعدة من الفيدرالية. اقترحتُ

تحالفاً بين الحكومتين الألمانيّتين، فوصفوني بشتى الأوصاف؛ ألطفها خائن... ولكن ما الذي حدث اليوم؟ معدلات البطالة مرتفعة في الشرق، وتسعون بالمئة من الملكيات الثابتة وأراضي جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة أصبحت بيد ألمان غربيين! هذا رهيب...».

«نقول إن أعداء الديمقراطية هم اليمين المتطرف واليسار المتطرف... لكنكم في الحقيقة تستطيعون أن تلاحظوا أن ما يسلبنا حرياتنا حقاً هو المصانع الكبيرة والبنوك... قوى تتصرف بنجاح فوق السلطة التشريعية. هناك شركات تطرد موظفيها فيما نشاطاتها تزداد. وهذا انحراف فاضح اعتدنا عليه، كما تحدّد هذه الشركات كيف يجب أن تكون القوانين. يقبل السياسيون ابتزاز أصحاب الشركات؛ فهم إذا لم يعيروهم اهتماماً، يهددونهم بنقل مصانعهم إلى الخارج، وهذا يخيفهم. كان من الممكن لتحالف كبير أن يقاوم هذا، لكن ذلك لم يحصل».

قبل الوداع، قال لنا غراس: «لم ألتق يوماً هذا العدد الهائل من الرسائل التي وصلتني بسبب هذا الكتاب. أتعرفان ماذا يقولون لي؟ إنهم تمكنوا وأخيراً من الحديث عن الحرب مع أحفادهم وأجدادهم... هذا يفوق كل جدل في نهاية المطاف. يجب أن نتكلم، حتى عن أكثر ما قد يصدّم، ونُخرج كل شيء. أعرف أنني لم أتمكن من فعل ذلك قبل الآن، لكنني سعيد جداً بقيامي بذلك. لم أشعر بالراحة وأنا أتحدث مع الشاب الذي كنته، لكنني أجبرتُ نفسي على فعل ذلك. لن يتجاوز جيلي يوماً هذا الموضوع، ولن نصل يوماً إلى نقطة النهاية. أؤكد لكما أنني سأتابع الكتابة عن الموضوع. لن أغلق فمي، وعلى أعدائي تحمّل ذلك».

نجيب محفوظ



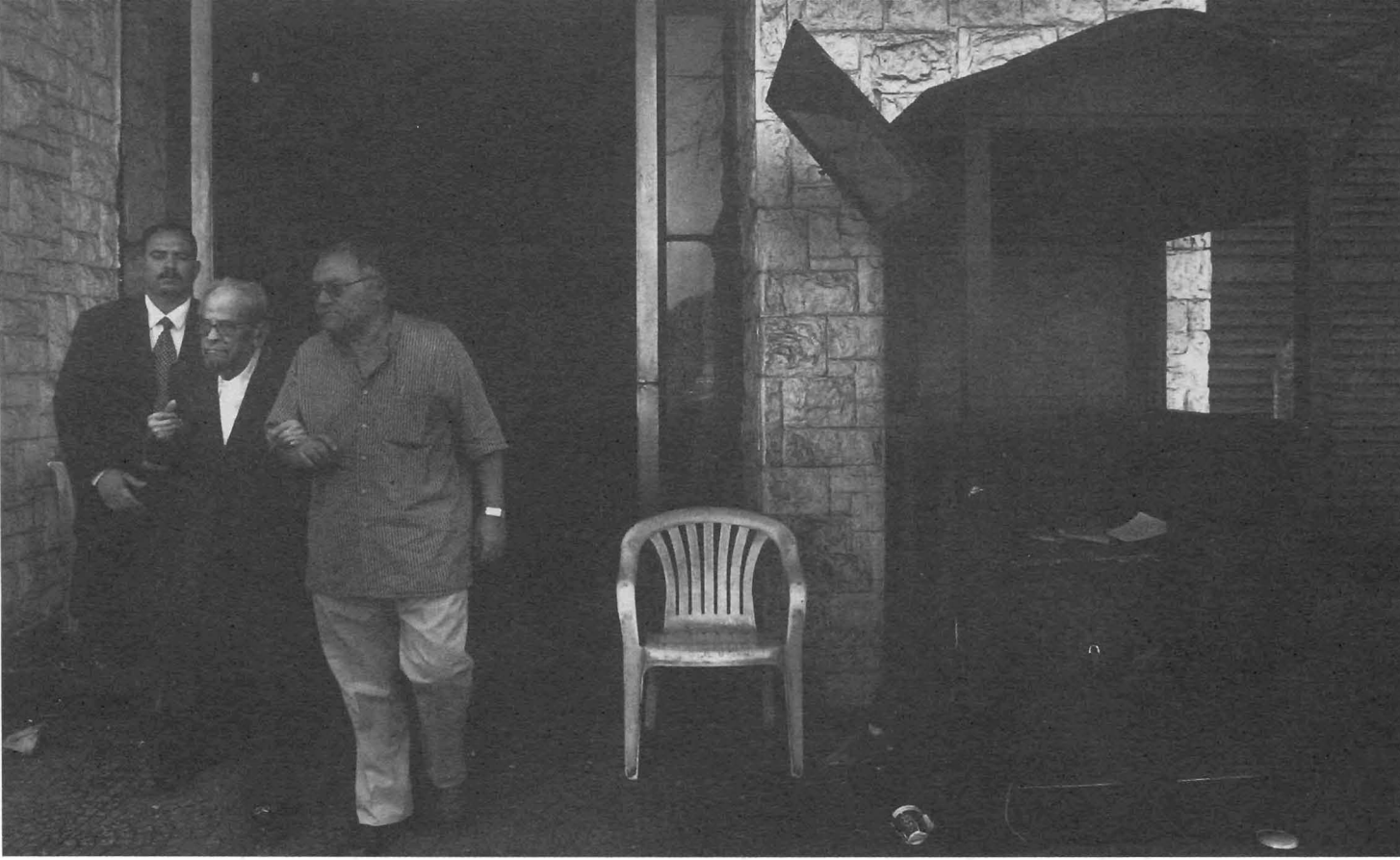
”لم يعد فيه وسعي القراءة ولا
الكتابة، لكن أصدقائي هم
عيناى وأذناى وریشتيى“.

حمل نجيب محفوظ مقاهي القاهرة
ودوائرها الاجتماعية إلى العالم أجمع،
وخاصة العالم الغربي الذي اكتشف الرواية
العربية من خلال أعماله. بعمره الذي
يناهز الخامسة والتسعين يعيش نجيب
محفوظ مع آثار هجوم رجعيٍّ، أعمى وشبه
أصم، ولكنه لا يزال يتردد على دوائره
الاجتماعية في مقاه أخرى أكثر أماناً،
ويعير أحلامه حالياً انتباهه، فيصطادها
ليحولها إلى نصوص قصيرة؛ نوع جديد من
الأدب. يقول محفوظ إن الرجعيين الذين
لطالما كرهوه يخسرون المباراة.



عنه». بعد الفطور، يستقبل صديقه السيد صبري الذي يقرأ له الصحف اليومية وبعض الكتب. كان الأمر بمثابة صراخ في أذنه أكثر منه قراءة، كحال السيد سلماوي خلال مقابلتنا. في ما بعد، وحين ينتهي من تناول الغداء، يخرج محفوظ إلى الدوائر الاجتماعية، ليتحدث مع أصدقائه؛ وهم مجموعة مختلفة كل يوم (مع أن بعضهم قد يتكرر دورهم) في مقاهٍ وفنادق مختلفة في المدينة، ويبقى كذلك حتى العاشرة ليلاً. لا شيء يوقف محفوظ الذي سيحتفل بذكرى مولده الخامسة والتسعين. هو أعمى وشبه أصم ولا يستطيع الحديث لوقت طويل من دون توقف. تتضمن نشاطاته اليومية جلسات علاج فيزيائي ثلاث مرات في الأسبوع. كيف كانت ستصبح حياة نجيب محفوظ لولا الطعنة التي تلقاها مساء الرابع عشر من أكتوبر 1994؟ في ذلك اليوم، بعد خروجه من منزله، هاجم الكاتب رجعيّ تمكّن من طعنه بسكين في عنقه. بقي حياً لأن الصديق الذي كان يرافقه في تلك اللحظة كان طبيباً، ولأن الهجوم حصل قرب مستشفى. ومنذ ذلك الحين، يحمل محفوظ آثار ذاك الهجوم، حيث

لا يستطيع نجيب محفوظ رؤيتنا أبداً، ولا حتى سماعنا بشكل واضح. حين وصلنا إلى غرفة الطعام في شقته في القاهرة، استقبلنا بالجلابية والشيشب، فشدّنا على يده بحرارة لهنيئة، ليتمكن من تخمين التأثير والإعجاب اللذين يثيرهما فينا. وحين دعانا للجلوس، قدّمت لنا زوجته، ذات الأناقة الشرقية والحجاب الأزرق، الشاي مع حلويات مختلفة. شرحنا سير المقابلة لأحد أفضل أصدقائه: وهو الكاتب محمد سلماوي الذي ترجم له أسئلتنا إلى اللغة العربية، صارخاً على بعد عشرين سنتماً من أذنه بصوت مرتفع جداً. إن المشهد الذي يتكرر لأيام عدة (محفوظ المولود في العام 1911 يتعب من الكلام) أزاح هالة الوقار، على عكس ما قد يبدو. أشار ميزان الحرارة إلى 37 درجة. كنا في القاهرة؛ القاهرة نجيب محفوظ الصاخبة. كانت أيام الحائز على جائزة نوبل للأدب في العام 1988 تشبه بعضها بعضاً، فداثماً ما تنتهي بقرص دواء («أحتاج إليه لأنام»). فهو يستيقظ باكراً جداً في الصباح، وأول ما يفعله هو التركيز في ما يلي: «أحاول حفظ ما حلمت به، فلعلني أكتب



أحد الفنادق. وأخبرونا لاحقاً عن وجود عناصر عدة من المباحث كانوا يجوبون الحيّ (نشكّ في رجل توصيل البيتزا الذي كان يظهر بين الفينة والأخرى مع الحمولة نفسها). حين رأينا محفوظ، يسنده صديقه فتحي هاشم، وهو الطبيب الذي أنقذ حياته في العام 1994، استوعبنا رمزية هذه الزهرة اليومية وكأن مشية الكاتب البطيئة تصرخ: «أتريان؟ لم يتمكّن مني الإرهاب، فما زلت أذهب إلى الحلقات الاجتماعية».

احتفالاً بالصدقة

لم يغير الاعتداء إلا مكان الاجتماع؛ لأجل الأمان، إذ توجب استبدال كازينو الأوبرا وقهوة ريشة وقصر النيل... بأماكن أكثر أماناً. اليوم دور مقهى نابليون، الموجود في أحد طوابق فندق شيبارد الفخم. كان محفوظ والدكتور هاشم أول الواصلين. يحدثنا العربي الوحيد الحائز على جائزة نوبل قائلاً: «اضطرت إلى التخفيف من عدد سجائري. فبدلاً من تدخين ثلاث سجائر في اليوم... اقتصر الأمر على اثنتين». يتسم بخبث وهو يقول ذلك. يبدأ الأصدقاء

أصيبت يده اليمنى بالشلل. يقص محمد سلماوي قائلاً: «اضطر إلى التعلم من جديد كيف يمسك القلم كما لو أنه طفل؛ هذا الرجل الذي حصل على أهم جائزة أدبية في العالم! ولم يشكّ. في النهاية، وبعد الكثير من التدريب، تمكن من الكتابة نصف ساعة في اليوم، ولو أن خطه لم يعد إلى وضوحه السابق». يعرض علينا محفوظ بجديّة خطه الحالي. إذ يستطيع كتابة بعض الجمل القصيرة فقط أو توقيع الكتب.

يبدو كخطّ طفل. مررنا في الصباح بأزقة وأسواق ومقاهٍ تقليدية موصوفة في أعمال محفوظ (الذي ينبهنا إلى أنه «من غير الضروري أن تزورا هذا، فهو الآن مطعم حديث»). عند المساء رافقناه إلى دوائره الاجتماعية الأسطورية في القاهرة. اليوم يوم أحد، ونحن بانتظاره أمام باب منزله، في المكان نفسه الذي طعنوه فيه. كان نشاط الشرطة واضحاً. ففي الشارع، كان هناك ثلاثة رجال من الشرطة، وكان شرطي آخر يقف في كابينة أمنية. كما كانت سيارة تاكسي مع سائق تنتظره قرب منزله. في حقيقة الأمر، كان السائق عنصر مرافقة، ومهمته أن يقلّه إلى

صامتاً معظم الوقت، غارقاً في ظلمته فيما الباقون يتحدثون. يبدو سعيداً، كما لو أنه يكتفي بمعرفته أنه محاط بالأصدقاء.

عرّف السينمائي دراز عن نفسه خمس مرات، لأنّ صوته الناعم واللطيف لم يصل إلى مسمع محفوظ. وكان صوت المهندس كفراوي الرخيم

بالوصول. قصد لقاء ذاك اليوم، صحيفة إيرلندية، بالإضافة إلى المخرج السينمائي عصام دراز الذي صور فيلماً وثائقياً عن الكاتب، والمهندس محمد الكفراوي، ومحرر في صحيفة الشباب... يعرفون عن أنفسهم صارخين إلى محفوظ الذي يومئ برأسه أو يبتسم أو يباشر حديثاً، حسب الحالة. إلا أنه يبقى



كامل ذي معنى». هذا هو سبب كون كتب المؤلف الأخيرة عبارة عن مجموعة قصص قصيرة جداً، من صفحة واحدة غالباً، بل لعلها أقل من ذلك. «أفطر كل جملة وفكرة حتى أعثر على جوهرها. بعض النقاد شبهوها بالهايكو، لكن الذين يكتبون هذه القصائد اليابانية لديهم حرية اختيار الشكل الذي يفضلونه. أما في حالتي فالحاجة هي التي اضطررتني إلى الاختصار. لا أستطيع إلا كتابة القصص القصيرة، المركزة. ولا أستطيع الاستمرار لأكثر من نصف ساعة لأنني أعجب، مع أنه يمكنني أن أمضي أياماً وأنا أفكر في الأمر». بالرغم من التواضع الذي يتكلم به عن أعماله الحالية، فقد كتب بعض النقاد أن محفوظ يخترع في مؤلفاته القصيرة نوعاً أدبياً جديداً. إن عملية تحديث المجتمع موضوع أساسي في أعماله، بالإضافة إلى اهتمام رجل الشارع بالتفكير الحديث والأفكار الأوروبية. «أجل، التحديث عملية طبيعية، فالحضارات تتطور تدريجياً وتفاعلها مع بعضها أمر أكيد الحدوث. لا يمكننا تجاهل حضارة أخرى لأنها كلها تتمتع بشيء من الإنسانية. المصري منفتح بطبيعته، وموقعنا الجغرافي بين القارات القديمة الثلاث سمح لنا بتفاعل مستمر مع الثقافات الأخرى. طبيعة المصري هي التسامح، فهو بطل حضارة لم تغلق أبوابها يوماً أمام غيرها من الحضارات التي مرت فوق أرضها على مر التاريخ». صديقه المسرحي والصحفي ورئيس اتحاد الكتاب سلماوي هو من يدفع محفوظ لينشر مقال رأي أسبوعياً في الصحافة. يشرح سلماوي قائلاً: «أجيء لرؤيته كل نهار سبت، فأقترح عليه موضوعاً ما ونباشر حواراً، فأطرح عليه الأسئلة في بعض الأحيان، وفي بعضها الآخر لا أجد حاجة إلى ذلك لأنها تخطر بباله كلها». قبل فترة، حصل هجوم إرهابي ضد سياح في شبه جزيرة سيناء، وهو ما عزز الشعور المتنامي بأن خطر الإسلام حلّ مكان التهديد الشيوعي. يقول محفوظ مصدوماً: «كيف يمكن أن يعتقد بعضكم أن الإسلام تهديد؟ ليس أمراً صحيحاً نعت هذا الإرهاب بالإسلامي، مثلما لا تجوز مناداة العنيفين في الغرب بالمسيحيين».

أفضل بكثير، وقد أحضر له هذا دزينة قصاصات من جرائد الأسبوع الأخير، وقال: «لنعلق على اللعبة يا نجيب». وهكذا، تحدّث محفوظ وكفراوي عن نتائج كأس العالم لكرة القدم، عن دور جيرمي آدامز في السلام في إيرلندا، عن الصراع بين فتح وحماس في فلسطين، وعن تزايد المتدينين المتشددين في البلاد. مرّ المساء مع الكولا وأكواب الشاي (لا أحد يتناول المشروبات الكحولية)، وتحوّل إلى احتفال بالصدقة. قال لنا محفوظ في اليوم التالي: «هذا صحيح، الصداقة في هذه المرحلة من حياتي هي أكثر ما يهم، فمنها أحصل على الدعم والقوة اللازمين لأعيش، يوماً بعد يوم. لم يعد في وسعي القراءة ولا الكتابة، إلا أن أصدقائي هم عيناى وأذناى وريشتي. لولاهم لكانت هذه السنوات هي الأسوأ في حياتي. عجزى يعزّلي عن العالم، لذلك عليّ سؤالهم عن آخر الأخبار في مجالات الكتب أو الموسيقى أو الفن. المعلومات القليلة التي أحصل عليها من ذلك مهمة جداً لصحتي النفسية والجسدية». مُجمّع الشقق التي يعيش في إحداها محفوظ إلى جانب النيل (حيث يقطن من قبل أن يستلم جائزة نوبل) لا يبدو فائراً أبداً، والمنطقة تشبه أي حي إسباني من الطبقة الوسطى، مع أن الواجهة الإسمتية متسخة، وأجهزة التكييف التي يعلوها الغبار تبدو وكأنها مصدر خطر على المارة، إلا أن الحي من الداخل يدلّ على اختلاف ساكنه: الزينة الأنيقة، والأصص المليئة بالزهور، والبسط على الجدران، وقطع مختلفة من الأعمال اليدوية...

كيف يكتب محفوظ حالياً؟ «أفكر في قصة، ثم أحفظها وأملئها على أحدهم». يعمل حالياً على رواية أحلام النقاها، وهي عبارة عن قصص قصيرة تُحيط بتجاربه في الأحلام. يعلق قائلاً: «هذا يلائم حالتي الصحية، فالأحلام تأتي من دواخل الأشخاص، وليس من الضروري أن تسمع أو ترى للإمام بها كاملة. هذا ما يمكنني فعله الآن، إذ لا أحتاج إلى أن أعيش تجارب أخرى، لأنني أعيش تجربة داخلية. أرى حلماً، وأعيشه كحقيقة، وبعدها أحوله إلى ما يشبه الرواية؛ إلى أمر

«الدين الحقيقي يشكل هدف الإنسان النهائي. لكن، هناك من يفسر الأمر بطريقة مغايرة للوصول إلى مآربه الخاصة. هذه الهجمات هي من عمل الإرهابيين الذين يريدون أن يؤذوا السياحة والاقتصاد في مصر، لكنهم لن يتمكنوا من ذلك، لأن السياح لا يزالون يأتون كما لو أنهم اعتادوا على الأمر». وعن أسباب العنف، يبدي حذره قائلاً: «إنَّ الرِّغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية أو السياسية لا تبرر الإرهاب، مع أنها في الحقيقة عاملاً هاماً في أصل الظاهرة. والغرب أيضاً مسؤول عن ذلك إلى حدٍّ ما، وهو أمر يقلقني، لكنني أعتقد أنه سيتهي. يجب ترك المصريين ليحلوا مشاكلهم بأنفسهم: فكلما زادت العدالة والمساواة في البلد، كلما ضعف التعصب كثيراً».

تحدّثنا عن روايته أولاد حارتنا التي نُشرت في بيروت ولم تُنشر أبداً في مصر. قرأنا في مصادر عديدة أن محفوظ تقرب من السلطات الدينية ليتمكن أخيراً من نشر كتابه في بلاده. وقد نفى قائلاً: «على الإطلاق. لم أتصل يوماً بالأزهر، وإليكم ما حدث: في العام 1959، أخبرني المسؤول عن الرقابة أنه من غير الممكن طباعة الرواية في مصر، لتجنب شكاوى الأزهر، لكنه قال لي أيضاً إن أي دار نشر أجنبية ستقبل بنشره، وإنه لن يسمح بنشر أي نقد سلمي في الصحافة المصرية. وهذا ما حصل. مؤخراً، وبعد طرح فكرة طباعتها في مصر من جديد، قلت إنه علينا الحصول على موافقة الأزهر لنقوم بذلك. لكنني لست على صلة بهم، وأعتقد أنه لا يتوجّب على أي مؤلف أن يطلب إذن أي سلطة لينشر أعماله».

من جهة أخرى، «أعرف أن الرواية لا تعادي الدين، وأنا لا أعتبر نفسي كافرًا. وفي حينها، كنت مستعداً للدفاع عن الكتاب أمام لجنة دينية كان يفترض بها أن تجيء إلى منزلي، لكنها لم تأت يوماً. فللمفارقة، كان هذا الكتاب ينتهي بانتصار الإيمان، وأعتقد أن أي قاض عادل كان سيسمح بنشره، لكنني الآن أشدّ تعباً من أن أدافع عن نفسي». الحق أن رواية أولاد حارتنا هي السبب في الاعتداء عليه في العام



القضية: ضد التشدد

نجيب محفوظ هو عميد الكتاب والمثقفين المصريين الذين يحاربون تصاعد التعصب في مصر، والذين يدافعون عن وجود دولة علمانية تتجاوز حدود خيارات مواطنيها الدينية. هو رمز للصراع ضد التعصب، ومُدافع عن الديمقراطية وعن تحرر المرأة، ولا يعتقد أن التشدد يفوز باللعبة. على سبيل المثال، «المرأة تزداد تحرراً يوماً بعد يوم. في بدايات القرن الماضي خضعت كلياً للرجل، لكن وضعها أخذ يتحسن مع كل جيل جديد. واليوم لدينا وزيرات وسفيرات ورسامات... نعيش تحرير المرأة». في العام 1994، حاول المتشددون اغتياله، في الوقت الذي جاء فيه وفد رسمي من جماعة الإخوان المسلمين قبل شهر لتهنئته بذكرى ميلاده. «قالوا لي إنهم يرحبون بالأدب والإبداع. هذا تقدم إيجابي بالرغم من خلافاتنا، لأنهم يكتشفون أن هذا المجتمع لا يقبل بعض الأمور، وأن الطريق الوحيد هو النظام البرلماني والأساليب السلمية».



باللغة الثالثة. هو متواضع بطبيعته، يقص علينا صديقه كفراوي ما يلي: «في أحد أيام العام 1988، قبل النوبل، هكذا، كما هو حالنا الآن، وأخذنا نتحدث عن هيمينغواي وفولكنر. اعتبر نفسه أدنى منهما مكانة بكثير، فغضبت وقلت له يا سيد محفوظ! نحن أيضاً ورثنا كل هذا التراث في اللغة العربية! لست أقل منهما شأنًا، وعليك أن تحترم نفسك أكثر! فصمت... وبعد أسبوعين نال جائزة نوبل! شعرت بالسعادة كثيراً لأنه ضمن المجموعة نفسها كان هناك من قللوا من شأنه؛ الأمر الذي تغير لاحقاً». حتى اليوم، يبدو لمحفوظ أن هناك مؤلفين عرب آخرين يستحقون الجائزة: «من القديم: طه حسين، وعباس محمود وتوفيق الحكيم. لدينا أيضاً جمال الغيطاني من الجيل الحديث، إضافة إلى الشاعر الفلسطيني محمود درويش، والسوري أدونيس... وآخرين لا أذكر أسماءهم أو لا أعرفها، بما أنني لا أستطيع القراءة منذ سنين، وقد ضاع على الجيل الأكثر حداثة». نسأل محفوظ قبل أن نودعه بيوم: أتفكر في الموت؟ وبعد صمت يجيبنا: «الحقيقة أنني أعتاد عليه، فأنا قريب منه إلى حد أنني أستطيع رؤية وجهه أحياناً، وهو لم يعد غريباً بالنسبة إلي».

1994. «لا أعرف ما الذي جال بذهن المعتدي؛ لا بد من أن سادته أقنعوه أن ذاك الكتاب يهين الإسلام، وهو أطاعهم ببساطة. فلقد أكد في تصريحاته أمام السلطات أنه لم يقم حتى بقراءة الرواية».

- ماذا تذكر عن الاعتداء؟

- لا أذكره. لو كان في وسعي رؤية الشاب الذي هاجمني، أو تذكر أنني مددت يدي لأصافحه معتقداً أنه معجب (قالوا لي إن هذا ما فعلته)، فقد أصاب بالأذى. لا أذكر إلا أنني استقلت السيارة وحسب. وإن عدم تذكري التفاصيل المزعجة نعمة ربّانية.

أحاديث المغرب كتاب حِكَم وقصص رمزية اعتبرته نادين غورديمر الجنوب إفريقية أثمن من سيرة ذاتية، لأنه وسيلة لمعرفة من الداخل.

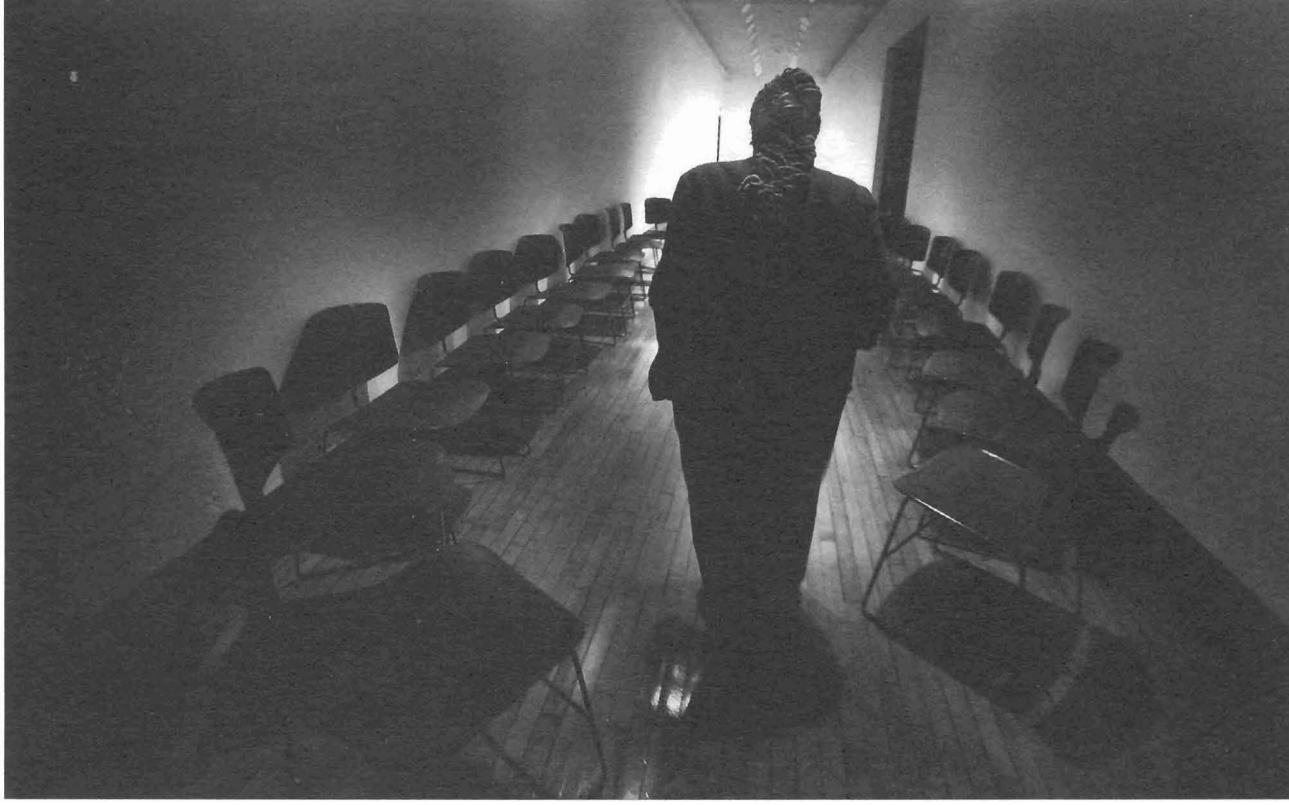
أديباً، وضع محفوظ اللغة العربية على الخارطة العالمية برواياته التي يزيد عددها على الأربعين رواية، وقصصه الثلاثمئة والخمسين ومسرحياته الخمس. في الحقيقة، إن أعماله وحدها دفعت النقاد الغربيين لقبول وجود رواية عربية من دون نقاش، كما توجد الرواية الروسية والفرنسية. قبل محفوظ، لم تكن هناك إلا لغة أدبية قديمة، واللهجة المحلية؛ وهو من أوجد ما يسمى

نوبي موريسون



«لا تزال العبودية موجودة».

بالنسبة إلى أوروبي عادي، يكفيه التنزه في شوارع نيويورك ليشك في أن في الولايات المتحدة مشكلة عرقية. لكن الأمور تتغير في الواقع. فتوني موريسون - إضافة إلى كونها آخر أميركية على قيد الحياة حائزة على جائزة نوبل - هي الشاهدة الأدبية الرئيسة على كل التغييرات التي حدثت وتحدث.



شقتها الفخمة ذات الطابقين في تشانباتاون الذي شغلته قبلها قوى الشرطة. لقد صدرت مؤخراً الترجمة الإسبانية لروايتها الجديدة نعمة. ولقد طالت مدة المقابلة التي أجريناها معها بعد عدة أيام في حرم برينستون الجامعي القريب، حيث تلقي محاضراتٍ وتملك منزلاً آخر. موريسون شخصية تحظى باحترام كبير في الولايات المتحدة. فالناس يستوقفونها في الشارع، ويعانقونها، ويحكون لها عن همومهم الشخصية، كما لو كانت تعرفهم طوال حياتها («لم أعد أعجب زوجي كثيراً، أتعرفين؟»). صوتها وحركاتها تفيض ثقة بالنفس وأنوثة. قالت لنا في اليوم الأول في المحادثة التي أجريناها معها في الاستوديو خاصتها: «لا، لا تلتقطا لي الصور الآن! انتظرا حتى حفلة نهاية العام في الجامعة، لو سمحتما. عندها سأتألق وأتجمل».

موضوع العبودية من المحاور الرئيسة في أعمال موريسون، مع أنها لم تتحدث عنه منذ العام 1987، حين نشرت عزيمة، فشرحت قائلة: «في ذلك الوقت، أردت أن أظهر كيف حولنا ذاك النظام جميعاً إلى منزلة دون بشرية. أرغب الآن بالتشكيك في أسطورة هذا البلد؛ قصة الحوريات

السيدة التي تنظف الغرفة في فندقنا في منهاتن تدعى برليندا وهي من العرق الأسود. تمر بالمكنسة الكهربائية على الموكيت بينما تستمع إلى فرقة بلاك آيد بيز عبر الآيبود. وعبر النافذة يمكننا رؤية جماعة من ستة رجال ينامون كل ليلة في الشارع ملتجئين إلى أحد المداخل. كلهم سود. في الكشك، تُعرض عدة مجلات سوداء، أي أن كتابها سود يتحدثون عن مشاهير السود: الرياضيين والمذيعين والممثلين والسياسيين...، وهم وحدهم الذين يظهرون في الصور، كما لو وُجد عالم خاص بالزواج. بالنسبة إلى أوروبي عادي، يكفيه التنزه في شوارع نيويورك ليشك في أن في الولايات المتحدة مشكلة عرقية. لكن الأمور تتغير في الواقع، ورمز ذلك كله سيدٌ يظهر كل يوم على شاشة التلفاز أهدوه كلباً لتوهم. إنه رئيس البلاد، وهو أسود أيضاً. روايته المفضلة هي أغنية سلمون التي كتبها توني موريسون (لورين، أوهايو، 1931) في العام 1977. لم تقرأ برليندا أعمال توني، لكنها تتحدث عنها بإعجاب. هذه المؤلفة - إضافة إلى كونها آخر أميركية على قيد الحياة حائزة على جائزة نوبل - هي الشاهدة الأدبية الرئيسة على كل التغيرات التي حدثت وتحدث. استقبلتنا في



المفعول في بلادنا، فتخلد تقسيمات تناقض حقيقة الديمقراطية. ليس التمييز العرقي طبيعياً، بل إنه أمر سياسي تشكل ليخدم مصالح معينة».

كانت هذه اللحظة التاريخية السابقة لتشكل الولايات المتحدة، بل السابقة حتى لتنظيم المستعمرات الأوروبية، تثير اهتمام موريسون لأنه، كما قالت: «كان هناك استقبال مستمر للوافدين، وحركة بشرية ضخمة، ومدن ما انفكت تغير اسمها وفق جنسية سكانها، فيما نشأ غيرها من العدم. كان كل شيء يتأرجح، وتشكل فيضان من الناس القادمين من كل حذب وصوب، تجذبهم المصادر الطبيعية، كالذهب والطبيعة الخيرة، والغابات بأشجارها المثمرة والأسماك التي تقفز مباشرة إلى سلة الصيد. وفي هذه الحقبة، جاء البيض الوطنيون وهم في حقيقة الأمر عبيد كالسود تماماً. والفرق الوحيد بين العبيد السود وأولئك البيض، أن البيض تمكنوا من الهروب والاختلاط بين السكان، بينما قُبض دائماً على السود من جديد بسبب لون بشرتهم».

في هذا السياق، كان للديانات أهمية كبيرة. «من أين تأتي قوة الكنيسة في هذا البلد؟ أنا أربط الأمر بالفكرة الأميركية جداً الخاصة بالفردية: أسطورة أن

تلك التي تدور حول الولايات المتحدة في بداياتها. كان ينقصني الحديث عن أولئك الذين كانوا عبيداً قبل وجود الولايات المتحدة. في القرنين السابع عشر والثامن عشر، مثل هذا المكان نقطة التقاء لكل العالم، وجاء الناس من أنحاء المعمورة كافة، ولم تكن العبودية قد ارتبطت بالعرق الأسود بعد». بالفعل، يكشف الكثير من قراء نعمة وجود عبيد من العرق الأبيض لأن «العبيد كانوا هم المنبوذين، وذوي الفقر المدقع، والبائسين، والمنحوسين؛ بغض النظر عن لونهم، سواء أكانوا بيضاً، أو هنوداً أو سوداً. في ما بعد، فرّق التمييز العنصري بين الفقراء البيض والفقراء السود، وتشكلت طبقة دنيا جديدة هي طبقة العبيد، التي كانت أقل منزلة من أسوأ البشر. في أحد الأيام، تحول التمييز العنصري إلى قانون، ولكن في القرن السابع عشر عمل العبيد السود والبيض معاً في مزارع التبغ. وتمثلت مساهمة الولايات المتحدة بتأسيس تقسيم عرقي لمصالح سياسية، وعن طريق الفقراء البيض أنفسهم، نتجت عنه نصوص قانونية هدفها حماية الأغنياء، وفي الوقت نفسه السماح بوجود طبقة بيضاء فقيرة تنظر إلى طبقة فقيرة أخرى نظرة دونية. لا تزال شبكة الثقافة العنصرية هذه سارية



وتتحول مع الوقت إلى مهووسة إلى حد أنه لم يعد ما تشعر به حياً». جاكوب «هولندي يتيم يأتي إلى أميركا بالسفينة؛ إنه نموذج عن أولئك الأشخاص الذين قدمناهم على أساس أنهم من نهضوا بهذا البلد. هو شخص يحاول أن يعيش حياة ناجحة، لكنه يبغض العبودية والتجارة بالبشر، كما لو كان الشخص سلعة، فالأمر يبدو له شنيعاً».

حين أصبحت موريسون كاتبة، شعرت بأنها مكلفة بمهمة: «أن أعطي صوتاً لمن لم يحظوا به، لسود أميركا». وتجادل قائلة: «الجيل الأول لشعب مقموع يمثل أناساً صامتين دوماً، يتطور في داخلهم وعي للقمع، لكنهم لا يتحدثون عنه. الجيل التالي يتكلم قليلاً، ويبدأ بالإعلان عن انزعاجه، فينكسر الصمت بالأغاني مثلاً. في حالة الأميركيين من أصول إفريقية، هناك الكثيرون ممن كتبوا عن تاريخهم، لكن هذه الحقيقة لم تظهر في الروايات. وقد أسرني هذا التحدي، هذا الشعور بالقدرة على القيام به». ومع ذلك، فهي لا تكتب أبداً عن شخصية ذات طابع جماعي: «لا أحاول تعريف الأسود أخلاقياً، فليس هناك سود ذوو شكل معين. هناك سود طيبون، وآخرون سيئون، بعضهم كسالى وبعضهم الآخر

يعيش وحيداً، أن تصبح إنساناً صلباً، من دون عائلتك التي قد تهجرها لتعيش المغامرات. هذا أمر يشكّل جزءاً من مخيلة الأمة، وأبرز رموزه هو الكابوي. أنا ألاحظ ما يحصل حين يهجر الرجل زوجته. أي نوع من العائلات ينتج عن ذلك؟ تبقى المرأة من دون أي دعم وحدها مع الأطفال، وعندها تدق أبواب الكنيسة التي تقدم لها المساعدة، وتساعد على الانخراط في مجتمع ما».

بالنسبة إلى موريسون لا شك في أن «العبودية لا تزال موجودة، بالرغم من أنها لم تعد ذات طابع رسمي وقانوني، لكنّ هناك أشخاصاً يعملون من دون مقابل ولا يمكنهم أن يقرّروا ترك العمل. الحضارات العظمى (أثينا، وروما، وروسيا...) اعتمدت دائماً على العبيد، مهما اختلفت تسميتهم. ما يهمني شخصياً هو كيفية استطاعة هذا الجنس أن يساعد شخصاً ما ليتنبه إلى كثير من الأمور، بل حتى ليولد شعوراً داخلياً بالكرامة الكبيرة، بل بالحرية، منذ اللحظة التي يقرر فيها هذا الشخص ألا يصبح وحشاً كسيده». فلورنس، الشخصية الرئيسة في كتابها الأخير، «عبدة لا تعرف الحقيقة عن وضعها لأن سادتها يعاملونها بشكل جيد جداً. إنها شابة جميلة... وتقع في الحب.

عنصريّون، وغيرهم سعداء وآخرون متعبون... في الحقيقة، يحزّر النقاد مع مرور الوقت رواياتي بطريقة أخرى: إذ إنهم يكتشفون أن الموضوع العرقي ليس الوحيد فيها، وأنني أتحدث عن الحب، والمغفرة، والجنسية، والتغييرات في البنية العائلية، ومسائل أخلاقية وفلسفية». موضوعات عالمية وحيوية بامتياز، كما فعلت في رواية عيون زرقاء (1970) حين طرحت موضوع الاعتزاز بالنفس عند الناس المختلفين عن الآخرين. «حين كتبت ذلك الكتاب، كانت هناك نساء كثيرات من أصول إفريقية يشعرنّ بنوع من الخجل، واعتقدنّ أنهنّ قبيحات بالرغم من أنهنّ الجمال بحدّ ذاته، لأن الجميلة المثالية في هذا البلد هي الشقراء ذات العينين الزرقاوين. فلقد كنّ ينظرن إلى المرأة ويشاهدن أنفسهنّ سوداوات، ومتسخات. اليوم، أرى الفتيات السوداوات أكثر اعتداداً بالنفس بكثير، وأكثر اكتمالاً كأشخاص، ويمشين بقوة وبثقة أكبر».

بعد عدة أيام، استقبلتنا موريسون في حرم برينستون الجامعي، حيث يستمتع طلابها - وعددهم قليل إذ لا يتجاوز عددهم اثني عشر طالباً أبداً - بالإبداع في محاضراتها. لم تعد موريسون تدرّس الكتابة المبدعة، وإنما «برنامجاً أوسع للإبداع يتضمن مشاركة الفنانين والموسيقيين ولاعبي الأكروبات والراقصين والرسامين... لا أحب اعتبار الجامعة مكاناً لتدوين الملاحظات، وأفضّل أن يتواصل الشباب مع عالم الإبداع المهني. دعمهم يرون من هو الفنان بحق، ويتحدثون معه. من الرهيب أن تتمكن من الحصول على شهادة في الفنون من دون أن تحتك مباشرة بالمبدعين». يبدو طلاب موريسون مفتونين بهذه الفلسفة، وتبدو مدرستهم فخورة بهم، وترى فيهم «بعض التغييرات في المسألة العرقية؛ هؤلاء الشباب أكثر نضجاً من سابقهم. الشباب في مدن مثل نيويورك لم يعودوا يهتمون بالعرق، وهو أمر جيد. ولكن، لا تزال هناك هوة كبيرة تفصل بين الناس بسبب لون بشرتهم. وتكفي نظرة واحدة إلى الإحصائيات حول الفقر، والإجرام، والمستوى التعليمي».

أطلق على موريسون لقب مؤلفة أوباما، مع

أنهما لم يتبادلا الحديث إلا مرتين خلال الحملة الانتخابية. وقد أبدت حماسها بخصوص رئيس الولايات المتحدة قائلة: «بات انتخابه مثيراً، وأشار إلى بداية أمر جديد. إذ لم يصوت يوماً هذا الكم من السود في الانتخابات، فهم لم يشعروا يوماً بأنهم جزء من النظام».

بالإمكان استنشاق هذا السلوك الجديد في كل مكان، إنه حماسة تجتاح كل شيء. سيقوم أوباما بأمور لن تعجبنا. يزعجني كثيراً هذا التبجيل الذي يتشّدق به البعض حول شخصه، وهو أقرب إلى نظام فاشي منه إلى الديمقراطية. ولكن، في نهاية المطاف، إن مجرد فوزه عنى بالنسبة إلى الكثيرين اختفاء الخوف؛ إنه كالبدء من جديد». أدبياً، تقول عنه: «لو قرأنا مذكراته فسنتكشف أنه كاتب جيد، وهي موهبة لا يتحلى بها إلا قلة من السياسيين، لأنهم عادة لا يقرأون أدباً أبداً. أما هو، فبلى، لذلك تجده ممتعاً ومنظماً وحيوياً، يستعمل مجازات عميقة وياشر الحوار...». وتعترف قائلة: «لقد تأخرت في دعمه بسبب إعجابي الكبير بهيلاري كلينتون. أي شخص يتمكن من التغلب على بوش بدا لي جيداً. درست بتمعن المرشحين الديمقراطيين. وفي النهاية دعمته، لكنني لم أعتد على معايير عرقية ولا جنسية لأقرر، بل شجعتهم بسبب جهوزيته الكبيرة. لم يصوت الناس لأوباما لأنه أسود، بل بسبب ما اقترحه هذا الرجل».

- في الحقيقة، قلت مرة إن بيل كلينتون هو الرئيس الأسود الأول في التاريخ.

- فسر الكثيرون جملتي هذه بشكل غير صحيح. قتلها حين صُلب كلينتون ليس بسبب عمله على رأس الأمة، بل بسبب فضيحة جنسية مزعومة مع إحدى حاملات المنح في البيت الأبيض. قلت إنهم عاملوه كأسود في الشارع، وإنهم اعتبروه مذنباً لسبب واه، وبطريقة غير معقولة. قالوا إنه سيئ لأنه قام بهذا، وأنا سألت نفسي: وماذا في الأمر؟ أيجب أن يتحول وجود علاقة جنسية فموية في البيت الأبيض إلى موضوع نقاش قومي؟

- ألن يخيب أوباما آمالك؟

- آمل أن يخيبها بالطبع. لأنه لن يتصل بي يوماً ليسألني: توني، أفكر في القيام بهذه الترتيبات، ما رأيك؟ لا نعيش في عالم مثالي... عليه أن يحكم، وهذا يعني أن عليه التعامل مع الكثير من الناس: مع أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ. إذ لا يمكنه القيام بالأمور وحيداً، وأن يقول: حسناً، تأمين صحي للجميع. وانتبهنا، بل عليه أن يتحرك، ويناور، ويتحدث مع الكثيرين ويفاوض لتحقيق ذلك... هذا هو الحكم؛ عمل صعب ومعقد. باعتبار أنه لم يمض عليه في مقعد الحكم إلا بضعة أشهر، وأنه قد استطاع أن يحرك أموراً تحتاج عادة إلى عقد كامل لتتحرك، أعتقد أنه علينا رؤيته بشكل إيجابي.

- في كتبك، السود هم عمال وساقطات وسكّرون، والآن لدينا رئيس. يا له من تغيير!

- ها ها، لن تطلب مني أن أجيب عن سؤال غير ملائم إطلاقاً كهذا، أليس كذلك؟ أنا أهتم بهذه الشخصيات الاعتيادية، كاللصوص والساقطات لأنهم لا يظهرون في كتب التاريخ، كما لو أنهم لم يُخلقوا يوماً، وأنا أعيد إليهم الحياة.

الحب والشهوانية من الموضوعات الأساسية كذلك في أعمالها. «كتبت رواية حب (2003) لأميز بين أنواع الحب المختلفة: حب الأصدقاء، وحب الله، وحب الأبناء، وحب رجل ما... أنواع الحب كثيرة، وعلينا أن نكون حاذقين، وأن نعطي الكثير كي يزدهر حبنا، فالقرب الجسدي لا يكفي، أليس كذلك؟ وحدهم الأطفال يتمتعون بالحب الصافي، الصافي بحق. الكثيرون من شخصياتي أطفال، ولعل هذا هو السبب؛ إذ إنني أبحث فيهم عن هذه الطريقة الصافية في الحب. حاولت أيضاً من خلال الكثير من شخصياتي أن أجعل القارئ يتبّه إلى أنه لا يمكننا أبداً أن نسلّم أنفسنا كلياً إلى أحد كما يفعل البعض، كأولئك النساء اللواتي يكرّسن حياتهن بأكملها لحب رجل واحد؛ رجل في الكثير من الأحيان لا يستحق ذلك».

تحاول موريسون رؤية الجانب الإيجابي من الأزمة الاقتصادية، فتقول: «لقد عشت خلال أزمة



القضية: بلى، نستطيع

لم تشجع موريسون أوباما منذ اليوم الأول، فقالت: «أكثر من جرّب إقناعي هو البروفيسور كورنيل ويست المختص بالأديان الإفريقية - الأميركية وزميل لي هنا. لعله في البداية أمل بشخصية بين تشي غيفارا والفادي، لكنه في النهاية، اقتنع بأوباما الذي بدا أنه إنسان... لم أشجع يوماً أي مرشح سياسي، ولكنني بعد قراءة مذكراته، فكّرت في الأمر جدّياً، وقلت لنفسني: ابحتي عن المرشح الأذكي، رجلاً كان أو امرأة، أبيض أو أسود، صديقاً أو غريباً، ليخرجننا من الحفرة التي أوقعنا فيها بوش. بشكل عام، أعتقد أنه يقوم بعمله بشكل جيد. لسنا نحن الأميركيون وحدنا من يعتقد ذلك، فقد عاد قوياً من سفره إلى أوروبا، وحيّاه العالم بأكمله بودّ وارتياح. جلّ ما يقلقني هو أن الآمال عالية جداً، إلا أن الدرس الذي لقننا إياه الانتخابات الأخيرة هو أن التغيير يحدث حين يصوّت السود. لدينا من القوة أكثر مما نعتقد».

الثلاثينيات حياة بائسة بحق. كنا فقراء، ولا أتحدث عن مجتمع السود فحسب، بل عن مهاجرين من الأنحاء كافة. بالنسبة إلى الوضع الحالي، فالأمر الرائع هو أن الرأسمالية الضارية قد انتهت. انتهى كل ذلك. يبدو الأمر معجزة، فلن يصفق أحد بعد الآن لأشخاص يكسبون آلاف ملايين الدولارات في الأسبوع. هؤلاء لن يعودوا نماذج تُحتذى، فقد انتهت هذه المبالغ، لأننا لا نستطيع احتمال المزيد، وهو أمر جيد. يمكن لهذا البلد أن يبدأ من جديد».

حين تفكر في أبويها، تتذكر أنهما «وقائيان جداً، ويختلف أحدهما عن الآخر كثيراً، لكنهما كليهما يتمتعان بكرامة كبيرة. أشتاق إليهما كليهما، إلى تلك الثقة، والرغبة بالعمل الشاق التي أورثاني إياها، والاعتقاد بأنه بهذه الطريقة سيمسي مستقبلنا، ومستقبل أبنائنا أفضل. بعد الحرب العالمية الثانية، ازداد فقرهما، وحصلت بينهما النزاعات التقليدية في بيت يخلو من النقود. كان التمييز العنصري عندئذ قوياً جداً، ولأبي أفكاره المسبقة: لم يثق يوماً بأي شخص أبيض، وما كان يسمح لأحدهم بأن يدخل بيتنا، بالطبع. أما أمي فهي مختلفة جداً، وتحكم على الأشخاص كل على حدة، وليس بسبب العرق».

- كيف غيرتك جائزة نوبل؟

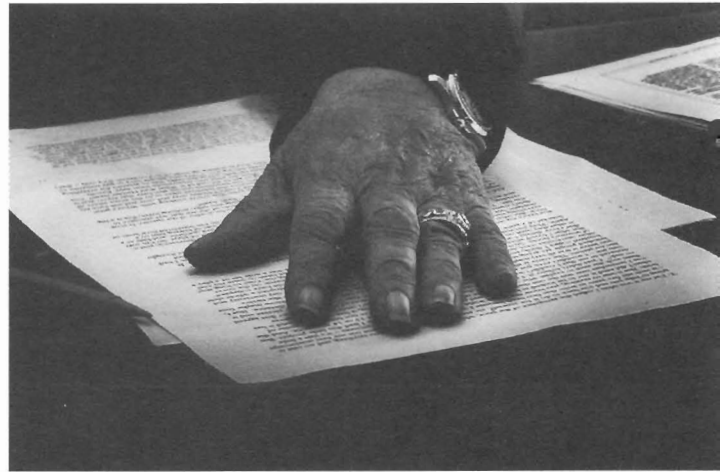
- التغيير الأول جاء في أمور سطحية كالمال. أفضل ما في الموضوع أنني وجدت اهتماماً أكبر بكثير بأعمالي وبي. لكن حياتي اليومية لم تتغير، ولا حياتي ككاتبة، فلا جائزة النوبل، أو أي شيء مما أعطتني إياه، يجعلني كاتبة أفضل أو شخصاً أحسن.

- من هي كلوي ووفورد؟

- إنها أنا، وهو الاسم الذي يظهر في ملفاتي، والذي تدعوني به عائلتي والأشخاص المقربون مني.

- إذاً، من هي توني موريسون؟

- معظم الناس يعرفوني بهذا الاسم، لكن الذين يعرفونني جيداً يدعونني كلوي. أما توني موريسون فهو، ببساطة، بمثابة لقب، وهو يخدمني لأفضل بين شخصية الكاتبة التي فازت بنوبل، والإنسانة الحقيقية؛ وهي المهمة».



في أس نايبول



«اليوم بشكل خاص علينا معشر
الكتاب جميعاً أن نحيط بالعالم
أجمع».

في أس نايبول، الحائز على نوبل في العام
2001، من أصحاب الأصوات اللاذعة،
والمزعجة في كثير من الأحيان، حين
يرمي بآرائه. كما أنّ انفصاله عن جذوره
ورحلاته الحذرة منحته رؤية صافية
وساخرة وعالمية يريد أن يحيط بها بالعالم
أجمع.





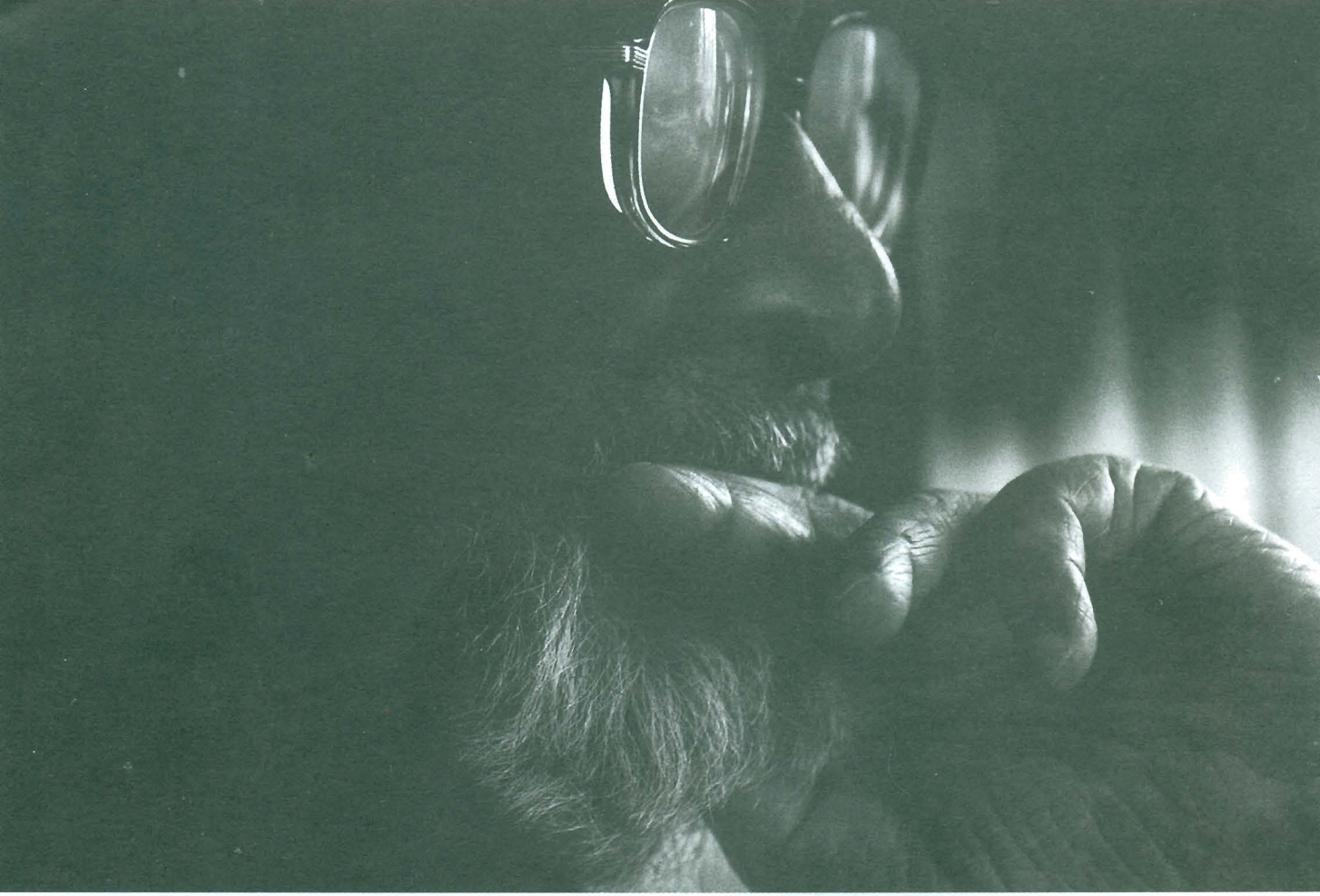
أوراق التسجيل في الجامعة: «التقطت عدة صور لنفسي. بالرغم من عدم جاذبيتي إلا أنني لست بشعاً. أبعدتني هذه الصور عن الخطأ الذي وقعت فيه. إذ لم أكن أعرف أن وجهي منتفخ إلى هذا الحد (...)» نظرتُ إلى الآسيوي في تلك الصور، وأدركتُ أن أي هندي من الهند لن يبدو هندياً أكثر مني (...) أملتُ أن أتخذ أمام شخصيات الجامعة وضعية لا تصدق لمثقف، ولكن لاحظ ما وصل إليهم».

- هل وجدت صعوبة في استحضار علاقتك بأبيك وسنوات الدراسة تلك التي عانيت فيها إلى حدّ إصابتك بانهيارات عصبية عدة ومحاولتك الانتحار؟
- عمل أبي صحفياً في جريدة ترينيداد غارديان، وشجعني لأصبح كاتباً. مات صغيراً جداً، في عمر السابعة والأربعين، لكنني أفضل ألا أتحدث عن ذلك. أعطيتُ موافقتي لنشر الكتاب، لكنني لم أشارك في شيء، إذ أعطيتُ وكيلتي صندوقاً من الرسائل وهو من اختار النصوص. لم أرَ النسخة الإنكليزية

تمطر السماء رذاذاً لطيفاً على سوق النباتات العشبية التي تغطي تلال الريف البريطاني وسهوله وهضابه من دون أن تترك فراغات. إننا قريبون من تمثال ستونهينج الميغاليتي، وبين الفينة والأخرى تزيد الشمس من تألق خضرة الصباح الذي نتجه فيه إلى منزل في أس نايبول الواقع في إحدى النقاط الأكثر توغلاً في ويلتشاير. إنه من العمق بحيث إن الهاتف النقال يمسي بعد أحد المنعطفات خارج نطاق التغطية التي لن تعود حتى نهاية لقائنا مع هذا الكاتب الشهير بانطوائه والذي - على الأقل حتى اكتشاف ماضي غونثر غراس في الأس أس - يعدّ أقل الحائزين على جائزة نوبل للآداب لباقةً سياسياً.

إلا أن نايبول المبتسم الذي استقبلنا في بهو منزله، حيث كانت عكازاته تستندان إلى طرف الكنبه التي يشغلها، لا يشبه الشخصية الكاريكاتورية التي رسمها لها أعداؤه. وبالرغم من اللحن الحزين لكلامه، كان يبدو طوال الوقت محترماً للغير ومهماً بأدق التفاصيل أيضاً، ابتداءً من ميزات مسجلتنا الرقمية وحتى الحركات القومية في إسبانيا. حتى إنه يُظهر في أكثر من مناسبة بعضاً من خيبة الأمل لأننا نكتفي بسؤاله عن رأيه بدلاً من مجادلته حوله. إنّ عذوبة صوته المشوب بالحزن وأساليبه المهذبة تقلل من عدائية تعابير مثل بلاد النفايات التي تكتسب بتدوينها قوة لا يذكر الصحفي أنها قد امتلكتها في أثناء الحوار. السير فيديادهار سوراجراساد نايبول - وهو الاسم الكامل لشخص يوقّع دائماً بالأحرف الأولى من اسمه - وُلد في جزيرة ترينيداد الكاريبية في العام 1932 في كنف عائلة من المهاجرين الهنود. في عمر الثامنة عشرة حصل على منحة، وانتقل إلى أوكسفورد ليدرس في الجامعة.

قال لنا: «كان ذاك خطأً كبيراً، ومضیعة كبيرة للوقت». رسائل بين أب وابنه تعرض لمشكلات الاندماج الكبيرة التي عاناها في المجتمع الإنكليزي النخبوي في الخمسينيات، وغيرها من المشكلات، إضافة إلى التعقيدات الجسدية التي يعاني منها، ومشكلات علاقته بالنساء. فيكتب مثلاً، بعد ملء



فيها الآن، «مع أنني لم أعش في هذا المنزل إلا منذ أربع وعشرين سنة». في لحظة معينة ينادي نايبول زوجته: «نااا - د - رةةةة!»... فتدخل نادرة ألفي - المعروفة إعلامياً باسم ليدي نايبول - إلى البهو وهي تنظف يديها بخرقه من المطبخ، ويطلب منها الكاتب الجلوس قائلاً: «اجلسي معنا يا حبيبتى». إن هذه الصحفية الباكستانية من عائلة «إسلامية تقدمية»، وهي دوامة من النشاط. كما أنها تعرف كيف توجّه دوافع زوجها، كما لو أن الوجود الأنثوي يمنع نشوء أي هيجان.

ومع أن المقابلة تتم بالإنكليزية، إلا أن نايبول يعرف الإسبانية. حتى إنه كان يستعملها سراً حين لا نراه ليعطي تعليمات للمصور، ويعترف قائلاً: «قبل سنوات كثيرة ترجمت قصة لاثاريو دي تورمس لأجلتي، بقصد المتعة، بالرغم من أنها لن تُشر أبداً... لأنها ضاعت. حين انتقلتُ من منزلي في العام 1968 أنفقت ملفاتي. هذه إنكلترا، والناس هنا

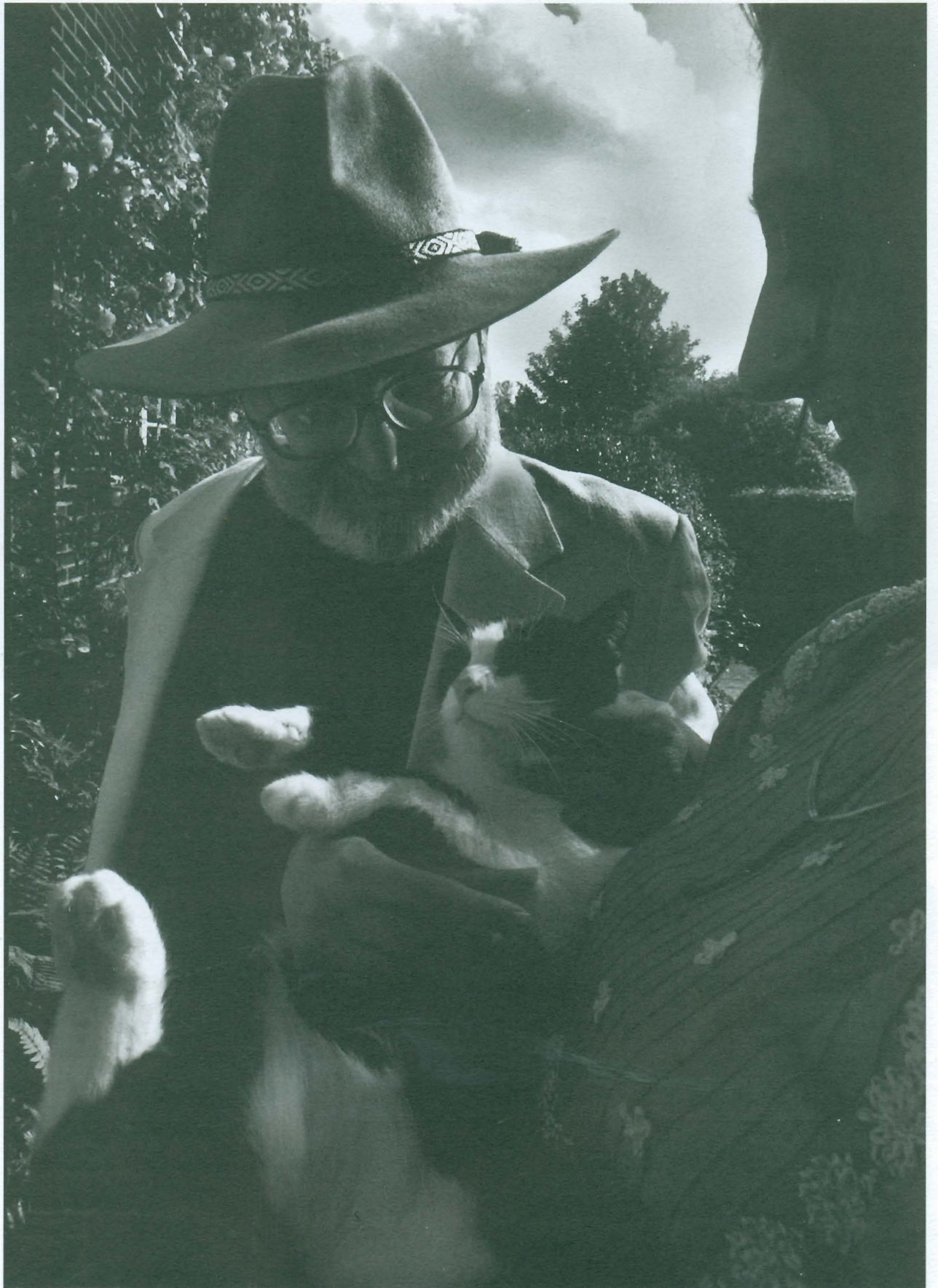
في العام 1999، ولن أرى أي نسخة أخرى. سيكون الأمر مؤلماً جداً، فلم أرغب حتى برؤية النصوص النقدية... ومع ذلك ليست سنواتي في أوكسفورد هي الأسوأ في حياتي، فطفولتي في ترينيداد كانت أسوأ، كانت رهيبة. عشتُ في كنف عائلة كبيرة جداً، في جوّ من البؤس، وفي مجتمع منغلق جداً... أردتُ أن أكبر وأتحمل مسؤولية حياتي؛ لم أحب أن أكون طفلاً. منذ مدة قصيرة عدتُ إلى ترينيداد، للمرة الأولى منذ أربع عشرة سنة، لأرى أختي المريضة، ولكن في ذاك المكان لم يعد هناك ما يعنيني.

- أيجب مواطنو ترينيداد كتبك؟

- لا أعرف. أعتقد أن الأفارقة هناك لا يحبونها.

ولكنها مشكلتهم، أليس كذلك؟

بعد السفر حول نصف العالم (حيث استقرّ في بلدان عدة في إفريقيا وآسيا وأميركا ليدرس المجتمعات التي احتضنته، والتي ألف العديد من الكتب حولها) انتقل في العام 1970 إلى المنطقة الهادئة التي يقطن



يقومون بأعمال ليسوا مؤهلين لها، إذ دخل منزلي عامل مجنون وأخذ يتلف الأوراق. كان واضحاً أنها كتب وليست فواتير قديمة، ولكن...».

يشرح لنا أن الوضع يشبه أعماله الأولى عن إفريقيا في الستينيات، حين أمطروه بوابل من الانتقادات والاتهامات بالعنصرية: «إذا قرأوا كتاباتي من جديد فسيلاحظون أن ما وصفته وتوقعته قد حدث. خرجت إفريقيا من التطور العالمي، وهي منطقة مظلمة. سافرت أيضاً في الهند، فوجدتها مختلفة عن إفريقيا. حالياً الهند بلد يمكنه أن يخرج من مشاكله بمفرده، بينما تعتمد إفريقيا كلياً على المساعدات الخارجية».

«طريقة نايبول» في السفر هي إهمال أي نظرية مسبقة: «حتى إنني لا أقرأ أي كتاب عن المكان الذي سأسافر إليه، وأحب أن يكون البلد هو الذي يترك أثراً في نفسي. حين أعود أقرأ عنه كثيراً، وبعد كل هذه العملية أفكر. لا أسافر إلى أي مكان وأنا أحمل فكرة ما، لأن نتائحي ستكون غير صحيحة...».

كل هذه العملية - علماً أن الآلام الحالية في قدميه وظهره تمنعه من القيام بخطوات كبيرة - يطبقها على إنكلترا: «لا ينفك احتمال أن تكون النتائج جيدة يزداد صعوبة في هذا البلد. النظام الصحي لا يسير على ما يرام، وإليكم حالتي كمثال: أصبت بمرض شديد، ودخلت المستشفى. لم يعرفوا ما الذي أصابني، فراجعوا الكتابات والاختصاصيين من دون أن يجدوا شيئاً، بينما كانت حالتي تزداد سوءاً. خشيت على حياتي. وفي النهاية، قررنا الذهاب إلى مستشفى في الهند، حيث شخصوا لي مباشرة إصابتي بفيروس وعالجوني. أدين بحياتي للأطباء الهنود. من المذهل كيف انعكس الوضع خلال سنوات معدودة. ففي السابق، اعتاد الهنود على المجيء إلى هنا للعلاج... الصحة في بريطانيا هراء، فهم جيدون جداً في الأبحاث الطبية، لكن علاج المرضى أمر مروع».

غيرت العوائق الجسدية من طريقة عمله، فقال: «حين كنت شاباً كنت أعمل بكد؛ أنهض باكراً قدر

ما يمكن، وأبأشر الكتابة بما يشبه الهوس، إلى أن أعاني الإرهاق. أما الآن فقد اختلفت الطاقة. فأنا الآن أمضي الصباح نائماً وأتمطط. أسمع الأخبار، وأعتني بقطي أغسطس، ثم تحين ساعة الطعام. وبعدها، أفكر قليلاً في ما عليّ فعله، وفي النهاية لا أبدأ الكتابة حتى وقت متأخر من اليوم، فأكتب نصاً أو نصين». وهنا تتدخل زوجته نادرة في الحوار قائلة: «لا يزال قادراً على النهوض عند الثالثة من بعد منتصف الليل لغير كلمة واحدة أزعجته... لا يقول لي أبداً ما هي». إن لدى نايبول فكرة واضحة عن الحركات القومية، بسبب الجو الخائق في جزيرة مولده: «إنهم بائسون. ليس علينا تحفيزهم، لأن إثارة الناس وفقاً لمكانهم الجغرافي ليست ملائمة».

يعتبر نفسه متجولاً، من دون أصول: يزعجه فقر ثقافة ترينيداد، ويشعر بأنه أجنبي في الهند ولا يمكنه التعاطف مع القيم التقليدية لإنكلترا الاستعمارية. بالنسبة إليه، «في مجتمع واسع وفسيح، هناك احتمالات كثيرة للتغيير الفردي والجماعي. أما في المجتمع الصغير المحدود، فمن الصعب جداً تغيير شيء. أعرف أن هذا لن يعجب القوميين، مع أنهم قد لا يفكرون جميعاً بالطريقة نفسها. الأهمية تصبح أفضل بازدياد اتساعها». هوية كاريبية مثلاً؟ نسأله ذلك، ونذكره بأن غارثيا ماركيث أعلن عن وجود كتاب كاريبيين، بغض النظر عن اللغة التي يستخدمونها.

يجيب مبتسماً: «آه، أجل. أهداني غابو كتاباً قبل ثلاثة عشر عاماً وكتب: إلى كاتب جنوب أميركي كبير... كان لطفاً منه اعتباري كذلك. لكن فكرة قيام الناس في الكاريبي بأمور غريبة باللغة تفكير محدود جداً. هناك كاتب أو كاتبان كبيران في الكاريبي، لا أكثر. إذا كان أصلك يعود إلى مكان صغير كترينيداد، فالمغامرة الإنسانية محدودة بالضرورة. والحق أنك لو أردت عالماً أغنى، فعليك أن تغادر ذاك المكان بالإكراه. كما أنني لا أحب الكتاب الإنكليز على نطاق محلي مثل توماس هاردي. فأنا في الحقيقة لا أتحمله، وأعتقد



أنه اليوم بشكل خاص علينا معشر الكتاب جميعاً أن نحيط بالعالم أجمع.

تلمع عينا نايبول حين يتحدث عن الأدب. أمضى أعواماً عدة كناقد للكتب - «مللتُ إلى حدّ قررتُ معه ألا أعود لقراءة أعمال أي كاتب معاصر» - ويعترف أنه في الوقت الحالي يقرأ «للقليل جداً من المؤلفين الإسبان. في أحد الأوقات قرأت جيل الثمانية والتسعين وغيرهم. ولكنهم في النهاية لم يجذبوا اهتمامي. وهم برأيي كتاب سيئون: بالاثيو فالديس، بيو باروخا، غالدوس... ما أسوأهم! وبالعكس، فإن التاج الإسباني في القرن السادس عشر وروايات الصعاليك أثرت فيّ كثيراً. ثيربانتس رائع ومتألق». بعض الأسماء الإنكليزية الكبيرة لا تستحق منه تعليقات أفضل. فبالنسبة إليه، جين أوستن «لا يمكنها أن تجذب إلا أولئك المهممين بمبادئ ذاك العصر». وهنري جيمس هو «أسوأ كاتب في العالم، إذ لم يخاطر يوماً بشيء، ولم يعبر عن نفسه بصراحة، بل نظر إلى العالم بفوقية وبتكشيرة جنتلمان. بينما لم يع همينغواي العالم الذي عاش فيه هو الآخر، حيث كان في باريس بين الحربين العالميتين، لكننا، قراءه، لا نستطيع أن نعرف إلا العصائر التي كان يشربها».

القضية: حقوق الحيوان

يوضح نايبول قائلاً: «إن حقيقتي موجودة في كتيبي». الكثير من أعماله يعكس التزاماً سياسياً كبيراً ضد التشدد، على عكس الانطباع الذي أخذه البعض عنه، وهو ما أدى إلى تهديده. ومع ذلك، «لا أحد يفكر في حين يتحدثون عن الكتاب الملتزمين. فم منذ الخمسينيات والستينيات، ارتبط مفهوم الالتزام في ثقافتنا بمفهوم أن يكون المرء شيوعياً». ولكن لو توجب عليه أن يختار قضية يلتزم بها بشكل مباشر، فهي قضية الدفاع عن حقوق الحيوان في العالم. يمول نايبول أماكن إقامة للحيوانات في بلاد كالهند والباكستان، وقد قرر تخصيص جزء من إرثه لحمايتها. وللسبب نفسه يرفض زيارة الصين «لأن التعامل مع الحيوانات في هذا البلد رهيب، وهو أسوأ مكان في العالم لتعيش فيه إذا لم تكن من جنس البشر».

كذلك يُقلق نايبول «استمرار مصارعة الثيران في إسبانيا. فهذا تعذيب تحوّل إلى عرض». إنها مفارقة تفاجئه خاصة «في الوقت الذي مُنع فيه حتى صيد الثعالب هنا، في إنكلترا».



للعالم في فئات مبسطة، أصعب من أي وقت مضى. من السهل جداً أن تصنف أحدهم كي لا تتمعن في ما يقوله». تحين ساعة الشاي، وبعد تذوق فطيرة أعدتها ليدي نايبول يعتمر الكاتب إحدى قبعاته - المعلقة عند المدخل، الواحدة تلو الأخرى، كما لو أنها لوحات - ليرينا المزرعة في الخارج؛ كان هناك جدول يعبر المزرعة، فيما تسكنها أشجار الكرز والتفاح والدردار والزان... يصعب على الكاتب المشي، فيستعين بعكازة. ليس من الصعب أن ترى في هذا المنظر الطبيعي مشاهد من كتب مثل أحجية الوصول. يعلق وهو يركز نظره في الأفق: «هذا هو بلدي، هذا وحسب».

في الممشى الخارجي للمنزل، رافقتنا ابنته المتبناة ذات الثمانية والعشرين عاماً. إنها الابنة البيولوجية لنادرة، ولقد تبنّاها رسمياً في العام 2000، أي قبل حصوله على جائزة نوبل بقليل. تعمل الفتاة مصممة للأزياء، وتصطحب أباهما إلى عروض في أنحاء العالم كافة، وتقول: «إنه يعيش هذه العروض، ويسألني ما الفرق بين غوتشي وفالنتينو؟ ما هي برادا؟ والأمر يفتنه بالكامل».

يضحك الكاتب على اقتراح توني بلير الخاص بإخضاع المهاجرين لامتحان ثقافي: «إنها فكرة سخيفة، ومحاولة للتخلص من حماقة ما للمباشرة بأخرى. حين يختار أحدهم بلداً ما ليهاجر إليه، فإنه يحاول الانخراط فيه، وفي قوانينه، ونظام أمنه، وشبكة فرصه الاقتصادية... أي إنه يحاول التماهي معه بشكل ما. ليس من المنطق أن تقول: أريد كل هذا، لكنني سأعيش على طريقي. على البلد أن يُصرّح: هذه قوانيننا، وهي تسري على الجميع، فإن أعجبتك، فهلم إلينا. ولكن ما هذا الذي يقولونه عن الامتحان؟ يمكن للمرء أن يكون مختلفاً طبعاً، فيحافظ على عادات طعامه أو موسيقاه أو دينه أو تقاليده الثقافية...»

ينتبه في أس نايبول، كاتب الروايات، إلى الفوارق الدقيقة التي تعكس التنوع في المجتمعات التي يزورها. حين تقرأ كتبه تجد رجلاً حساساً تناقض شخصيته مع الشخصية اليمينية الخرقاء التي تسمه بها بعض النصوص الصحفية، لذلك سألناه بشكل مباشر: «أعتبر نفسك محافظاً؟».

هنا تقفز امرأته من مقعدها: «لا! ليس فيديا محافظاً، بل هو عقلاني! لذلك يتوقع أن بعض الأمور ستسبب انفجاراً». يتابع زوجها: «أمسى التعبير عن رأيك، من دون أن تقع في هذا التقسيم

إيمرة كيرتيس

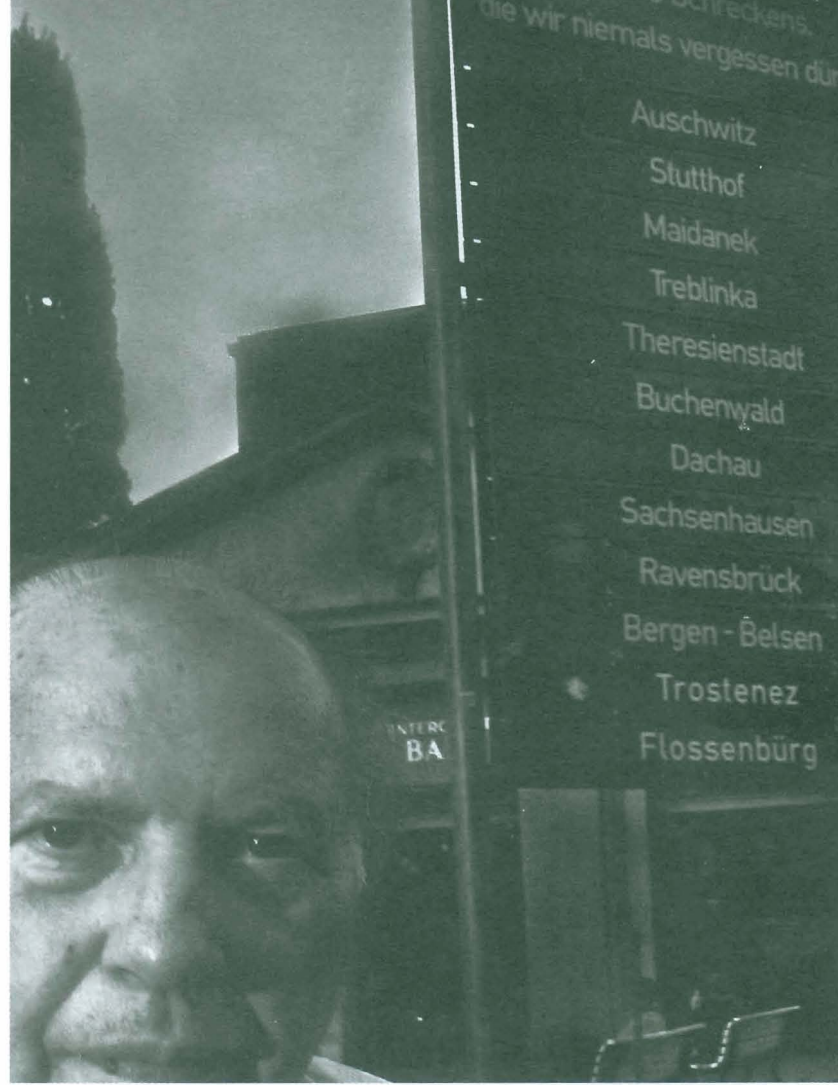


”بعد المعاناة لا يعود من السهل
النظر إلى المرأة، والاعتقاد
أنك تستحق الحياة واتخاذ دور
جديد.“

إيمرة كيرتيس هو الذاكرة الحية للذعر
الذي عاشه العالم في القرن العشرين:
فالبربرية النازية والديكتاتورية السوفياتية
تمثلان بالنسبة إلى الكاتب الهنغاري
الاستبدادية نفسها. كما تمثل أعماله التي
حازت على جائزة نوبل في العام 2002 جهداً
لتحويل هذه التجربة إلى طاقة إيجابية،
وللتغلب على عقدة الذنب الناشئة عن
النجاة من معسكرات الاعتقال، حيث لقي
الكثيرون من الأبرياء حتفهم.

بعضهما كثيراً، فيقول لنا الحائز على نوبل لعام 2002: «ألم تشبعا بعد يا صديقي؟ حسناً إذاً، لأستجمع طاقتي سأتناول بيتزا بالسجق لو سمحتما، وسأشرب كأساً!». كيرتس الذي يرافقنا اليوم في جولة في برلين المفضلة ليس له أي علاقة تقريباً بالشاب ذي الأربعة عشر عاماً، الذي أجبر - حين كان في طريقه إلى المصنع ليعمل في أحد أيام عام 1944 في بودابست - أجبروه على النزول من الحافلة ليأخذ إلى أحد معسكرات الاعتقال التي تعتبر محطات في مأساته. منحوه رقماً (64921)، وألبسوه زيّاً مخططاً، وحلقوا شعره كلياً، كما حلقوا شعر إبطيه وأعضائه التناسلية. تعلم كيرتس الشاب أن يستمتع لوقت قصير بأشعة الشمس أو بحرارة الحساء، فيما احتُقرت روحه أمام المواقف المهينة حيث أخذوا يحرقون زملاءه. «صدرت عنهم رائحة لن أستطيع نسيانها يوماً».

قد يبدو الأمر غريباً، لكن كيرتس وزوجته يعيشان في برلين. فهما يملكان منزلاً في بودابست، لكنهما يعيشان في العاصمة الألمانية منذ ستة أعوام، في شقة صغيرة مستأجرة، قريبة نسبياً من مكان لقائنا. اتفقنا مبدئياً على اللقاء في مقهى فندق كيمبينسكي الذي يتمتع بجو المقاهي القديمة، «وهو كمنزلي الثاني». أما مفارقة كيرتس الكبرى - وهو الرجل الذي أخفى أكثر من أي شخص آخر ماهية معسكرات الاعتقال - فهي أنه لم يكن يدري أنه يهودي، فقال: «لم أر نفسي يوماً كيهودي... إلى أن خاطوا لي نجمة على ملابسي واقتادوني إلى المعسكرات. انتمى أبواي إلى طبقة وسطى منخرطة جداً في المجتمع، فلم يتحدثوا إلا الهنغارية، ولم يبدوا اهتمامات دينية. قررت السلطات أننا يهود... وهي هوية لم أكتسبها بالفطرة، وإنما بعيشي في المعتقل».



نحن جالسون في ساحة صغيرة في حي شارلوتنبيرغ في برلين، في ظلّ أشجار مورقة، وأماننا صغار يتجولون على دراجات ذات ثلاث عجلات، وجدات يستمتعن بالنسيم العليل، وأزواج من جيل الشباب ممسكون بأيدي بعضهم بعضاً. وأمام دار عبادة حديثة من الحجر الأحمر، يضحك إيمرة كيرتس من قلبه في أحد مقاهيه المفضلة وهو يحتسي شراباً منعشاً. تلمع الشمس، وتعبق رائحة زهور من محل صغير. هذه هي برلين، عاصمة الرايخ الثالث سابقاً، وهي اليوم العاصمة الأوروبية للمساحات الخضراء بأشجار يزيد عددها على أربعمئة ألف شجرة منتشرة في شوارعها. كثيراً ما تتجه عينا كيرتس الخضراوان إلى بحيرة عيني زوجته ماجدة الزرقاوين؛ احتفلاً لتوهما بذكرى زواجهما الحادية عشرة، وهما يمازحان



نشر كيرتيس كتباً عديدة في إسبانيا. كروايته القصيرة قصة بوليسية، التي تجري أحداثها في جمهورية متخلفة تشبه كثيراً هنغاريا الشيوعية وإسبانيا فرانكو. كما نشر مجموعة مقالات مثل اللغة المنفية، والإضبارة كي التي يعتبرها كيرتيس «سيرة ذاتية فيها كثير من روح الدعابة».

خرج كيرتيس من معسكر الاعتقال في العام 1945، وقرر أن يصبح كاتباً في العام 1955. استغرقت منه بلا قدر عشر سنوات، وهي تدور حول تجربته في الاعتقال. وبعد ذلك، استغرق منه الأمر عدة سنوات أخرى لنشرها. وهكذا، أمسى عمره 46 سنة حين نُشرت أولى رواياته. قال: «احتجْتُ إلى بعض الوقت لأهضم التجربة. أجل، وإلى وقت آخر لأقرر ما أريد كتابته. فالموضوع لم يكن جذاباً، ولقد احتفظتُ بكثير من الأسرار». نرى ابتسامة كيرتيس مرسومة دائماً على شفتيه بالرغم مما عاشه. قبل أن يتوقف لشراء الفاكهة في سوق شعبية تعرض منتجاتها على الرصيف، يعترف قائلاً: «إنَّ جائزة نوبل جعلتني أعيش

الكثير من التجارب الجميلة، وأخرى سيئة حقاً. أنا آت من بلد صغير جداً، ملؤه الغيرة، فتعرضت لحوادث ذات طابع ديني جعلتني أعاني كثيراً». - كحرق كتبه في الشارع - «تعرضت هنغاريا لإهانات لم تتعاف منها: بعد الحرب العالمية الأولى، فقدنا ثلثي أرضنا. هنغاريا بلد يزداد انفتاحاً يوماً بعد يوم، ويشكل جزءاً من الاتحاد الأوروبي. ومع ذلك، فإنني أكتب لأوروبا أكثر مما أكتب لبلدي».

يتجنب كيرتيس الأماكن السياحية في نزهتنا الطويلة في شوارع برلين. يعرف عن كتابه الإضبارة كي قائلاً: «إنه عبارة عن سيرة ذاتية، أتكلم فيها عن والدي، وقصص عشقي، ودراستي، وعملي كاتباً... أ طرح موضوعات فشلي وصراعاتي الداخلية. لا

تقتصر حياتي على الصعود في قطار إلى معسكر تعذيب والنزول في محطة نوبل، فقد اضطرتُ إلى مناقشة موضوع ليس سهلاً أبداً: الشعور العظيم بالذنب. من الصعب جداً تجاوز الشعور بالندم الذي اعتراني لأنني نجوت بحياتي فيما أعلم أن الكثير من الناس قد ماتوا. أشعر بالخجل لنجاتي، فقد غمروني بالمنطق وبطريقة تفكير صممها الآخرون لتدميري. كان المنطقي أن أموت، وهو ما شرعته الأنظمة القانونية والعاطفية والإيديولوجية. أما البقاء حياً، فهو يناقض كل ما تبنيته شخصياً على أنه قدري. لذلك ينتحر بعض من نجوا في نهاية المطاف، لأن هناك أمراً في داخلهم يشعرهم بأن عليهم القيام بذلك. بعد المعاناة، لا يعود النظر إلى نفسك في المرأة سهلاً، أو أن تعتقد أنك جدير بالحياة، وأن تتخذ دوراً



«قصصوا كل شيء، ولم يتركوا إلا برجاً لم يرمم، ليدركنا حاله بسخافة الحرب». وإلى جانبه يوجد بناء فى قمة الحدائة تشغله الأبرشية الحالية. تبدو الكنيسة محاصرة بالرأسمالية الألمانية: يظهر شعاران ضخمان، واحد لميرسيدس وآخر لباير، يلتفان حولها من فوق ناطحتي السحاب المحيطتين بها. وكانت الإضاءة الليلية تضيء على المكان ظلاً أزرق رقيقاً. أوضح كيرتيس فى كتاب بلا قدر أنه كان سعيداً أيضاً فى المعتقل. ويشدد قائلاً: «يجب عدم تجريد كلمة واحدة من رواية أو حجر واحد من كنيسة، بل تأمل بناء الكنيسة كله. فى كتابي يقترب القارئ شيئاً فشيئاً من هذه الكلمة. سعادة، عن طريق العديد الأحداث الدرامية، وحين يلتقيها فجأة، يتولد انفجار أكثر فعالية بكثير من وصف المعاناة بالتفصيل. هناك أوضاع حياتية لا يمكنها أن تزدد سوءاً، ولذلك فإن أي حافز إيجابي فى تلك اللحظات، فى الاستراحات بين جلسات التعذيب، يجعل المرء يعيش مع شعور

جديداً. حصل هذا مع كثير من الكتاب والمفكرين والناس المجهولين: عاشوا لسنوات وقد حُكم عليهم بالإعدام، ثم تبّنوا الحكم على أنه حكمهم الشخصي، ولذلك نفذوه فى نهاية المطاف بأنفسهم. أنا أيضاً ربما كنت سأقوم بذلك لو لم يتوجّب عليّ كتابة رواية، وهو ما شغل بالي كلياً وأمن لي مساحة استطعت أن أكون فيها حراً، لأنني بانتقالي من نظام استبدادي إلى آخر مماثل؛ الشيوعية، تابعتُ العيش فى حياة خارجية موسومة بالعبودية. الإضبارة كي عبارة عن حوار يتناول كل هذه الأشياء بين ثلاثة كيرتيس مختلفين: واحد يجيب، وآخر يطرح عليه أسئلة عن حياته، وثالث يراقبهما كما لو أنهما يلعبان كرة الطاولة. وهذا الثالث يمسك من الخارج بالكرة ويرميها على الطاولة».

إلى جانب الكنيسة التذكارية، وفي كايزر - فيلهيلم - غيداشتنيسكريرشه، وهو معبد أصابه قصف الحلفاء فى النزاع الأوروبي، يتذكر كيرتيس أنهم



هائل بالسلام والارتياح».

عدنا سيراً على أقدامنا إلى شارلوتبيرغ حتى وصلنا إلى بيت الأدب، وهو مكان آخر من الأماكن المفضلة لدى الكاتب. إنه مكان ريفي، فيه مركز ثقافي ومطعم ومكتبة يمكنك أن تصل إليها بنزول الدرج. وجدنا هناك كتباً لحنا آريندت. يقول وأمامه فنجان قهوته المئة لهذا اليوم: «نظريتها حول سخافة الشر - التي تفيد أن الأشخاص الذين يرتكبون أكبر الفظائع، يمكنهم القيام بذلك من دون اهتمام، كما لو كان ذلك أمراً سخيلاً أو عادياً - تمثل تماماً ما عشته أنا في المعسكرات».

في الكثير من روايات كيرتيس تطلب الشرطة من الأبطال أن يتحولوا إلى مخبرين، وفي ما بعد يملون عليهم المعلومات. تتحقق هذه المشاهد حين تعلق أصوات تدعو لملاحقة المتعاونين مع الشيوعية في بولونيا أو ألمانيا. بالنسبة إلى كيرتيس فإنه من النفاق أن نشعر بالصدمة. «بعد انهيار الجدار - جدار برلين

- لم يرغب أحد بالاعتراف أنه تعاون مع الستالينية. أما الآن، وقد مضت سنوات عدة، نكتشف أن الكثير من الأشخاص الذين لم نشك في أمرهم إطلاقاً كانوا مخبرين كالكاتب التشيكي بوهوميل هرابال. ولكن، لا يمكننا أن نبسط الأمور ونضع هؤلاء الأشخاص في خانة الزعماء المتسلطين نفسها».

كما لا ينتقد بشدة الكاتب الهنغاري غونشر غراس، الأديب الحائز على جائزة نوبل والذي اعترف بتعاونه مع الأس أس: «كان شاباً يعيش في دولة اتخذ فيها الراديو والأفلام والتقنيات الرسمية كافة اتجاهًا واحداً، وبات من الطبيعي أن يبدأ التفكير كما فعل».

حول موقفه السياسي يوضح قائلاً: «الإيديولوجيات السياسية لا تتوقف عن التغيير، فهي في تحول دائم، لذلك أفضل عدم الانتماء إطلاقاً إلى أي طرف سياسي. مع ذلك، أحاول كشخص أن أكون صبوراً ومتحرراً... لو سمحوا لي. لست من اليمين ولا من اليسار، لأنني أجد السياسة بصفتها

ميداناً للتحرك بعيدة عني ببساطة، ولا أعتقد أن هذه التسميات ستساعدني لأتطور. نرى كل يوم العديد من السياسيين يغازلون الحرية لكنهم يطارحون الطغيان الغرام...».

وبينما تشرح أنا سوفيفس - المترجمة التي فسرت لنا كلام الكاتب الهنغاري - لكيرتيس حالة اللغة في إسبانيا، تقصّ علينا زوجته ماجدة بالإنكليزية كيف تعرفا إلى بعضهما: «أنا هنغارية، لكنني عشت في شيكاغو منذ عام 1956. عدتُ قبل ثلاثة عشر عاماً إلى بلادي لأفتح مكتباً لولاية إيلينوي في أوروبا الوسطى، فتعرفت إلى إميرة في بودابست ومكثت هناك». ولدى تناولنا فطيرة التفاح والقشدة تمكنا من جعلها تكشف لنا عن بعض تفاصيل غرفة النوم: «في الكثير من الليالي أفتح عيني لأجد أنه ليس في السرير... لأنه يكون قد ذهب إلى الغرفة المجاورة ليكتب. يكتب عند الفجر ساعات عدة!». يؤكد هو كلامها مطأطئ الرأس: «أنام قليلاً جداً... ولا أتمكن من الذهاب في إجازة. أخذ حاسوبى وأعمل بينما تستمتع زوجتي على الشاطئ. الأمر كالهوس أو الولع، يلح عليّ دائماً...».

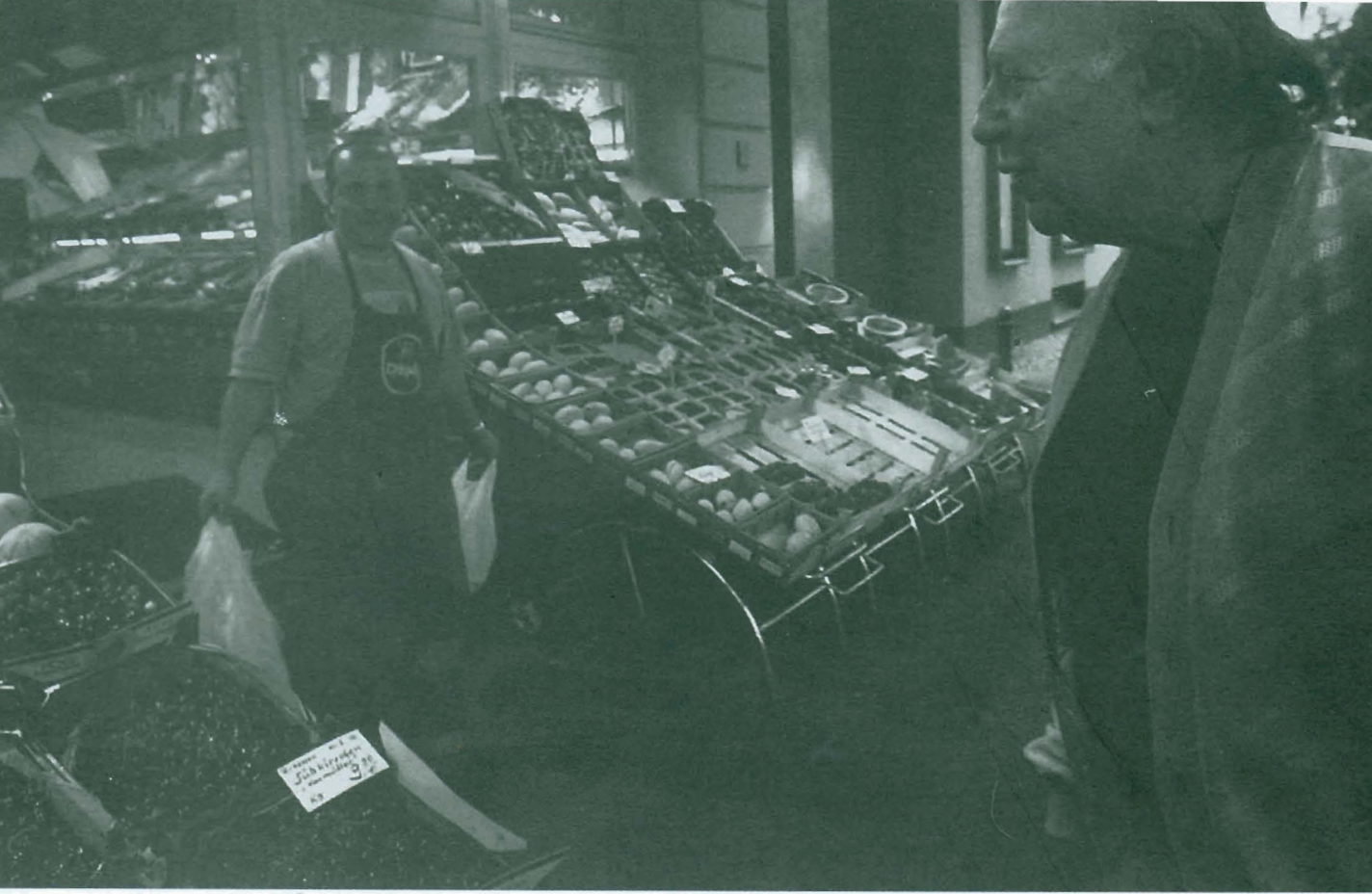
يسألنا الكاتب عن إسبانيا ويحدثنا عن قرطبة وسان إيستيبان وبرشلونة، حيث يذكر قائلاً: «كنت هناك في 11 آذار 2004، عندما حصل الهجوم الإرهابي على مدريد. كنت أزور كاسا باتلو حين وصلت تلك المظاهرة المدهشة المؤلفة من مليوني شخص، وهي كتلة بشرية ضخمة حملتني معها حين خرجتُ إلى الرصيف، فشعرتُ بذلك الإحساس؛ بأنني عاجز عن الهرب وأن الكتلة البشرية تأخذني معها إلى حيث تشاء. جعلني ذلك أفكر في يومي الأول في المعتقل حين حملني تيار بشري وقادني إلى المعسكر، وهو تيار فصل الآباء عن أبنائهم، والأزواج عن زوجاتهم...».

كل شيء بالنسبة إلى كيرتيس قد يذكره بالمعتقل، ذاك الحاجز الذي تتخطى آثاره حدود الأدب. في حزيران عام 1965 كتب في مذكراته: «لن أستطيع يوماً أن أكون أباً لإنسان آخر». وفي العام 1990 نشر



القضية: أوروبا قوية

يثق إميرة كيرتيس بأوروبا، بأمة تتحقق فيها المبادئ التي تقوم عليها، كما يقول: «حين مدت بلدان أوروبا الشرقية ذراعها باتجاه ديموقراطيات أوروبا الغربية لم تحصل إلا على تربيت على الظهر. والنتيجة هي أن الاختلافات الشاسعة بين غرب القارة وشرقها تشكل اليوم مشكلة خطيرة. تواجه أوروبا في القرن الحادي والعشرين مأزقاً بطولياً: إذ يجب عليها أن تقرر إما أن تشدد على منظورها الأخلاقي، أو أن تفضل التعاقد مع الشرير. إذا لم تنتج هوية أوروبية قوية وروحانية، فليس لدينا ما يضمن أننا لن نعود بصمت إلى الإبادة الجماعية كما حصل في البلقان. لا أثق بالهويات القومية، وعلى أوروبا الارتباط بالولايات المتحدة. هل يتخيل أحدها ما كان سيحدث لو لم تتدخل الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية؟ وحدها الحماية الأميركية هي التي سمحت لألمانيا بأن تبني مستقبلاً مشتركاً وسلمياً مع فرنسا. الولايات المتحدة بلد قائم على المثل الأوروبية الكبرى: الحرية والديموقراطية واستقلالية الفرد».



في أي مكان: فلطالما وجدتُ الحروب أو النزاعات أو الأنظمة الديكتاتورية في أي مكان قصدته».

- ألا تشعر بالسلام في هنغاريا؟

- لا، بل أستنشق الغضب والدمار. عشتُ هناك 40 سنة من دون أن أتمكن من الحصول على جواز سفر إلى الخارج. والآن، أستمتع للمرة الأولى في مدينة منفتحة وعالمية. أتحدث الألمانية، ويعيش محرّري هنا، كما ألاحظ أن الناس يحبونني. يقطن هنا الكثير من الفنانين، فهي مدينة تجذب المواهب. تقول زوجتي إنني كالشباب الذي يكتشف مدينة كبيرة للمرة الأولى.

يشير كيرتيس برأسه من دون جدوى، في محاولة منه ليقدموا له فنجانا آخر من القهوة، لكن العاملة في المقهى المزدهم حيث توقفنا لنستريح، تبدو وكأنها لا ترانا، فيعلق: «هل لاحظتما؟ الفعالية الألمانية في أزمة. اكتشفتُ ذلك قبل عشر سنوات، حين رأيت أن سير الحقائق معطل في المطار. حينها قلت لنفسي: لقد انتهت ألمانيا».

كتاب دعاء لابن لم يولد يشرح فيه سبب صعوبة أن تمنح الحياة إلى شخص آخر بعد تجربة معسكرات التعذيب. «يتحدث عن قصة حب تتعلق بالنزاع الذي ينشأ بين الزوجين، حين ترغب المرأة بابتن ويرفض الرجل ذلك بسبب التجارب التي عاشها».

علاقة الحب بين كيرتيس وبرلين متينة. يتعجب الكاتب قائلاً: «في هذه المدينة مثلاً، نعيش نحن الذين نهوى الأوبرا حياة رائعة. اسمعاني جيداً، في برلين ثلاث دور أوبرا عظيمة. وفي كل عام يحتدم النقاش حول احتفاظ المدينة بدور الأوبرا الثلاث، فيتجادلون بشدة، ويصوتون... وفي كل عام يكون القرار بالإبقاء عليها! أليس هذا رائعاً؟ حتى إنني قبل مدة قصيرة أقمت عرضاً صغيراً قرأت فيه كتاباتي في صالة صغيرة في فيلهارمونية برلين، ورافقني في أثناء قراءتي عازف بيانو في الخلفية».

لكن ما يعجبه في العاصمة الألمانية حقيقة هو كما يقول: «أعيش فيها بقوة، وأختبر مشاعر وشديد. اكتشفتُ فجأة أنني لم أحيي بسلام

كينزابورو أوي



«أدافع عن وجود الفرد بصفته كينونة مفكرة مستقلة»

أول ما دفعه ليصبح كاتباً كان إدراكه
العذاب الصامت الذي تعاني منه سمكة
في الخطاف، لذا أصبح كاتباً ليشرح ذلك.
يشعر كينزابورو أوي اليوم أنه مختص
في التعبير عن العذاب الإنساني. بروحه
النقدية، ولطفه، وصدقه، يقص علينا
الياباني الحائز على نوبل خلال نزته
سيراً على الأقدام وفي المترو الذي يطوف
طوكيو كيف تحول ابنه، المصاب بإعاقة
شديدة، إلى بطل في كل أعماله الأدبية،
وإلى درس مغزاه: إنَّ البحث عن كل
الطرائق الممكنة للتواصل يستحق العناء.





للوجود. ومنذ ذلك اليوم، وأنا أرى العالم بعيون سكان هيروشيما. كثيراً ما صدمني خبر وفاة أحد أصدقائي الجدد، بسبب عواقب الانفجار. الكثيرون منهم لم يرغبوا بالشهرة ولا أن يذكروهم دائماً بوضعهم كضحايا، حيث احتاجوا إلى بناء حياة جديدة تخلو من الوجود المستمر لذلك الرعب. ذهبت إلى

الكثير من الجنازات، من بينها جنازة أرملة الشاعر سانكيشي توغ الذي كتب أبياتاً ممتازة عن مأساة القنبلة النووية، وكرامة الناس الذين قرروا مقاومة المحنة. انتحرت أرملته بعد الاضطراب الذي سببه لها السلوك العدائي المناهض لبناء نصب تذكاري تُنقش عليه قصيدة لزوجها. كتب توغ: أعيدوني إلى أبي، أعيدوني إلى أبي. أعيدوني إلى جدي

حين وُلد ابنه المعوّق في العام 1963، ذهب كينزابورو أوي إلى هيروشيما ليتشرب العذاب الإنساني، وهو لا يزال حتى اليوم يشيح بنظره بعيداً حين يفكر في ما حدث. يقول لنا الآن وهو يتناول كوباً من الشاي في غرفة جلوس منزله في طوكيو: «خضع هيكاري لعملية مصيرية، حيث اضطرّوا إلى استئصال كتلة حمراء براقّة وكبيرة كما لو أنها رأس ثان، ملتصقة في القسم الخلفي من جمجمته». كانت نتيجة التدخل الجراحي تخلفاً عقلياً لا يمكن معالجته. حينها تمثّل رد فعل أوي بالسفر إلى هيروشيما، وهناك صدر عنه ملاحظات حول هيروشيما. «كانت الرحلة الأكثر إرهاقاً وكآبة في حياتي. ولكنني بعد تمضية أسبوع هناك، وجدت المفتاح للخروج من البئر العميقة التي وقعت فيها: إنسانية سكانها العميقة. أدّهشتني شجاعتهم وطريقة حياتهم وتفكيرهم. قد يبدو الأمر غريباً، لكنني أنا الذي خرجت من تلك المدينة متحمساً بسببهم، وليس العكس. ربطتُ ألي الشخصية بآلام أولئك الرجال والنساء، وقررتُ أن أقاوم وأكافح مثلهم. شعرتُ بنفسني مجبراً على مراقبة وضعي الإنساني بمجمله، وراجعتُ أفكاري وتبنيتُ مفهوماً أخلاقياً



نفسه»، يسيرون مسرعين إلى عملهم. اختلط على سائق السيارة عنوان أوي، لأن الشوارع في طوكيو لا تحمل أرقاماً. وليجد الناس طريقهم، يعتمدون عادة على الخرائط الصغيرة التي تبدو على بطاقات تعريف الأشخاص (بيزنس كارت) والتي تشير إلى الأبنية الواقعة إلى جانب البيت الذي يبحثون عنه (محل زهور، فندق،...)، لكن حي سيتاغايا يخلو من كل شيء إلا من المنازل، فلم تساعدنا الخريطة كثيراً. في النهاية، تركنا السائق عند المنعطف وقال: «لا بد من أنه هنا». ثم اختفى مبتسماً. تجولنا قليلاً في شوارع خالية من الأسماء، وحدائق مشدبة جيداً، ولكن شبكة من الأسلاك الكهربائية الفوضوية التي بسّعت من المنطقة بأكملها فاجأتنا. وحين التففنا عند إحدى الزوايا، لمحنا في نهاية الطريق رجلاً يلوح بذراعيه كشفرات المروحة صارخاً: «هنا! هنا!». هذا كينزابورو أوي. بعد أن خلعنا أحذيتنا عند مدخل داره وعبرنا باب غرفة الطعام، صرخ أحدهم بالإسبانية: «كووومو استان أميغوس!». كان هيكاري، ابن كينزابورو أوي، تلك الشخصية التي تدعى إيوري في روايات أبيه. «تعلم بعض العبارات في برنامج ليليّ عن اللغات يُعرض على شاشة التلفاز الياباني». هذا

وجدتي، أعيدوني إلى أبنائي وبناتي. / أعيدوني إلى العرق البشري. / بينما تبقى هذه الحياة، هذه الحياة، أعيدوا إليّ السلام. / أتمنى ألا ينتهي يوماً. وبينما تستمر ذكرى مأساة أشخاص كهذه، كيف يمكن لهيروشيما أن تختفي من قلوبنا؟».

نحن جالسون في غرفة طعام الكاتب الحائز على نوبل للآداب في العام 1994، كينزابورو أوي في العاصمة طوكيو، في حي سيتاغايا. هدوء

زن في هذه الصالة لا يمت بصلة لما رأيناه عبر نافذة سيارة الأجرة التي جاءت بنا: ناطحات السحاب الرمادية الضخمة الملتصقة بالطرقات السريعة ذات المستويات الثلاثة أو الأربعة، ورجال يرتدون زيّاً رسمياً ويضعون ربطات عنق، «جميعهم يرتدون الزي





تتعاطف كثيراً مع العصافير، ونعتني بها كما لو كانت جزءاً من العائلة، لأن ابني استطاع الكلام بفضلها. اعتقدنا أنه لن يتكلم يوماً على الأغلب، لكنني اعتدت أن أسمعه أسطوانات لأصوات مختلف أنواع الطيور، وصوت إنسان يذكر أسماء الطيور صاحبة هذه الأصوات ليتعلم أن يميزها عن بعضها. وفي

النهاية، جاء يوم سمع فيه زقزقة أحدها في الحديقة فدعاه باسمه. وخلال مدة، كان يجيب على العصافير فقط، دون البشر». استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة! هو الكتاب الواقعي الأول الذي ينشر في إسبانيا لأوي. «إنه أهم ما كتبت.

كنا نسمع عبر المسجلة لحناً ألفه هيكاري الذي استطاع أن يعبر عن نفسه بعمق عن طريق الموسيقى بالرغم من تصرفاته الطفولية في معظم الوقت. وكان

ما كشف عنه أوي الذي أخذ يتذكر - فيما زوجته تقدم لنا القهوة والشطائر وفطيرة الجبن - عام 1963 الذي عاد فيه من هيروشيما قائلاً: «اكتشفت أنني لن أستطيع الكتابة إطلاقاً من دون الإشارة إلى ابني، وحولته إلى أساس عملي». في الحقيقة، نجد أن رواية استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة! هي قصة العلاقة الصعبة بين أب وابنه، والتي تتضمن عنفاً ولحظات متعبة جداً، بالإضافة إلى مشاهد مضيئة يشرق فيها الحب الأبوي المتبادل بقوة. يجيب أوي عن أسئلتنا بينما يسمع هيكاري الموسيقى وهو جالس إلى الطاولة المجاورة. وجودنا يقاطع حياته اليومية المعتادة: «أنهض عند الساعة صباحاً، ولا أتناول الفطور أبداً. أعمل أربع ساعات أو خمس، بعد ذلك أذهب إلى المسبح. وحين أعود، أتناول العشاء مع زوجتي وابني، ومن ثم أنام. أكتب دائماً هنا، في غرفة الطعام، بينما يشاهد هيكاري التلفاز أو يستمع إلى الموسيقى. هذا لا يزعجني، لأن عالمي لا يسمح لعوالم أخرى موازية بالتشويش عليه». الحديقة مليئة بأحواض طعام العصافير التي تأتي كل يوم وأعشاشها. يتأمل الكاتب عصفوراً مكسواً بريش أبيض وأسود ويقول: «إنه من نوع الشيجوكارا.

الجيش، تلك الجماعة من الأشخاص التي لا تتحرك كما يملّي عليها وعيها وإنما وفقاً لأوامر أشخاص آخرين. لسوء الحظ، في المجتمع الياباني الحالي، القليل جداً من الأشخاص لديهم وعيهم الخاص واستقلالهم الفكري، ليس في الجيش فحسب، بل في العمل أيضاً. أدافع عن وجود الفرد بصفته كياناً مفكراً مستقلاً، ليس مضطراً إلى الاتفاق مع أفكار من يحيطون به. هذا موجود في قصيدة بليك، وهو ينفع شباب إسبانيا وشباب الولايات المتحدة الذين ينضمون إلى صفوف الجيش من دون تفكير. يقاطع حادث طارئ الحوار؛ إذ يتصل أحدهم بأوي ليعلمه أن محاضراته في اليوم التالي للدفاع عن القيم السلمية للدستور الياباني لن تتم في الفندق المحدد سابقاً. «يدعوني المدير لاجتماع ليساعدني على إيجاد مكان آخر». علينا المغادرة، ولنستغل اللحظة طلبنا منه الذهاب بالمترو. «بالمetro؟ هذا أمر استثنائي، لأنني لم أستقله منذ عشر سنوات، ولكن، إذا شئتما ذلك...».

وكما انغمسنا في بيت أوي في كتاب انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة! انتقلنا في المترو إلى أحد مشاهد القفزة المميتة، وهو عمل مستوحى من الهجوم الإرهابي باستخدام غاز الأعصاب الذي أثار

تعبيره هذا جيّداً جداً بحيث إنه أصبح مؤلفاً ناجحاً. يعلّق الكاتب بحبور: «بعض ألبوماته حققت مبيعات أكبر من بعض كتبي. هذه مقطوعة ألفها في ذكرى ميلادي السبعين في كانون الثاني من العام 2005، وكانت هذه طريقتي لتحفيز أبيه ليتابع كتابته، ويبقى سعيداً بالرغم من أحواله السبعين. لطالما شجع كل منا الآخر، هو بالموسيقى وأنا بالكتابة. في الحقيقة، إنني أعرف ما يجول في أعماقه بفضل موسيقاه». يأخذ أوي كتاباً من مكتبته ويقرأ لنا

بالإنكليزية جزءاً من قصيدة ميلتون لليك: «انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة! واجهوا بجباهكم المرتزقة الجاهلين! هناك مرتزقة في المعسكرات والبلاط والجامعة: يمكنهم، لو كان الأمر بيدهم، الإطاحة بالفكر إلى الأبد وإطالة الحرب المادية. هذه هي الرسالة التي أحبُّ نقلها إلى الشباب. أنا ضد مبدأ





انهار وهمه وزال. كما رأيت قدرة الشعب على قيادة البلاد بطريقة ديمقراطية والتصويت لبديل من اليسار. هذا أمر تحسدون عليه، لأن أحزاب اليسار في اليابان ضعيفة جداً؛ فمقاعدكم في البرلمان قليلة جداً وهم آخذون في الانحطاط». الإرهاب والحرب والعلاقات الشخصية المدمرة: العنف موجود دائماً في أعمال أوي. «أتمنى ألا يُفسّر ذلك خطأ. لستُ أتغنّى بالعنف، بل أعكسه بقدراتي ككاتب بالطريقة الأكثر واقعية، وبشكل موضوعي كما لو أنه فيلم وثائقي، كي يتساءل القارئ بعد ذلك عن المكان الذي يأخذنا إليه ذلك». وماذا عن الجنسية؟ «إنها مجموعة جداً في بلادي، ولا يعبرون عنها بحرية؛ الحياء كبير. أنا أتحدث عن جنسانية سعيدة حيث يتحرر الشباب ليعبروا عن أنفسهم بشكل كامل عن طريقها. الموضوع أكثر وضوحاً في كتيبي الأولى، لأنني الآن بعمرى هذا، لم يعد الجنس يقصّ مضجعي، أليس كذلك؟». وصلنا إلى الفندق الذي رفض استقبال كاتبنا، ويدعى سيتشيري هيات، وهو البناء الفخم الذي صُوّر فيه فيلم صوفيا كابولا الشهير ضائع في الترجمة. في المفاوضات «التي لا يمكننا حضورها» مع إدارة الفندق «السبب برأيهم هو أن

الرعب في المدينة في العام 1995. هل تجاوزوا ذاك الخوف؟ «لم يعد الناس يفكرون في ذلك. ما يقلقنا الآن هو زلزال كبير مرتقب يبدو أنه سيقع في طوكيو. وفقاً لحسابات الخبراء هناك احتمال نسبته 70 بالمئة بوقوع هذه الكارثة التي قد تتسبب بمقتل ثلاثة عشر مليون شخص خلال الأعوام الثلاثين القادمة». وصل القطار؛ كانت إحدى عرباته وردية اللون، وهي «للنساء فقط» نظراً إلى أن التحرشات التي تعرّضت لها بعضهن في أوقات الازدحام قد تحولت إلى مشكلة. لذلك جلسنا في عربة كل ركابها من الذكور. كان بعض المسافرين يشربون مزيجاً من الفيتامينات، فيما نام الكثيرون. يتابع أوي حديثه قائلاً: «هناك هجوم إرهابي أذكره كثيراً هو هجوم 11 آذار في مدريد، لأنني سافرتُ إلى إسبانيا بعد ذلك بأيام قليلة لأقدم أحد كتيبي. كان تصوّرني عن الإسبان أنهم أشخاص مرحون جداً، يحبون الاحتفال وقلوبهم شغوفة، ويضحكون كثيراً. الخلاصة أنه بلد ملئ بالشمس والنور والنشاط الصاخب. وإذا بي

بصمت وحزن، وقد ذكرتني تعابيرهم القاتمة بدون كيشوت في الفصول الأخيرة من الكتاب، حين



مرغوبة جداً لأنها تمنح راتباً تقاعدياً. أنا رفضتها، ففي صغري رأيت كيف بجلوا الإمبراطور في إطار قومي قوي جداً، وهذا يخيفني لأنه يناقض الديمقراطية. بالنسبة إليّ كان رفض هذه الجائزة كرفض سلطة الإمبراطور في الاعتراف بأعمالي ومنحي جائزة. من هو ليقول إنني كاتب جيد؟ بالرغم من أنني رفضتُ الراتب ذاك إلا أن جماعات من اليمين المتطرف جاءت لتحتج أمام منزلي، فصاحوا: أنت لست يابانياً! لم أذنك كبيرتان إلى هذا الحدّ ما دمت لا تسمع؟ حينها خرجت زوجتي مستاءة وصرخت بصوت يفوق صوت الميكروفونات يا ذوي القضبان القصيرة! وقد أثر هذا التعبير بابني كثيراً، حتى إنه حفظه، وأخذ يردده لبعض الوقت حتى في مناسبات غير ملائمة. إنّ معبد آساكوسا المزدهم بسبب حركة السياح والصالحين «مكان هام جداً للصالحين. لستُ منهم. لكنني في صغري اعتدتُ سماع القصص المشجعة من أمي وجدي. كما قرأت الكتب المقدسة للأديان السماوية، وقرأت بليك ودانتي». يناصر أوي التدين الخاص الذي يرمز إليه هذا المكان، على عكس التطرف القومي لمعبد ياسوكوني للشيتو. بعد مغادرة المعبد أخذنا أوي إلى

اللقاءات السياسية ممنوعة في هذا الفندق. لكنني سعيد لأنهم قد تكلفوا عناء إيجاد مكان بديل لي، وهو أفضل حقيقةً، وأعلى بعشر مرات. فاجأتنا اللبقة الزائدة وسيل الابتسامات التي حُلّ بها النزاع، لكن مترجمنا جوردي تورديرا أكد لنا أنها الإجراءات المعتادة.

أمام بناء الحكومة الضخم القريب من الفندق يتابع أوي حديثه عن علاقته بالألم: «منذ صغري وأنا أهتم بكيفية استطاعة جسمنا المحدود الإحاطة بالمعاناة. اعتدتُ الذهاب لصيد السمك في صغري، وكنت أراقب السمك وهو يتحرك بشدة معلقاً بالخطاف. كان يعاني الفطائع بصمت: لا يصرخ. ذاك الصبي الذي كتته فكر: يا له من ألم لا يُعبّر عنه! كان هذا الدافع الأول لي كي أصبح كاتباً، لأنني اعتقدت أننا نحن الصغار كذلك يمكننا أن نجعل غيرنا يفهمنا جيداً. أصبحتُ كاتباً لأعكس ألم سمكة، واليوم أشعر أنني خبير في التعبير عن الألم الإنساني، والذي أحاول التطرق إليه بأدق ما يمكن». في طريقنا إلى معبد آساكوسا البوذي المزدهم، يدرك أوي أن اليوم هو يوم الثقافة، حيث يمنح الإمبراطور جائزة لمن سلك طريقاً ثقافياً نموذجياً. «وهي جائزة

مشرب تقليدي! «لنشرب قليلاً». وبالرغم من تحديق الجالسين إلى الطاولات المجاورة إلينا، تجنبهم أوي من خلال الجلوس إلى إحدى الطاولات عند الزاوية وظهره يواجه الجالسين. «في السابق، كنت أذهب إلى المشارب كثيراً مع عاملين في دور النشر. لكن، غالباً ما كان الأمر يفضي إلى مشاجرات لأنهم كانوا يقولون لي إن طريقتي في الكتابة ليست جيدة، وكان هذا يغضبني. عيّرنني الكتاب الأكبر سنّاً بذلك...». وشيئاً فشيئاً تفرغ زجاجة الشراب فيما ضوء النهار يفارق شوارع طوكيو. عند خروجنا من المشرب قرّر أوي أن يعود إلى المنزل بالمترو بمفرده. ولكن ألم يقل لنا إنه لا يستقلّه أبداً؟ «في شبابي، حين تنقلتُ في وسائل النقل العامة كنت أستغل الطريق لأكتب مذكراتي. أحب اليوم أن أتذكر تلك الأيام. سأركب المترو، وأكتب كل ما حدث معي اليوم وأنا برفقتكما».

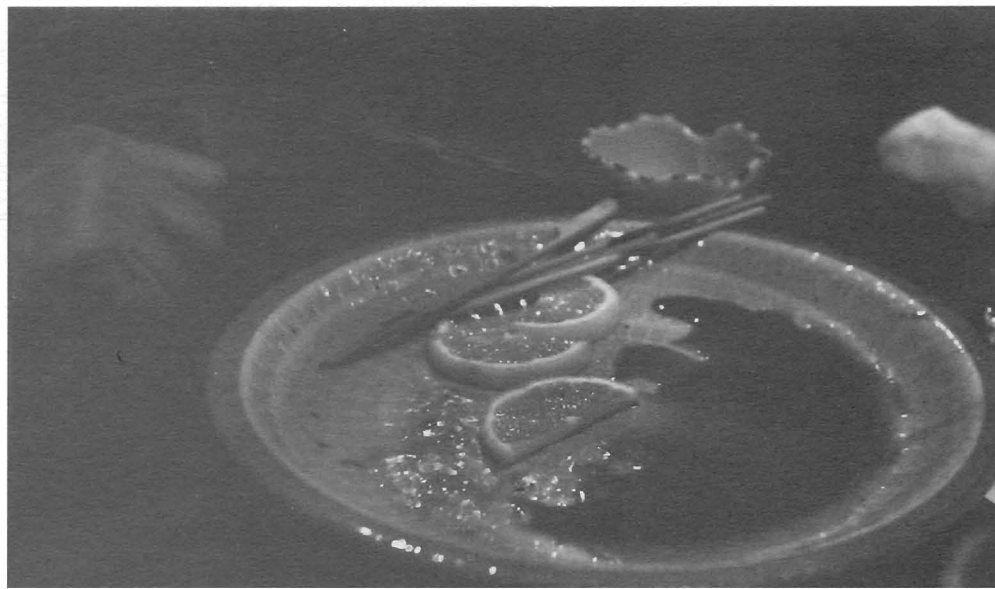


القضية: انهضوا يا شباب الحقبة الجديدة!

يذكر أوي أنه في العام 1963، حين عاد إلى هيروشيما، «اكتشفت أنني لن أستطيع الكتابة إطلاقاً من دون الإشارة إلى ابني، وحوّلته إلى أساس عملي». في الحقيقة، نجد أن رواية استيقظوا يا شباب الحقبة الجديدة! هي قصة العلاقة الصعبة بين أب وابنه، والتي تتضمن عنفاً ولحظات متعبة جداً، إضافة إلى مشاهد مضيئة يشرق فيها الحب الأبوي المتبادل بقوة.

ويعكس، أولاً، عملية قبولي لابني، ومن بعدها كيفية توصلنا إلى الشعور بالسعادة معاً. الأحداث كلها واقعية، لكنها تُقَصّ بطريقة روائية». بالإضافة إلى هيكاري فإن مركز ثقل الرواية الآخر هو أبيات الشاعر الرومانسي الإنكليزي ويليام بليك: «أرسم عالمين: عالم قصائد بليك وعالم عائلي. فهما يتراكبان، وعن طريق لعبة المرايا يتحدان ليكونا واقعاً واحداً، لأنه من الصعب أن نرسم حداً بين ما نعيشه وما نقرأه».



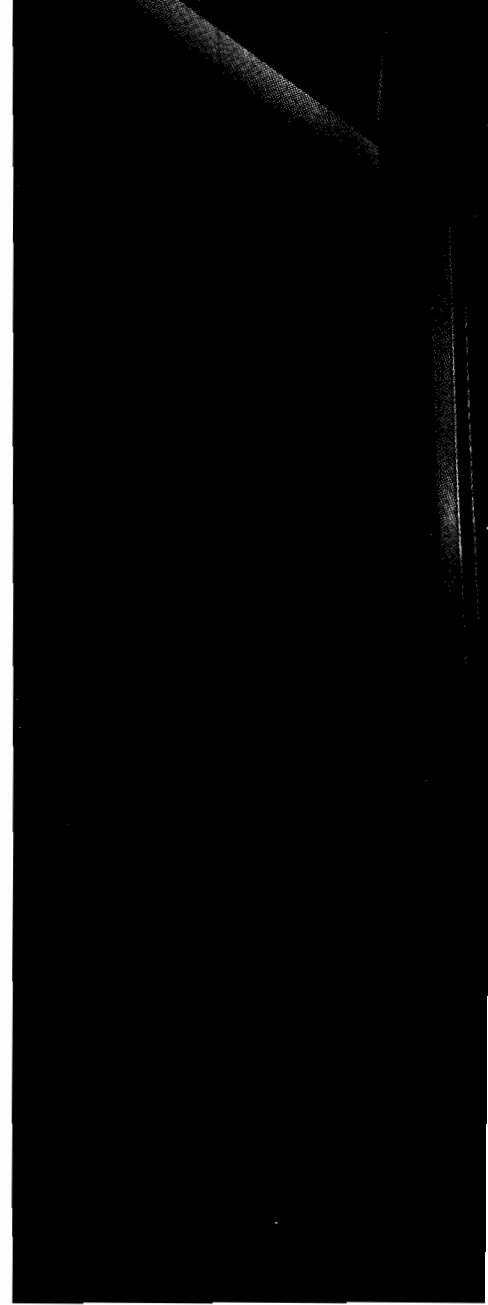


ديريك وولكوت



الافتخار بالمزيج.

مقابلتنا مع ديريك وولكوت - الأديب الذي
أحيا الشعر الإنكليزي بإضافة موسيقاه
الكاريبية إليه - هي الوحيدة التي لم تتم في
مسكن الكاتب. لقاءنا الأول به كان في اليوم
العالمي للشعر الذي نظمته مؤسسة أمير
أستورياس والأونيسكو في أوفيدو في العام
2006.





جزيرة مولده، فهو إذ يضع أعمال هوميروس في قالب كاريبيّ في كتابه أوميروس (1990)، فإنه قد أعاد كتابة الأوديسا - من منشورات فيزور - بطلب من شركة شكسبير الملكية، من دون تغيير مشاهدتها أو شخصياتها. وبمناسبة تقديم عرضها الأول في مدينة ميريدا الإسبانية، أضاف وولكوت شخصية جديدة هي البحر المتوسط، أدتها لوثيا بوسيه.

وقد شرح لنا وولكوت سبب إعادة كتابة الأوديسا قائلاً: «لأن بحري إيجه والكاريبي يشتركان بالكثير، ففي كل منهما تطفو سلسلة جزر متقاربة جداً، وهو ما يسمح بالسفر من جزيرة إلى أخرى، وبالتالي ينتج تبادلاً مثيراً. يقوم كتابي بشكل أساسي على البحر: من المحتمل ألا يبقى شيء من القصة لو انتزعناه».

يشكل كتاب الكاريبيّ بالنسبة إليه وحدة متكاملة بغض النظر عن اللغة التي يكتبون بها. «بلا شك، إن كارلوس فويتس وغابرييل غارثيا ماركيث كاتبان كاريبيان أيضاً. تمثل العالم نفسه، فقد عشنا معاً العبودية والاحتلال والمستعمرات... وهي خبرات

مقابلتنا مع ديريك وولكوت - الأديب الذي أحيا الشعر الإنكليزي بإضافة موسيقاه الكاريبية إليه - هي الوحيدة التي لم تتم في مسكن الكاتب. لقاءنا الأول به كان في اليوم العالمي للشعر الذي نظّمته مؤسسة أمير أستورياس والأونيسكو في أوفيدو في العام 2006، وهو لقاء أتاح لنا الفرصة لإلقاء الضوء على بعض المبدعين الذين نادراً ما يُسمع صوتهم في خضم الجلبة الكبيرة التي تثيرها يومياً العروض الشعبية. في العام 2009، وبعد محاولة فاشلة لزيارة جزيرة سانتا لوثيا، زار وولكوت برشلونة حين دعاه نادي بن (PEN Club). حينها استقبلنا في غرفته في الفندق وتنزه معنا قليلاً في وسط المدينة.

في عروق ديريك وولكوت تجري دماء إنكليزية وهولندية، ودماء العبيد السود. وُلد هذا الرجل المبتسم دائماً، ذو طباع عازفي الجاز اللاتينيين، في العام 1930 في جزيرة سانتا لوثيا، ويعيش متقلاً بين الكاريبي والولايات المتحدة. جمعت أعماله المسرحية والشعرية بين التراث الكلاسيكي وثقافات

«لكنني أسمع الراديو، وأشاهد التلفاز، وأقرأ الجرائد، وأتحدث إلى أصدقائي... وأدرك كل الألم في العالم، وخاصة ما تفعله الدول الأغنى في العالم، والتي تترك ملايين الأشخاص يموتون جوعاً بينما تتخلص من الطعام أو تحرقه لتبقى الأسعار عالية». ثم يضيف قائلاً: «لا سوء في السياحة، فأنا أيضاً أحب الفنادق الجيدة. لكن أصحاب الفنادق المعقدين يحكمون على الشباب في جزرنا بأن يصبحوا نُدلاً أو أن يسلبوا السياح، وإلا فإنهم يعرضون عليهم أعمالاً بديلة أعتبرها نوعاً آخر من العبودية».

ثم يشرح لنا قائلاً: «إن الأدب الكاريبي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية؛ حين هاجر الكتاب إلى إنكلترا، ونشروا كتبهم هناك. عندها، تم للمرة الأولى تحليل المجتمعات التي جاءوا منها وتحليل أحداثها التاريخية. كان هؤلاء الرواد أول من أطلقوا تسميات على ما يحيط بهم، فوضّحو آراء أشخاص لم يتمكنوا من التعبير عن أنفسهم حتى ذلك الحين. أصبتُ أنا ونايول برعشة هي مزيج من الخوف والمتعة حين

دمغتنا بصفة الكتاب؛ نقصّ الحكاية ذاتها. حين قرأت لغارثيا ماركيث للمرة الأولى حسبتُ أنه لا يفقه شيئاً. لكنني لاحقاً عدت لقراءة كتبه، ووجدت الأمر مختلفاً جداً: اكتشفتُ مزجه بين الأساطير الإفريقية والإيقاع الكاريبي بلمسات لاتينية، وأخذ احترامي له يزداد شيئاً فشيئاً». ولكن، ما هو الكاريبي؟ «نحن محظوظون: ليس لدينا سلطة اقتصادية أو سياسية، وليس لدينا نفط أو أي شيء آخر. ولذلك، فإن قوتنا مصدرها الفن وليس السياسة. أسوأ ما في الأمر هو الضغوط الخارجية التي تدفعنا لكي نصبح ما يريد غيرنا أن نكون. في دمي من إفريقيا ما يعادله من هولندا؛ هما متساويان. لقد اتهموني بأنني لست أسود بما فيه الكفاية لأنني أقول هذه الأمور، لكنني لا أريد أي ضغط من إفريقيا أو من إنكلترا. أنا كاريبي: إفريقيا بعيدة جداً عني. اللغة مختلفة والعادات مختلفة، ومرجعيتنا لا تقع في أي مكان في الخارج، وإنما في كينونتنا نحن القاطنين هناك اليوم». يؤكد أن حياته في الجزيرة «هي النعيم بحدّ ذاته»، ويضيف:





المستقبل - على التّخلّي عن تقنيات الكتابة، لكن هذا السلوك في قمة اللامبالاة بالنسبة إلى الجمال واللعن. يقول باسترنك: إن الشعراء ليس لديهم الوقت للأصالة. إن الاحتذاء بما هو جيد هو ضرب من الابتكار، فلن يكون هناك يوماً أمران متطابقان، مهما كتبت، لأنك ستختلف دوماً عن غيرك وسيصبح ما كتبتة أمراً شخصياً. يقولون إن كل شيء مسموح، اللحن مات والموسيقى ماتت والإيمان مات... وكل شيء مقبول، لذلك يزداد عدد أشباه الشعراء كما ازدادت سياسة ما يشبه الديمقراطية، وهكذا نعاني من جرّاء قصائد فظيعة وحروب وقائية لا نتجرّأ على انتقادها لأن كل شيء نسبي طبعاً!.

في أوفيدو، وبينما أخذ يمزح مع صديقه سوجينكا، أو مع السوري أدونيس، أشار إلى حضور الألفية الشعرية وعلق قائلاً: «إن اجتماع الشعراء لا تمكن مقارنته بمؤتمر لأصحاب البنوك أو الشركات أو أطباء الأسنان. السبب الرئيس هو أن همومنا تتخذ نظاماً أكثر تقدماً. لاحظ أن أول ما يفعله الديكتاتور

وصفنا عن طريق الأدب العالم الذي أتينا منه للمرة الأولى. لا شيء يمكن مقارنته بهذا».

تلقى وولكوت، كما يقول: «تربية إنكليزية جيدة جداً وعالية المستوى، كما لو كنتُ شاباً إنكليزياً. أردتُ أن أصبح شاعراً لأن أُمّي اعتادت أن تقرأ لي أبياتاً من الشعر، فتبنّت النماذج التي وجدتها: أودن، ماكنيس، ديLAN توماس. جيلي، كجيل أبي، تعامل مع النصوص الإنكليزية وكأنها تنتمي إلينا حقاً، فهي تقليد في لغتنا الأم، ولم نتساءل حول أي شيء آخر، ولم نرها بعيدة عنا أبداً، كما لم أشعر يوماً أنها غريبة عني. ما الذي علينا فعله؟ هل نتوقف عن قراءة شكسبير لأنه أبيض البشرة؟». يمكننا أن نجد في هذه التربية الكلاسيكية السبب في صرامة وولكوت في ما يتعلق بقوانين الشعر، على عكس التوجهات المعاصرة. ويصر قائلاً: «المهم في القصيدة هو طريقة التعبير عن أمر ما. أعلم أن قولي هذا يجعلني أبدو قديماً كالديناصور، لكن ذلك لا يهمني. أعرف أن الكثير من المدرسين اليوم يحثّون طلابهم - شعراء

هو الإطاحة بالشعراء، لأنهم لا يخضعون لقوانينه ويتحدّون السلطة. يقول دانتى: إن الحب هو ما يحرك الشمس وغيرها من الأجرام. يثق الشعراء بذلك ولا يفقدون حماسهم. الآن، وهنا في إسبانيا، نتمون بالسلام، وحين لا تجدون الكثير لتقلقوا بشأنه يبدو الشعر نشاطاً غير مفيد. ولكن، في أوقات الحروب والأزمات، هناك أمور لدى الشعب يحتاج إلى التعبير عنها، وعندها تبرز أهمية الشعر. ومع أن نجاح قصيدة جيدة لا يزيل العذاب، إلا أن المفاجئ هو أن الجمال يمكن أن يولد من الذعر».

كان أبوه رساماً، وابناً لصاحب مزرعة في باربادوس. مات في الرابعة والثلاثين من عمره، حين كان ديريك يبلغ من العمر عاماً واحداً. كتب الشعر أيضاً، ونظم عروضاً مسرحية في جزيرة سانتا لوثيا المجاورة، وهو ما يفعله وولكوت حتى الآن، حيث ينتقل بين إخراج الأعمال المسرحية في مدن - كلندن ونيويورك - وبين إدارة شركته القديمة ترينيداد. في الحقيقة، تقدّم أعماله على مسارح كاريبية أكثر من أي مكان آخر، وهو ما يثير حيرته، فيقول ساخراً: «بما أنني لا أنتهي إلى الوسط الثقافي، فإنني حين أذهب إلى لندن أو نيويورك لا يزالون يسألوني أهذه مسرحيتك الأولى؟ وقد كتبت أكثر من ثمانين مسرحية! أعرف ممثلين استثنائيين يمكنهم أن يصلوا إلى النجومية العالمية في أماكن مثل برودواي أو غيرها... لكن أحداً لا يعرفهم».

أما أمه أليكس فكانت مدرّسة، وقدمت الدعم اللازم لطموح ابنها الأدبي: «ديواني الأول كان طبعة خاصة. في العام 1949 نشرته أمي، وكلفها الأمر 200 دولار». ذهب وولكوت إلى جزيرة ترينيداد المجاورة لأن الحركة الثقافية فيها أكثر نشاطاً، وفي أحد الأوقات جمعت صداقة بفي أس نايول الذي تفصله عنه اليوم عدائية شديدة دفعته في أيار عام 2008 لأن يقرأ علناً قصيدة عنوانها النمس يقول في مطلعها: «لقد عضوني، وعليّ أن أتجنب الالتهاب/ وإلا سأموت كقصص نايول/ اقرأ رواياته الأخيرة وسترى/ ما أعنيه». كان نايول قد هاجم قبلاً أعمال

وولكوت متدنية المستوى على حدّ تعبيره، والذي بدوره يتهمه بالنظرة العنصرية إلى أعماله.

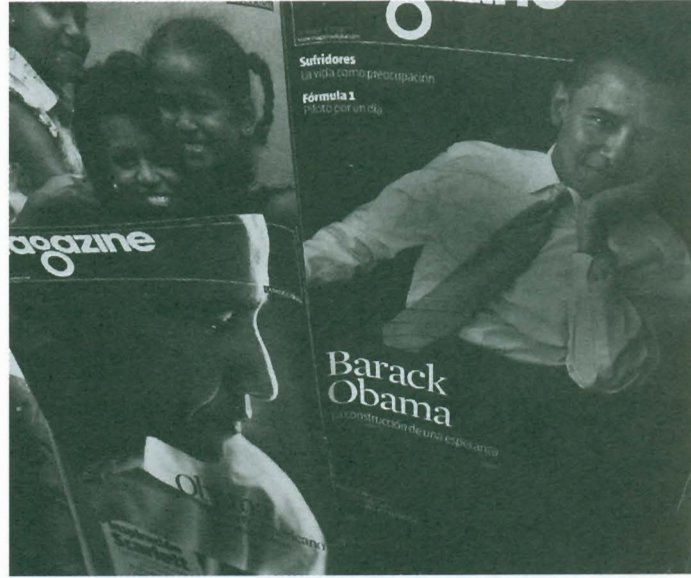
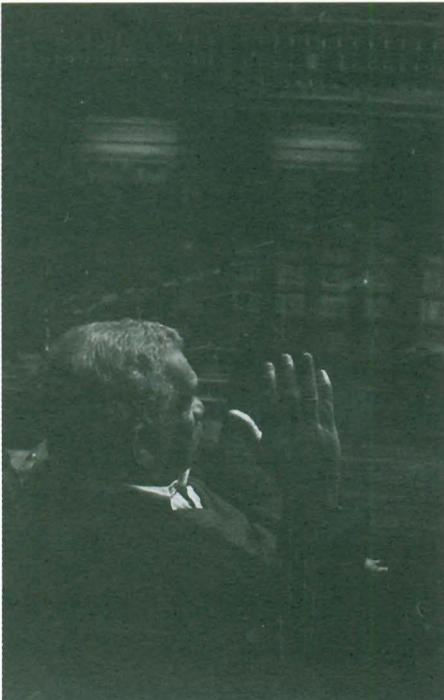
بجميع الأحوال، بدا وولكوت قليل الاهتمام بكل ذلك الجدل، فرأناه أكثر انشغالاً بتنظيم العرض الأول - الذي قدّم في تشرين الأول عام 2008 في الغلوب في لندن - للأوبرا الأولى من تأليفه، دفن تيباس، وهي مأخوذة عن نصوص لأديب آخر حائز على جائزة نوبل، وهو صديقه الإيرلندي سياموس هيني الذي يستقي مجدداً من الأدب الكلاسيكي، من أنتيغون لسوفوكليس. كانت الموسيقى التي تضمنت إيقاعات كاريبية كالكالييسو وحتى الراب، من تأليف دومينيك لو جاندر، من ترينيداد، حيث حوّل وولكوت أحداث تيباس إلى جمهورية في أميركا الجنوبية في القرن العشرين، نجد فيها التشابه بين كريونتي وتروخيو واضحاً تقريباً. بالنسبة إلى وولكوت: «أصعب ما في الأمر، إضافة إلى الاعتياد على أن يغني الممثلون بدلاً من الكلام، هو إنتاج لغة تنبض فيها نبرة إنسانية واقعية، بالرغم من فخامتها. هذا ما اعتاد الإغريقون الكلاسيكيون أن يفعلوه، وهو ما يحرك عواطفنا في أعمال شكسبير، فهم يخاطبوننا بكلمات تبدو بعيدة وقرينة في آن معاً».

إنه يحمل راية الخلاسية («في الأدب لا يوجد عرق صاف») ويعتقد أن «أي سياسة تعارض الهجرة عنصرية بطبيعتها». كما أنه يحارب الاعتقادات المسبقة في أوروبا الوسطى، حيث يتذكر قائلاً: «أوروبا نموذجٌ للتحضر، ولكنها أيضاً نموذج للبربرية. ليس هناك معنى في أن يعتمد بلد كبلدي على أوروبا في الوقت الذي لا يستطيع من فيها التفاهم مع بعضهم بعضاً. وإضافة إلى ذلك يدعون أننا معجبون بهم!». ويثق أن «أي ثقافة تضم عناصر عرقية مختلفة، حتى لو أفسدت عروق أخرى، هي أكثر غنى دائماً». مع ذلك، «لا يمكننا القول إن الأمور تتحسن، ولا إن الأعراق تختلط، فمآسي القارة الإفريقية مثال على ذلك، وهي تكرر مستمر لشّر البشر. لم أفكر يوماً في أن المحرقة ستتكرر، لكن الفظاعة تكررت في كوسوفو، ولا تزال تتكرر كل يوم. إن جزءاً من التزام

الشاعر يقتضي تصوير هذه الفظاعة». كما يعتقد أن «العنصرية لطالما وُجدت في أوروبا، ولكن لا يخطر لأحد منا أن يتساءل عن العنصرية في الكاريبي أليس كذلك؟ يدعون في إيرلندا أنهم لم يواجهوا يوماً مشكلة معاداة اليهود. كلا، بالطبع! فهم لم يدعوا اليهود يدخلون يوماً! في هذه الحالة، لن تكون هناك عنصرية في فرنسا أيضاً لو لم يسمحوا للجزائريين أو للأفارقة بالدخول».

يحتقر وولكوت المبادئ المستعملة، فهو مثلاً يؤكد قائلاً: «بالنسبة إليّ، حين سمعتك تتحدث عن الاندماج، اعتبرت أنك تستخدم كلمة أجنبية. تفاجئك فكرة اختلاط الناس، لكننا لا نتحدث عن الاندماج بصفته استعماراً سياسياً، بل هو أمر نعيشه يومياً في الشارع، حيث تتعايش عائلات صينية وهندوسية وإفريقية بشكل طبيعي، فهو ليس تعبيراً نطالب به، وإنما نصف به. أنا لا أعرف عن نفسي على أنني ضد البيض، بل أنطلق من المزيج كحقيقة موجودة منذ نشوئنا».

كيف غيرتك جائزة نوبل التي حزت عليها في العام 1992؟ «يسعدني أنني حصلت عليها حين أمسيت ناضجاً بما يكفي كي لا تؤثر فيّ سلباً. حين



القضية: نحو ولايات متحدة جديدة

نسأل وولكوت عن الالتزام الاجتماعي في أعماله فيجيبنا قائلاً: «الشعر وطن أسمى. لا يمكن للكاتب أن يتهرب من مسؤولياته الاجتماعية، لكننا في الوقت نفسه لسنا مؤهلين لنعطي رأينا في كل شيء كما يعتقد الكثيرون. وبالرغم من أن عملي هو صياغة الكلمات والجمال، إلا أنّ هناك صحفيين يُخضعونني لاستجوابات جذيرة بخبير في العلاقات الدولية. بصفتي شاعراً أستمع ذاكرتي محولاً إياها إلى حنين، إلى عنصر عاطفي». الخلاصة، إن وولكوت يحاول التوفيق بين حريته الشعرية وارتباطه الشديد بالتاريخ.



هذه الطرائق الدنيئة لتشويه سمعته» التي اتبعها خصومه الأكاديميون. رافقته زوجته الحالية إلى أوفيدو، وهي بابتسامتها الدائمة ولطفها لم تتوقف عن مشاركته المزاح. وبالرغم من ذلك، حين تطرقنا إلى حياته الخاصة في لقائنا في برشلونة، اكتشفنا جرحاً عميقاً عند الكاتب، فقال: «مجرد فكرة أنني تزوجت ثلاث مرات تؤكد أنني لست زوجاً جيداً، أليس كذلك؟ لعله أقل جزء يعجبني في حياتي». على كل حال، هناك مشكلات أخرى؛ في كل من أوفيدو وبرشلونة حدثنا وولكوت من دون أن يحصل على أي مقابل مادي.

تحدث وولكوت أيضاً عن صوت الغروب، وهو كتاب يجمع مقالات مختلفة من تأليفه، فيحلل، مثلاً، أعمال كتاب مختلفين من أصدقائه كجوزف برودسكي أو روبرت لويل أو سياموس هيني. «أستصعب مصادقة كتاب يبالغون في أخذ شهرتهم على محمل الجد. ستدوم صداقتي مع هؤلاء الكتاب لأنهم متواضعون في أعمالهم، وأيضاً لأنهم يمتلكون الكثير من روح الدعابة وبعيدون عن التصنع». يذكر من بين كتّابه الإسبان واللاتينيين المفضلين لوركا وماتشادو وأليكساندر ونيرودا وفايتيخو.

تحصل على جائزة النوبل يصبح هناك اهتمام كبير بأعمالك، لكن المهم ألا تدعه يؤثر في عملك. لحسن الحظ، إنني أعيش جزءاً كبيراً من السنة معزولاً في سانتا لوثيا، وهو ما يوفر لي الكثير من السكينة والوقت لأعمل. وفي كل مرة يجلس فيها المرء وأمامه الأوراق البيضاء يعود إلى نقطة الصفر، فتزول أهمية ما سبق».

لم يكن الوقت الأفضل لنزوره في سانتا لوثيا، لأن وولكوت أبدى استعداده لاستقبالنا في بروفا عامة لأحد أعماله في ترينيداد من جهة، ولكنه من جهة أخرى طلب منا عبر مكالمات هاتفية لاحقة أن نعوض له لاحقاً اليومين اللذين كنا سنمضييهما معه، معلقاً: «لأن وقتي ثمين جداً، فمع أنني أحب أن أمضي الوقت معكم إلا أن ذلك سيعيقني عن العمل». (يجدر التوضيح أنه كان الطلب الوحيد الذي رفضناه في مقابلاتنا مع الأدباء الفائزين بجائزة نوبل). على كل حال، لم يكن العام 2009 عاماً جيداً بالنسبة إليه، حيث رفض التقدم لمنصب بروفيسور في أوكسفورد بسبب الفضيحة الجنسية التي سببتها رسائل من مجهول تتهمه بالتحرش الجنسي ب طالبة من هارفارد في العام 1982. أبدى وولكوت الاستياء أمام

أورهان باموق



«لست مختبئاً، أنا أعيش في
إسطنبول».

تحوّل أورهان باموق - الكاتب الذي
استطاع أن يحمل القراء من شتى أنحاء
العالم ليتجولوا في شوارع إسطنبول ويشعروا
بروحها - رغماً عن إرادته إلى رمز للحرية،
فبعد تهديدات القوميين المتطرفين من
الأترك، يجد الدعم في الدعاية لیتابع إنتاج
عالمه.





كان طويلاً، طويلاً جداً وباسم الثغر.
أول صورة تنطبع في ذاكرتك عن شقيقته هي
صورة البهو، حيث يمكنك أن ترى كل أبهة البوسفور
من خلال زجاج عريض يسود غرفة الطعام حيث
يشعر الزائر للحظة أنه مولود حديث يمد رأسه إلى
العالم. كانت الشقة التي استقبلنا فيها هي الاستوديو
الخاص به، أما منزل العائلة في حي نيسانتاسي،
والمبني في حديقة قديمة لأحد الباشاوات، فهو على
بعد «28 دقيقة مشياً من هنا». تمثل هذه الدقائق
الثماني والعشرون الكون الذي يعيش فيه باموق، وهو
الذي عاش «دائماً في إسطنبول، بل حتى في المنزل
نفسه منذ خمسين عاماً. لطالما قالت لي أمي لم لا
تخرج قليلاً؟ لكنني ظللتُ في المنزل. أفضل حتى

في الطائرة التي تحملنا إلى مطار أتاتورك،
كان هناك أربعة من بين كل خمسة مسافرين يقرأون
الكتاب نفسه: إسطنبول. مدينة وذكريات؛ العمل
الأخير لأورهان باموق. ترك رجل جالس إلى جانبنا،
في العقد الخامس من عمره الكتاب لفترة وجيزة فوق
حقيبة أعماله، وابتسم لدى رؤيته مضيق البوسفور من
نافذته ومآذن الجوامع مستدقة الرأس.

في اليوم التالي، تنزهنا في حي سيهانغير حيث
كتب باموق كتابه إسطنبول ومعظم أعماله الأخرى،
وعند الساعة الموعودة صعدنا السلم إلى حيث توجد
شقيقته (إذ لم يكن بإمكان أحد استعمال المصعد
باستثناء أولئك الذين كانوا يملكون مفتاحاً خاصاً به)
فوجدناه بانتظارنا أمام الباب كصالح خير في معتزله.



في الأرشيف بعد جلسات محاكمة عدة، لكنه تحت أنظار القوميين المتطرفين من الأتراك، لذلك يحتاج إلى حارس شخصي حين يخرج إلى الشارع، ويقول متحسراً. «مع أنني لا أحب ذلك، إلا أن الحكومة تعينهم لي. لا أريد أن أبالغ في ما يحدث؛ ليسوا موجودين الآن لأن هذا مكان عملي».

لا يريد باموق «إضاعة الوقت في إنكار الأكاذيب التي تنشرها صحافة المشاهير»، لذلك لم يتحدث عن الخبر الذي نشرته صحفه في كل أنحاء العالم عن نفيه المزعوم إلى الولايات المتحدة. «أنا هنا، أعيش بصحة جيدة وأقفز، كما تريانني، لست مختبئاً. ما الذي حدث في شباط؟ اغتالوا صديقي الصحفي الأرمني هرانت دينك، وساد جو ضبابي

الآن أن أبقى هنا وأكتب. هناك كتّاب غيروا لغتهم أو أمتهم أو ثقافتهم أو بلادهم، أما أنا، فلطالما عشتُ هنا في الشارع نفسه، أشرب بعيني المنظر نفسه، وأحصى القوارب التي تمر. أنظر عبر هذه النافذة، وأشعر للحظات أنني لا أحتاج إلى شيء آخر لأشعر بالسعادة».

عند سماعك قهقهاته العالية تكاد تنسى أن باموق مهدد بالموت، فمنذ أن صرّح عن أمر يمكن إثبات صحته بكل موضوعية وهو أن «أكثر من مليون أرمني وثلاثين ألف كردي قُتلوا على هذه الأرض ولا يتجرأ أحد تقريباً بالحديث عن ذلك»، أصبحت حياته جحيماً. فلقد اتهموه بتشويه سمعة الهوية التركية. وأخيراً، وبعد ضغط عالمي شديد، وُضعت قضيتته

ماذا سنفعل؟ سنخرج بمفردنا لأنهم، بجميع الأحوال، سيطلقون عليكما النار أولاً معتقدين أنكما حارساي الشخصيّان!». جعلنا نمر في طريق هادئ: إذ لم تكن هناك أماكن سياحية، ولا ازدحامات، ولا بازارات... اقتصرت نزهته معنا على شوارع حيّه حيث اعترضته العناقات وصيحات التشجيع والتصفيق بين الفينة والأخرى.

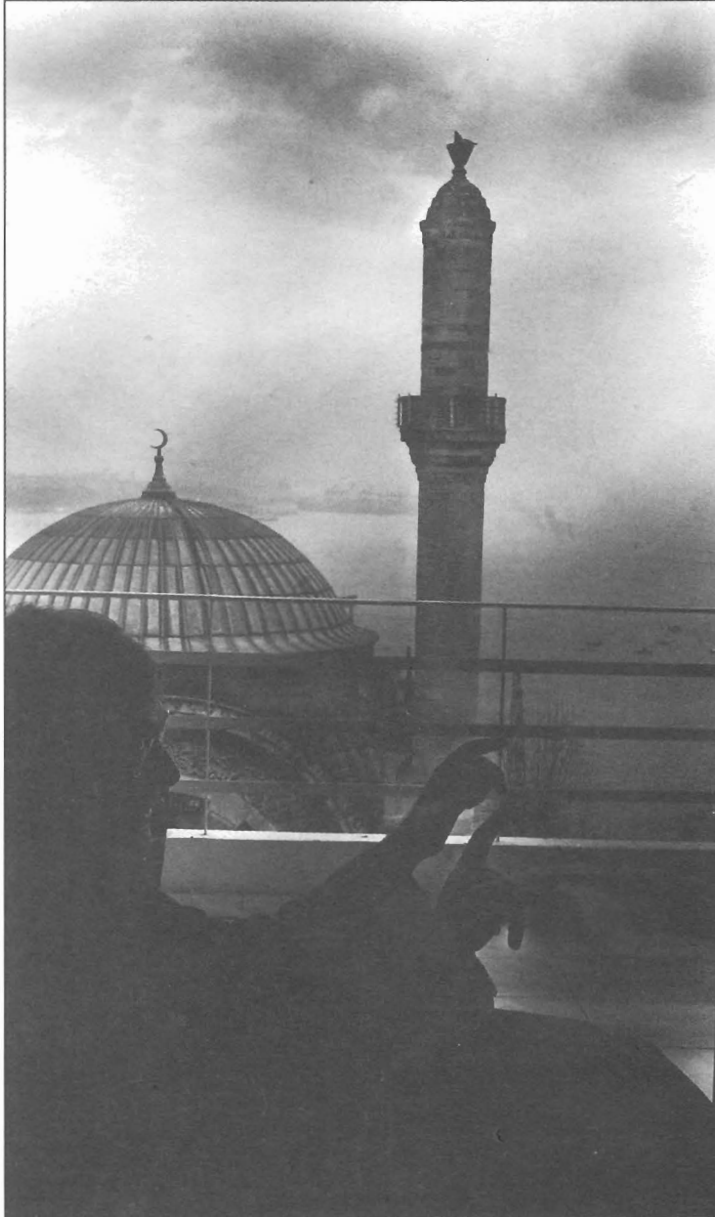
بجميع الأحوال، لم تُسكت التهديدات الكاتب، فيقول شاجباً: «قانون العقوبات التركي لا يزال يدين الإضرار بالهوية الوطنية التركية». ومع أن عدد الكتاب والصحفيين الذين يُحاكمون بسببه يقلّ بعد احتجاجات مؤسسات دولية قانونية... إلا أن القانون لا يزال موجوداً! هناك من ذهب إلى السجن، وهناك من تعرض للضرب بالبيض والحجارة، وهناك من اغتيل. هناك العديد من الكتاب الذين يتتابهم الخوف؛ علينا أن ندرس كيف تم التعامل مع الصحفيين الذين اغتيلوا في بعض الوسائط التي اعتبرتهم أهدافاً مقصودة. ظروف حرية التعبير سيئة في تركيا».

ثم يضيف: «استخدموني كما لو كنت سلاحاً قذافاً في خضم النزاعات بين الاتحاد الأوروبي وتركيا.

من القومية والعنصرية الشديدين. أخذ اسمي يتردّد بصفتي ضحية مستقبلية، وبعد الحديث إلى الشرطة قررت أنه من الأفضل أن أذهب لبضعة أسابيع إلى جامعة كولومبيا في نيويورك حيث أدرس بعض الصفوف، وذلك لأشعر بأمان أكبر، ولأتمكن من العمل بهدوء على كتابي الذي يكاد ينتهي. المهم أنني عدتُ بمجرد انجلاء جو العنف هذا. أنا أعيش هنا، ويمكنكما إخبار العالم بهذا، سيسعدني ذلك لأنني مستاء من صحف المشاهير التركية التي تحول الإشاعات إلى أخبار، ومن الصحافة الغربية كذلك لأنها تكرر الأخبار من دون التأكد من صحتها. هناك صحفيون يرغبون بكتابة جملة باموق في المنفى، فيفعلون ذلك ببساطة».

لا يبدو باموق منزعجاً، بل يحاول أن يرى الجانب الطريف في ذاك الوضع. وبينما كان يحضّر لنا الشاي في مطبخه الفوضوي كمطابخ الطّلاب، خططنا للقيام بنزهة في المدينة مع هذا الرجل السعيد. وحين أخبرناه عن خطتنا هذه تردّد للحظة ثم قال ضاحكاً: «هم... إذا أردنا القيام بنزهة، فعلينا الاتصال بالحارس الشخصي. لا، لا، أتعرفان

بيدي دائماً. حين يخيم الظلام يتتابني الجوع، فأذهب إلى المطبخ وأحضّر بعض المعكرونة، وأحضّر كأساً من الشراب، وبعد الطعام أعود إلى المائدة. لا أريد الذهاب إلى المطاعم، ورؤية أشخاص آخرين. كل ما أريده هو الكتابة؛ لقد تحوّلت إلى شخص انعزالي. أفضل الأوقات بالنسبة إليّ هي عند الساعة صباحاً، حين أراجع في السرير ما كتبت في الليلة السابقة، وأفكر في الرواية التي أرغب بكتابتها وأنا نشيط الذهن، وسعيد كالأطفال».



أرادت بعض الوسائط المثقف الملتزم الذي لا أمثله أنا حقيقةً. انتبها، لست نادماً على شيء مما قلته. غالباً ما يبدأ الجدل حين يقوم صحفي بطرح أسئلة عليّ. إذ أحاول الإجابة عنها بصدق، وربما بسذاجة، وبعدها تأخذ صحافة المشاهير التركية بعض الجمل وتبالغ فيها، وتبدأ الأخطاء. هذه اللحظات هي بمثابة اختبار لي؛ مثلما يحدث الآن. عليّ أن أتمكن من الحفاظ على كرامتي، فلا أريد أن أقول أنا خائف، سأختبئ تحت السرير. لكن فطرتي الأساسية ليست سياسية، بل أدبية: ما أرغب به هو أن أكون وحيداً في غرفة اخترع فيها القصص».

بينما كان يشتري الأراضي شوكي من بائع متجول، وهو يتذكر أن إسطنبول مسرح لكل الكتب، سألناه إن أغوته يوماً مدينة أخرى ليكتب عنها، فيعترف قائلاً: «هذا العام قمت بذلك للمرة الأولى، حيث كتبت استكشافات صغيرة عن نيويورك؛ المدينة حيث ألقى المحاضرات».

كتب باموق بتفرد عن الهوزون، وهي السوداوية الفريدة التي تعكسها شوارع إسطنبول. يؤكد قائلاً: «لا أشعر بالحنين، فكل ما يهمني هو الاحتفاظ به أضعه في كتيبي، وهكذا لا يضيع؛ هذا ما سأورثه إلى الأجيال القادمة. حسناً، عليّ ألا أكون نرجسياً إلى هذا الحد لأنني أخشى أن يمحو المستقبل أثر الكتاب الجيدين والسيئين على حدّ سواء».

ينام باموق عند الساعة الحادية عشرة كل يوم، ويقول: «لكنني مع التقدم بالعمر، لم أعد أستطيع النوم بشكل متواصل، لذلك أنهض بعد أربع ساعات كرّجل عجوز. عندها، أعمل لمدة ساعة وأنا بلباس النوم، ومن ثم أعود إلى السرير. أكتب بشكل متواصل، طوال اليوم، وأكتب

اعترف باموق في الشارع، أمام ملصق عن كرة القدم، أنه يشجع فنار بخشة، وهو من إحدى فرق المدينة الكبيرة الثلاث، إلى جانب غالاطا ساراي وبشكطاش. وفجأة، تحوّل الحديث من بطولة الدوري إلى السياسة: هل يجب على تركيا الدخول في الاتحاد الأوروبي؟ يشعر باموق «بعدم الرضا عن العملية. كل الأتراك غاضبون لأن الأمر لا يسير على ما يرام. وفي الوقت ذاته وبشكل متناقض، لعل عدم حصوله يسعد الأتراك أيضاً. مع الوقت، تتناقص رغبة أوروبا بتركيا، ورغبة تركيا بأوروبا».

بالرغم من المقاومة الشديدة لبلاد مثل فرنسا، يذكرنا باموق قائلاً: «في إسبانيا، يشعر المثقفون وغيرهم من الناس أنهم أشبه بالأتراك منهم بالفرنسيين. وأفضل تعليق سمعته كان في برشلونة، حين قالوا لي وأنا مع خوان غويتيسولو أورهان: بما أنهم قد ضمونا إليهم، فسيأتي دوركم أنتم أيضاً. أتمنى أن يحصل ذلك».

- ولكن، هل تشعر أنك أوروبي؟
- لا أدري. لا أفكر في الأمر بهذه الطريقة؛ أشعر أولاً بأنني تركي، والتركّي يشعر بأنه أوروبي وغير أوروبي في آن معاً. أعتقد أن أوروبا لا تقوم على المسيحية، وإنما على النهضة والتنوير والحداثة والحرية والمساواة والأخوة... هذه أوروبا التي أحبّها. أثق بهذه القيم، وأريد أن أشكل جزءاً منها. لكن، لو أن أوروبا هي لحضارة المسيحية، فأنا آسف جداً يا صديقي... نحن الأتراك سنبقى خارجاً».

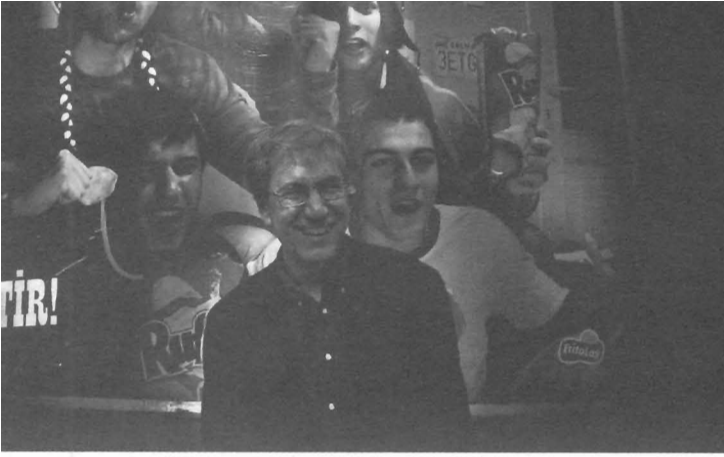
يجمع باموق الكتابة مع المصادقية الجذرية التي تجعله يعترف أنه من المحتمل أن يعاني من الغيرة وغيرها من الخصال السيئة في شخصيته، والتي سببت له مشكلة مع أخيه. «قال إنه لم يحب الأجزاء من إسطنبول التي ذكرتُ فيها ضربه لي. أنا أقدره وأحترمه، فهو شخص جيد ومؤرّخ اقتصادي ذو شهرة عالمية، لكن أحداث كتابي حقيقية، ولا أنوي تخبئتها تحت السجادة، لذلك اضطررتُ إلى إيذائه قليلاً. في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أن تضرب أخاك، ولا يزال الأمر طبيعياً في بعض بلاد حوض



القضية: نحو التعددية في تركيا

إن تصريحاته عن المجازر بحق الأرمن والأكراد التي ارتكبتها الجيش التركي، أشعلت أكثر المشاعر السياسية انحطاطاً في تركيا الحالية. وبعد تحوله رغماً عن إرادته إلى رمز لحرية التعبير، فإنه كثيراً ما يتناول أيضاً مسائل أقليات بلاده. «الموضوع قديم. في الخمسينيات، تملّك العنف إسطنبول لأن الحكومة لم تستطع السيطرة على الكتل الشعبية التي كانت تستغلها بطريقة عنصرية: نهب الناس مؤسسات اليونانيين والأقليات الأخرى، ودمروا الكنائس وقتلوا القساوسة...».

يطالب باموق بالتعددية، فيقول: «في العام 1852، لاحظ الكاتب الفرنسي تيوفيل غوته أن الناس في شوارع إسطنبول يتكلمون التركية واليونانية والأرمنية والإيطالية والفرنسية والإنكليزية. جاء تترك إسطنبول عنيفاً، حيث نفذت الدولة نوعاً من التطهير العرقي في المدينة قلّص من وجود كل هذه اللغات. أذكر في طفولتي أنهم كانوا يُصمّتون الأشخاص الذين يتحدثون اليونانية أو الأرمنية في الشارع بصوت عالٍ، فيقولون لمن يتحدث بغير التركية: أيها المواطن، تحدث بالتركية! كما انتشرت ملصقات في كل مكان تحمل الرسالة ذاتها».



من طبقات المجتمع العليا الذين ينظرون باحتقار إلى المعتقدات الثقافية والطبقات المحرومة. تزعجني عجرفة النخبة، فهم يحكمون هذه البلاد بالتفاخر والغطرسة، ويدمرون الديمقراطية والثقافة، مثلما تفعل حماقات الغرب في العراق وبلاد أخرى... السلوك المتعجرف والمتعطرس نفسه للذين يحكمون العالم».

بعد النزهة، عاد هذا الرجل البالغ طوله مئة وتسعة وثمانين سنتماً إلى العمل («تبالغ صحف المشاهير في طولي، إذ إنه لا يبلغ مئة وتسعين سنتماً!») في الاستوديو خاصته حيث تنتظره الأوراق المكتوبة بخط اليد لروايته الجديدة متحف البراءة التي يعرف عنها قائلاً: «إنها عمل راديكالي وطموح عن إسطنبول منذ عام 1975 وحتى اليوم. وتناول الحب الذي يشعر به رجل غني تجاه قريبة فقيرة من أقاربه البعيدين. إنها استكشاف جريء، ومحاولة لتقصي معنى الحب: ما الذي يحدث في داخلنا حين نقع في الحب؟ إنها تدور حول عذاب الحب الذي أعرفه جيداً. يا له من عذاب!».

قرر باموق حين بلغ الثالثة والعشرين من عمره أن يصبح مؤلفاً وحبس نفسه في غرفته. استغرق ثلاث سنوات في كتابة كتابه الأول، وأربع سنوات في إيجاد من ينشره له. «لم أكسب نقوداً حتى بلغت الثلاثين من عمري، حين بدأ مستوى كتابتي يتحسن». انتاب القلق أمه، لكنه وثق بنفسه، ويقول: «أورثني أبي ثقة كبيرة بالنفس: حين كنت أخربش وأنا في الخامسة من عمري كان يصيح: هذا الطفل عبقر! وصدقت ذلك بالطبع... وها أنا ذا هنا». لا يزال في غرفته، ولا يزال في إسطنبول.

المتوسط، فكل أبناء ناشري في إيطاليا يفعلون المثل الآن. لقد ترك ذلك أثراً في روحي ولدي الحق الأخلاقي في الكتابة عن حياتي».

الغيرة التي لطالما شعر بها تشير إلى «فكرة أن من في الغرفة المجاورة، في مكان آخر، وفي ثقافة أخرى، وفي بلد آخر، ينعمون بأشياء أكثر إغراءً وغنى وإثارة للاهتمام مما أحظى به». حتى حين أصبح أباً (عمر ابنته الآن خمسة عشر عاماً)، شرح لنا قائلاً: «استغرقت وقتاً طويلاً لأعامل الرضيعة على أنها رضيعة. أتحدث عن ذلك في كتابي القادم ألوان أخرى الذي يضم مجموعة من نصوصي القصيرة: في البداية، شعرت بغيرة شديدة من اهتمام زوجتي بها. أردت أن أصبح أنا الرضيع، ورغبت بالحصول على كل اهتمام الأم، وحين توجه هذا الاهتمام إلى ابنتي غضبت. كما أنني لم أعرف كيف أتحكم بهذه المسؤولية».

في هذا السياق، «لعل أكثر الكتب التي أثرت فيّ هو اعترافات لجان جاك روسو، إذ دفعني لقصّ حقيقة كياني وليس الحقيقة الأكبر. لا تهمني وثائق السي آي أيه أو الكيه دجي بي السرية، ولا الحقائق التاريخية المخفية. ما يهمني هو الحقائق التي لم تُكشف عن البشرية. ولاكتشافها؛ فإن كل ما علينا فعله هو استكشاف دواخلنا بصدق ووضوح وبراءة وبساطة. تكمن أهمية الأدب في إظهاره أموراً نعرفها كلنا، وفي جعل الشخصية الإنسانية تظهر للعيان».

يتحدّر أورهان باموق من عائلة فوق متوسطة مادياً، ويقول أورهان عن ماضيه كطالب يساري: «أذكر توقاً إلى المساواة والأخوة، وكرهاً للمتغطرسين

ويسلاوا زيمبورسكا



«لا نعرف شيئاً؛ هذا هو ما
يُذهل».

الشاعرة البولندية ويسلاوا زيمبورسكا
الحائزة على جائزة نوبل للآداب في العام
1996 تكتب كما تعيش: بتقشف، باحثة
عن الكلمات اللازمة لقول ما يكفي. بُعد
نظرها وقدرتها على تجاوز العصور يجعلانها
مرجعاً لجيل الشباب.



قال لنا آييل مورثيا مدير معهد ثريانتس في بولندا حين عرضنا عليه صورتها: «أعرفها، فقد ترجمت أعمالها إلى الإسبانية. أتقولان إنكما تريدان إجراء مقابلة؟ هذا صعب يا صديقي؛ لا تحب أبداً الحديث عن نفسها».

كان طريق زيمبورسكا يبعدنا عن وسط المدينة. لن تجد أي سائح يقترب من مجموعة الشقق الهادئة التي تقطن شاعرتنا في إحداها. هذا الحي المتواضع الذي نجول فيه الآن في سيارة أجرة - وهو الحي نفسه الذي تقطن فيه من قبل أن تصبح مليونيرة بفضل الأكاديمية السويدية - يتألف من أبنية شاهقة، رمادية اللون، تصل بينها شوارع اختفت منها كل الشعارات التي تجذب السياح إلى كراكوفيا، وهي واحدة من أجمل مدن أوروبا ومدرجة على لائحة الإرث الإنساني منذ العام 1978. كما أنه ليس بإمكانك أن ترى القلعة الملكية، أو سوق الأقمشة، أو كاتدرائية سانتا ماريا حيث يعزف أحد رجال الإطفاء على الترومبيت كل ساعة خلال ساعات اليوم... فما يحيط بزيمبورسكا هو الإسمنت.

هذه الجدة اللطيفة المولودة في العام 1923 في مدينة كورنيك الحالية، تعيش في مكان شديد التقشف؛ يعطي انطباعاً بأنّ المليون والمئتي ألف دولار التي منحتها الأكاديمية للمرأة البسيطة التي فتحت لنا الباب كان لها وقع سيئ عليها بعد أن تخطت السبعين، ونظمت حياتها. وقد أخبرتنا لاحقاً، «على الأقل قررت الاحتفاظ بحميمتي». دائماً ما تشير إلى النوبل بصفتها محل جزار، وتؤكد بتواضع: «لولا جهود آندريه بوديغار، مترجمي إلى اللغة السويدية، لما كانوا أعطوني إياها... ولكنّ أكثر هدوءاً الآن، من دون هذه الجبال من الرسائل التي يجب عليّ الردّ عليها، وكل هذه المشاكل الاقتصادية،



الجو بارد. سافرنا إلى البلاد التي يكتب فيها الشعراء وهم يلبسون القفازات، ودليلنا الوحيد هو ديوان شعر لويسلاوا زيمبورسكا. قرأنا فيه أن الشعراء هنا في مملكة بولندا القديمة «يتغنّون بالحياة البسيطة لرعاة الفحمة بأبيات مؤلفة من صحىحات مجلجلة». إذا اجتاحت الحزن أحدهم، فلن يجد الأمر سهلاً: «من يرد الغرق فعليه أن يملك شعلة يحفر بها الأرض». لقد أخبرونا أن كراكوفيا، وهي واحدة من أكثر المدن أدباً في أوروبا، مليئة بالكتاب، لكننا نبحث عن واحدة فحسب. صفاتها: امرأة في الثالثة والثمانين من عمرها، حازت على جائزة نوبل للآداب في العام 1996. تعيش هنا، في كراكوفيا، منذ العام 1931.



والصفقات مع البنوك التي لم أختبرها قبلاً. لهذا، أقوم بصناعة الملصقات لأسترخي». لم يكن الوصول إلى زيمبورسكا سهلاً، وحين وجدنا أنفسنا أمامها جالسين على أريكة في غرفة طعامها، أوضحت لنا بعض الشروط:

- أولاً، لا أحب الحديث عن الشعر. ثانياً، لا أحب الحديث عن ويسلاوا زيمبورسكا، أي عني. وثالثاً لا أحب الحديث عن السياسة. ما الذي بقي لنا؟ يمكنني أن أحدثكما عن الحيوانات، وعن النباتات، وعن الحب قليلاً وعن الصداقة قليلاً، ما الذي تريدان شربه؟ ما الذي يفعله هذا السيد؟ أهو مصوّر؟ لا تصور يديّ لو سمحت، فهما فظيعتان، فلقد انكسرتا منذ ستة أشهر. لم أعد شخصاً تلتقطُ له الصور، ففي إمكانني الحديث جيداً، أما الصور...

في الوقت الذي ضحكت فيه زيمبورسكا وذهبت إلى المطبخ لتحضير الكؤوس، نظرنا نظرة خاطفة إلى مترجمنا مدير الثرباتنس، فرأينا على وجهه نظرة يقول لنا من خلالها: «ألم أقل لكم...». لكن صاحبة البيت عادت على الفور بكؤوس مليئة، وشعرنا أنها في نهاية الأمر

قد تنكث بوعدها لنتمكّن من إجراء مقابلة طبيعية معها. أشعلت سيجارة وتوجّهت إلينا بسؤال: «ألا تدخنان؟ يا سلام، هكذا ستعيشان طويلاً! تخيلاً: أنا عمري ثلاثة وثمانون عاماً وأنا أدخن. وهكذا، فأنتما... ها ها ها!».

كانت ضحكة زيمبورسكا مُعديّة ومليئة بالحيوية وكأنها ضحكة طفلة. كشفت لنا قائلة: «لدي الكثير من العيوب، وخصلة حميدة واحدة: الفضول لمعرفة كل شيء. هذا هو دافعي، وفي خطابي خلال استلام جائزة نوبل أجبتُ على أحد أسفار العهد القديم الذي يؤكد أنه ما من جديد تحت الشمس، بأن الحياة غنية بحيث إن كل شيء يفتح بالتنوع».

هكذا تتشاجر مع نفسها في قصيدتها التي لم تنشر بعد قلة اهتمام: «البارحة أسأت السلوك في الكون./ عشتُ اليوم كله من دون أن أتساءل عن شيء،/ من دون أن يفاجئني شيء/ قمتُ بأعمال يومية/ كما لو كان ذلك كل ما عليّ فعله».

عرضت علينا زيمبورسكا ملصقاتها: بطاقات صغيرة مصنوعة من قصاصات الجرائد والمجلات والأوراق... أعمالاً تتراوح بين البساطة والحدّة، بالنسبة إليها إنها طريقة للراحة، يهمها أن تعرف عن رحلتنا من إسبانيا، فهي لا تسافر تقريباً، وقد أخبرتنا قائلة: «لا أستطيع تعلم اللغات أبداً. يمكنني أن أقرأ الفرنسية والألمانية قليلاً، لكنني لا أتحدث

إلا البولندية. وهكذا، حين أسافر، أعتمد كلياً على الشخص الذي يرافقني ولا يمكنني أن أتواصل بشكل مباشر مع الحياة في أي مكان، وهو ما يغضبني. أمضيتُ مرحلة من شبابي مع النازية حيث لم ندرس شيئاً، ومرحلة أخرى من شبابي أمضيتها مع الشيوعية التي لم تشجع كثيراً على التواصل مع الأجانب».

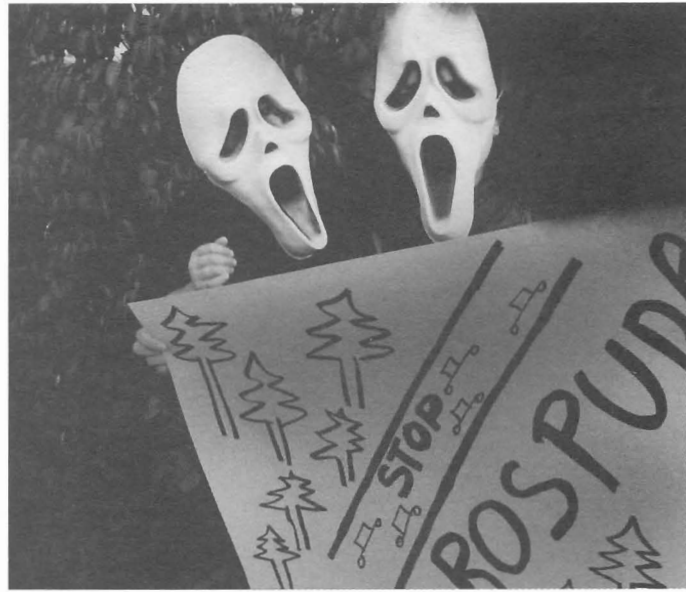
يذكر معسكر الاعتقال القريب - وهو أحد أشهر أماكن الجذب السياحي في المنطقة - زيمبورسكا بالسنوات الأولى من الأربعينيات في كراكوفيا المحتلة، حين «منع الألمان البولنديين من الالتحاق بالمدارس الحكومية»، فاضطرت إلى الدراسة في صفوف سرية، وعملت في الوقت ذاته في شركة للقطارات لثلا يضعوها في معسكر عمل.

هنا، في كراكوفيا، تحزننا أكثر من أي مكان آخر لامبالاة الأوروبيين تجاه حظ البولنديين، لأنك بمجرد المشي في شوارعها تجد أنها مدينة في أوروبا الوسطى مثل براغ أو فيينا، بينما تبدو العاصمة وارسو أقرب إلى أوروبا الغربية بشكل أو بآخر.

لم تتوقع زيمبورسكا أبداً نيل جائزة نوبل التي حظيت بها في العام 1996. عندها، كان شيزلاو ميلوز، وهو حائز آخر على جائزة نوبل (1980) من كراكوفيا، لا يزال على قيد الحياة، وقد توفي حينها فائز بولندي آخر هو إسحق باشيفيس سينغر (1978) والذي كتب باليدية. لم تكن زيمبورسكا قد نشرت إلا دزينة من الكتب الصغيرة جداً، وهو عدد قليل جداً بالمقارنة مع غيرها ممن تاقوا إلى الجائزة من بلادها، إذ لم تكن كتبها قد ترجمت في كثير من البلاد - مثل إسبانيا - كما أنها ليست أكثر كتاب بولندا انتشاراً عالمياً كما هو حال سانيسلو ليم مؤلف سولاريس، أو ريتشارد كابوسينسكي.

الاختصار والإرهاب والحاضر

لا تزال صفتها الاختصار، فديوانها نقطتان الصغير كذلك (ثمانون صفحة نستثنى منها ستاً وعشرين صفحة في المقدمة) استغرق سنوات عديدة ليتهني. أشعر أنها تكتب القليل؟ تعترف قائلة: «أنا



القضية: إنقاذ المحميات البيئية في أوروبا

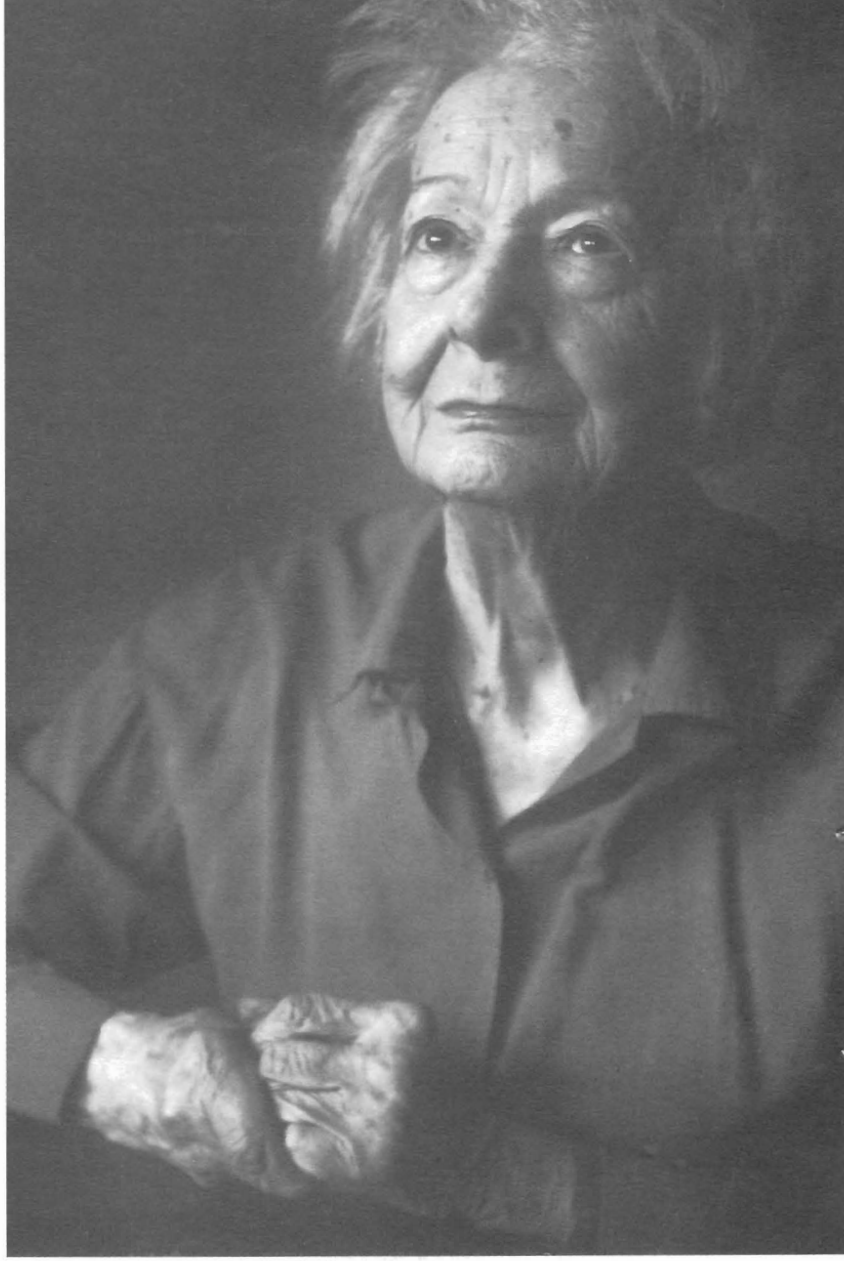
هي محصنة ضد الإيديولوجيات والنظريات المجردة (أخطائي حصلت في مرحلة الشباب)، في بدايات سنوات ما بعد الحرب، تعاطفت مع الشيوعية، بالرغم من أنها لم تصل إلى حد أن تصبح ناشطة. في أواسط الخمسينيات، اكتشفت أنها قد خدعت إلى حد غيّر معه أسلوبها في الكتابة. في الثمانينيات، انضمت إلى الحركة السياسية النقابية تضامن بسبب مطالبتها بالديموقراطية، لكن الأحداث اللاحقة في بلادها لم تسعدها. وقعت على عريضة ضد شق طريق سريع يخترق وادي روسبودا، «حيث تعشش طيور اللقلق السوداء، ويعيش النسر والذئب والوشق وغيرها من الكائنات المهددة بالانقراض؛ هي مستنقعات مدهشة، لكن ذلك لم يعن الحكومة في شيء بالرغم من توفر طريق بديل له. أخطر ما في الأمر هو أنه قرار غير ديموقراطي أبداً، فأغلب البولنديين يعارضون هذا المشروع». وبفضل ضغط زيمبورسكا والآلاف غيرها من المواطنين، بالإضافة إلى شكاوى الاتحاد الأوروبي، قررت السلطات البولندية في آذار من العام 2009 تعديل مسار الطريق.

طيرانهم نحو الموت، ومفاتيحهم وأشياء أخرى تتساقط من جيوبهم، وأردتُ فعل المثل في قصيدة؛ أي تجميد تلك اللحظة، لأحافظ على حياتهم. أي قصيدة هي لحظة».

لكنها اهتمّت بالإرهاب قبل ذلك بعقود في ديوان إرهابي، يراقب (1976) الذي يركز على ما يحدث في الدقائق السابقة للهجوم: «ستنفجر القنبلة في المشرب عند الثالثة وعشرين دقيقة./ الساعة الآن تقارب الثالثة وست عشرة دقيقة./ لا يزال بعضهم يملك الوقت ليخرج./ وليدخل غيرهم...». تشرح قائلة: «هذه هي طريقتي في الحديث عن السياسة. لا أحب الحاضر، لكنني أحب مظاهر الواقع التي نعرف أنها دخلت التاريخ بالرغم من أنها حصلت للتو، أكثر بكثير من الأخبار اليومية التي تلاحقنا منذ أيام قابيل وهابيل. انتقدتُ في كتابي الإرهاب في مرحلة اعتُبر فيها الإرهابيون في بلدي أبطالاً وأشخاصاً نبلاء ويستحقون المديح».

هكذا، ومن دون انتباه منّا، يهرب الحديث من سياقه الصحفي ليتحول إلى سياق شعريّ. وتؤكد لنا بإيماءة من يستطيع التحليق بين المجرات: «كيف أرى العالم اليوم؟ الأفضل أن أنظر إليه من الفضاء. حتى القرن العشرين، كان كوكباً أزرق يدور بصمت في الكون، لكنه الآن كرة هادرة. ألا تسمعونها؟ إنها تتكلم طوال الوقت، إنها فضائية؛ كرة ثرثرة لديها الكثير من الكلمات! هناك الكثير من المعلومات التي تنتشر في أصقاع الأرض خلال دقيقتين، ولكن لو انتبهنا لوجدنا أنها حماقات، ومعلومات من دون أي أهمية».

ذكرت لنا مثلاً قائلة: «من خبرتي الخاصة. كثيراً ما يضعون ميكروفوناً في فمي حين أذهب إلى مكان ما، لأن أمراً قد حدث في أحد أجزاء الأرض،



لا أعمل كل يوم؛ لستُ منظمةً أبداً».

لا يعتقد أحدكم أن هذه المؤلفة معزولة عن العالم، فهي تعترف أن «كل شيء سياسة، حتى القصائد غير السياسية».

الحاضر - «كلمة لا أطيعها» - قد اخترق مرات عدة صفحات زيمبروسكا. في كتابها لحظة المنشور في العام 2002 كتبت قصيدة عن الهجمات على برج التجارة العالمية (صورة 11 أيلول)، تحدثت فيها عن الضحايا الذين رموا بأنفسهم في الفراغ من أعلى ناطحتي السحاب: «أردت تجميد تلك اللحظة. رأيتُ في صحيفة صورة لهؤلاء الأشخاص المتجمدين في



ويسألونني: ما رأي حضرتك؟ وأجيبهم دائماً: أحتاج إلى التفكير فيه. فيقولون لي: لا، لا، نحتاج إلى إجابتك الآن. أقول: لكنني أحتاج إلى الوقت للتأمل في الموضوع؛ قد أتمكن من إجابتك غداً. ومع ذلك يرفضون دائماً! لا يستوعب منطقهم أن يحتاج أحد ما إلى يوم كامل ليفكر في ما سيقوله عن أمر مهم. يوافق الكثير من الناس على الإجابة مباشرة، وتكون جملهم عادة منمة عن غباء. أنا من الأشخاص الذين لا يزالون يعتقدون أنه علينا أن نفكر في كل شيء ولو قليلاً، وأن الانطباع الأول ليس دائماً هو الأدق والأفضل والأكثر تماسكاً. في الحقيقة، إنني أكتب بالطريقة نفسها: عليّ أن أسير وأفكر وأقلب الموضوع وأنقل من مكان إلى آخر...».

تحدثت بين الفينة والأخرى عن السياسة، ولو أنّ الأمر كان يحدث قليلاً. ومن المعروف عنها معارضتها للنظرة القومية والكاثوليكية إلى التوأم كازينسكي، وتؤكد قائلة: «الوضع السياسي الذي نعيشه غير مشجع أبداً. لم أتخيل يوماً أن وقتنا الحالي سيكون على ما هو عليه اليوم».

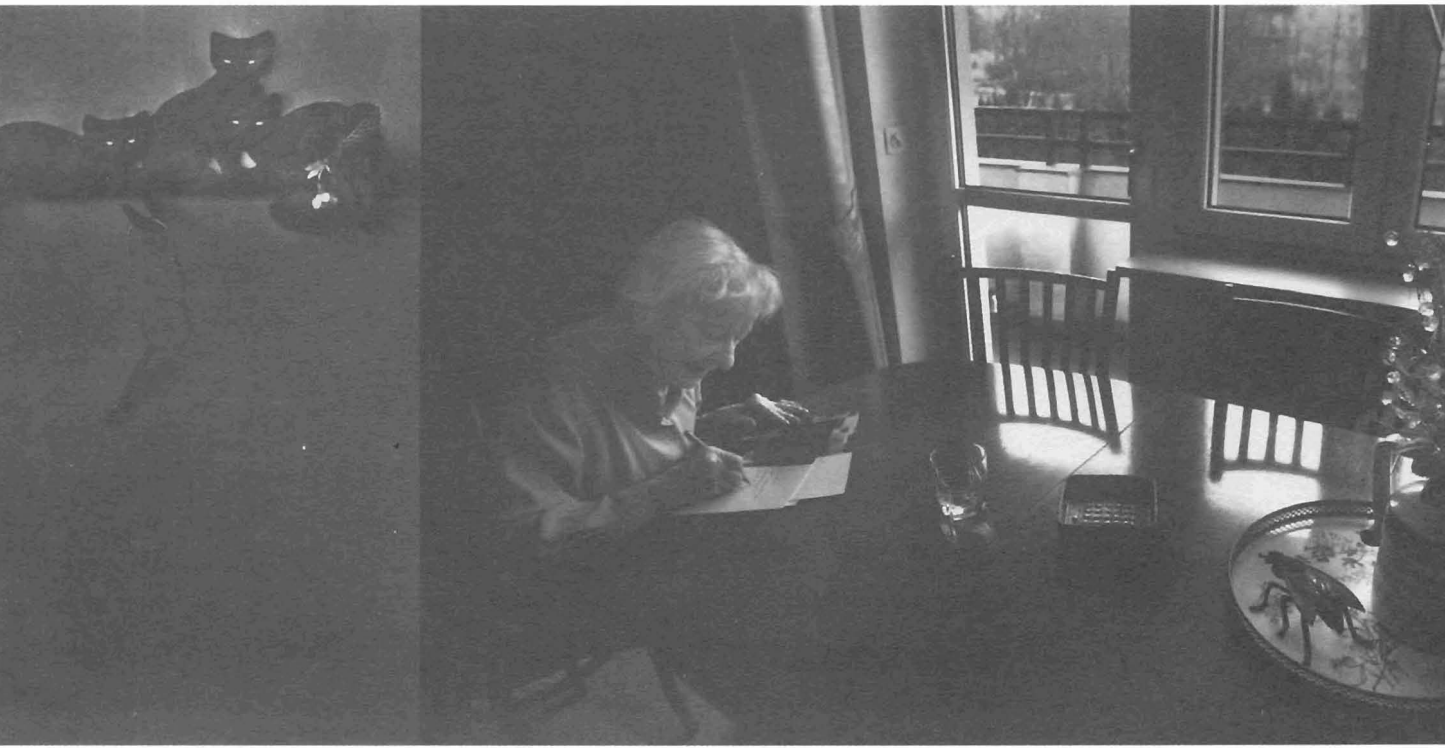
ثم تحدثنا عن الظروف التاريخية التي تغذي المشاكسين في بولندا: إنه بلد مُحي عن الخريطة مرّات عديدة، وعاقبته ألمانيا النازية وروسيا الشيوعية، لذلك تعشش في دي أن آيه كل بولندي شكوك مشروعة في بروكسل وجاراتها.

إنها لا تعتنق القومية، «ولا حتى البيئية. صفر لكل ياء نسبية! ليس علينا أن نستسلم أبداً لأفكار الجماعة. لا يمكن أن نصبح حشرة عالقة في الفلين وقد ألصق عليها اسم في الأسفل. من الأفضل أن نتمكن من الاستمرار في الطيران؛ في البداية أعجبت بالنظام الشيوعي، وكتبت قصائد عن الواقعية الاجتماعية، فقد اعتقدت حقاً أنها طريقة لتحرير الناس بعد أن عشت الاحتلال النازي؛ وهو الكراهية بأقوى أشكالها، وشعرت أن النقيض أصبح ضرورياً: أن تحب الناس كثيراً؛ هذا ما عنته لي الشيوعية؛ الحب الكبير للجميع من دون التمييز بأي شكل من الأشكال. بعد ذلك، فهمت أن حب البشرية ليس واجباً على الإطلاق،

فهني لا تستحقه! يجب تقدير ما يحدث للبشر، وفهم ذلك، واختبار التعاطف معهم، وهذا يكفي. لسوء الحظ، إن هذا الحب الكبير للبشرية تنتج عنه دائماً أسوأ الأمور؛ جحيم حقيقي».

يستقرّ دون كيشوت على أحد رفوف مكتبها. تسألنا: «ما رأيكما فيه؟ أعتقد أنه عمل هام جداً، لكنه قد تغير كثيراً مع مرور الوقت. حين نُشر قبل أكثر من أربعين عاماً كان كتاباً ممتعاً إلى حدّ كبير. أما في أيامنا هذه، فهو كتاب حزين، على الأقل بالنسبة إليّ. حين تغلقه تشعر بأنه قد ترسّبت في روحك بقايا مرّة، كما لو أن السخرية أصبحت عجوزاً، أليس كذلك؟». إنّ الكثير من قصائد زيمبورسكا عبارة عن قراءات للتراث: كتب، ولوحات، ومناظر معروفة تنظر إليها من زاوية جديدة. «أقول للقارئ انتبه إلى هذا التفصيل. أحاول أن أظهر أن الحياة غنية إلى ما لانهاية، حتى في الأمور الأكثر بديهية. كل شيء يتيح لنا على الأقل ست وجهات نظر: من الجوانب الأربعة، ومن فوق ومن تحت».

تضحكها تفسيرات الآخرين لقصائدها، فتقول: «حين يقولون، مثلاً، إنني في قصيدتي عن رجل الثلج إنما أتحدث عن ستالين، أو حين يحاولون تحليل ما



قصص حب عديدة: في شبابي، ثم مع زوجي الأول آدم فلوديك... كل منها مختلفة عن الأخرى. لا أزال صديقة أولئك الذين لا يزالون أحياء، لأن أمراً قد حدث في كل حالة يستحق أن أتذكره».

في ما يتعلق بالشباب

تحب أن تعرف عن نفسها من باب الإطراء بأنها قديمة، ولكنها تملك الكثير من المعجبين الشباب. يمكننا أن نقول إنها قبل خمسة وثلاثين عاماً كانت قد أصبحت معاصرة، حين أهدت قصيدتها إعلان إلى الرحمة الكيميائية، قبل غزو المخدرات الصناعية الهائل صالات الديسكو: «ليس عليك إلا أن تتناولني/ ضعني تحت لسانك/ ليس عليك إلا أن تبتلعني/ تكفيك رشفة ماء (...) من قال/ إن الحياة تحتاج إلى الشجاعة؟/ أعطني جحيمك/ لأنسجه حلماً...».

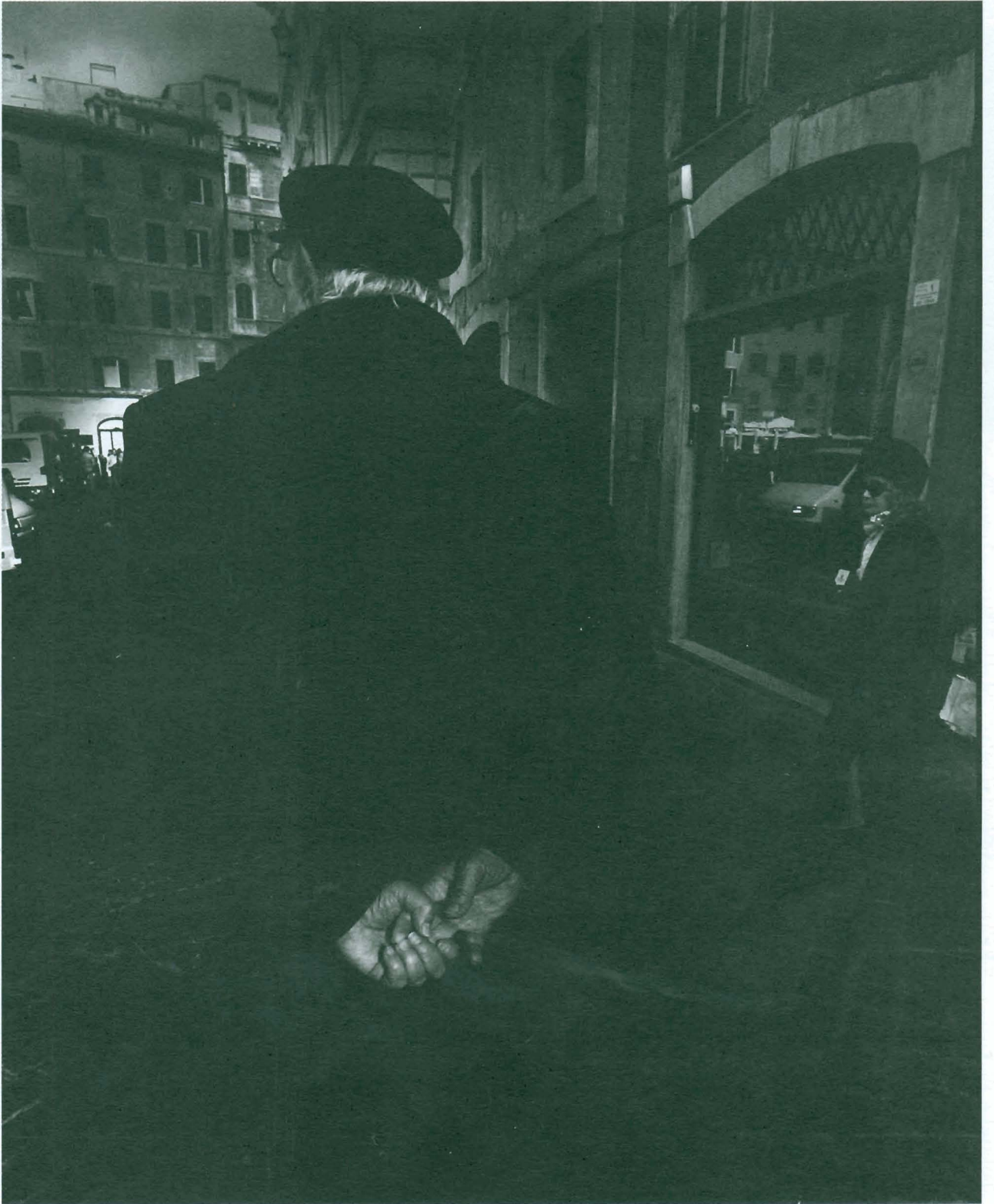
تعترف قائلة: «إنني على اتصال بالشباب، فأتحدث إليهم حول الكثير من الأمور. لكن الشباب الذين أستقبلهم طيبون: يدرسون كثيراً ويتأملون في الحياة. أما أصحاب المشاكل، فلا أشعر أنهم قريبون مني، فأنا أفضل أولئك الذين يفعلون ما يفعله الجميع ويبدون غير مرثيين».

يرمز إليه الحجر. هناك عادة مبالغ فيها، وهي القراءة بين السطور، والبحث عن رسائل سرية. لا تخبئي قصائدي شيئاً. ولو أردت انتقاد التوأم كازينسكي فسأسميهما باسميهما، من دون أن أقارنهما برومولوس وريموس».

كثيراً ما نجد الحيوانات في دور البطولة في قصائدها. هي التي لا تملك حيواناً «لأن هذه شقة صغيرة في المدينة». وتقول: «ما من شعر من دون حيوانات أو نباتات أو حجارة، لأننا جميعاً معاً على سطح الأرض. يعجبني عمل باحثة الطبيعة حين غودول التي درست القروء كأفراد، واكتشفت لديها مزايا تشبه تلك التي تميزنا نحن البشر. إننا مختلفون دائماً».

يردد الطلاب البولنديون في المدارس قصيدتها قط في شقة فارغة. وتكشف لنا أن «هذا القط - الذي عليه أن يعتاد على العيش في شقة لم يعد فيها صاحبه، إذ مات - جرح كبير في قلبي. أتحدث هناك عن ألمي لفقدان رفيقي وحيي الكبير الشاعر كورنيل فيليبوفيكز، الذي توفي في العام 1990. ليس القط وحده حزينا، بل أنا أيضاً. ولكن... أنا أتحدث كثيراً عن نفسي، وهذا غريب جداً. عشت في حياتي

داريو فو



«السخرية هي أكثر الأسلحة فاعلية في وجه السلطة».

كل عرض من عروضه مليء بالضحكات، والسخرية، والتهكم، وأصوات الجمهور. يستطيع الإبداع مباشرة، معتمداً على ما يراه ويسمعه، لأن المخرج الكبير الذي حاز على جائزة نوبل يثق بالمواطنين وبمشاركتهم. داريو فو إعمار مرادف لزوجته الممثلة، والعضو في مجلس الشيوخ فرانكا رامة التي يربطه بها التزام حياتي، وفني، وسياسي عميق.

لا نعرف جيداً كيف حدث ذلك. ولكننا كنا في روما عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، جالسين على الأرض في قاعة في جامعة لا سابينزا نغني بيلا تشاو، وبانديرا روسا، وأغاني أخرى مشابهة. لم يكن الأمر مهماً، لولا وجود شخصية تبسم أمامنا وتكرر بقوة، وبحماسة معدية، المقطع التالي: «أفانتي بوبولو، ألا ريسكوسا، بانديرا روسا تريونفيرا». نحن نتحدث عن أكبر رجل استعراضي يحظى بجائزة نوبل: داريو فو الذي يحتفل بذكرى ميلاده الثمانين مع مجموعة من الأصدقاء الذين جاءوا من كل أنحاء إيطاليا. حتى إن المصور كيم مانريسا كان يبدو منفِعلاً، وكان يجلس حولنا كورس لامتناه من الطلاب الشباب الذين كانوا يرددون: «بيلا تشاو تشاو تشاو» في هذه القاعة التي تحولت بقدرة قادر إلى ضرب من ضروب السرداب المسرحي الثوري. يعلق فو سعيداً: «هذا ما فعلته دائماً: آتي بالمسرح إلى أماكن لا يفترض أن يكون فيها. في أثناء دراستي، قمت بالكثير من الأعمال في القطار الذي حملني من البيت إلى المدرسة، وبالعكس. وبعدها، قدمت عروضي في معامل مزدحمة وأسواق وسجون وساحات ومدارس... إنَّ أي مكان يعتبر جيداً، لأن المسرح فنٌّ شعبيّ. في بعض الصالات تُقدّم عروضي بأسعار باهظة، وأنا ممتنٌّ لهذا الاهتمام، لكنني في أعماقي أشعر بأن الناس الذين يذهبون لمشاهدة أعمالني في هذه الأماكن ليسوا جمهوري المفضل».

تطلق زوجته فرانكا رامة صيحات تشجيع من بين الجمهور. جائزة نوبل التي حاز عليها في العام 1997 مُنحت له أيضاً للشراكة التي تجمعها بالتمثلة الإيطالية الأسطورية، المنتخبة حديثاً عضواً في مجلس الشيوخ في حزب القاضي دي بيترو، والمسؤولة عن عملية الأيدي النظيفة. يدوان معاً كمؤلف واحد ذي رأسين: لديهما شركتهما الخاصة، ويكتبان ويترجمان معاً، وينضم إلى هذا الثنائي أحياناً ابنهما جاكوبو. يعترف فو، على سبيل المثال، قائلاً: «قد أنهيت الآن عملاً عن التبشير والنساء ساهم في كتابته ابني، وهو

عبارة عن قصة عائلية لأن فرانكا كتبتها، وأضاف إليها جاكوبو بعض الأمور، وفي نهاية الأمر عملتُ فيها قليلاً أنا أيضاً». فو هو أكثر كاتب مسرحي تُمثّل أعماله في العالم، لكن هذا العمل عن حياتنا اليومية، والذي كتبته زوجته بشكل أساسي، هو الأكثر تميزاً في سجل أعماله الحالية. تقول رامة مازحة: «أقول له في المنزل دائماً لأخفف من زهوه: لعلك قد حزت على جائزة نوبل، لكن المسرحية الأكثر نجاحاً هي من تألّفي».

بينما يرقص فو مع طلاب متكررين بأزياء شخصيات مسرحية كوميديا الفن، نفكر في أن اليوم السابق؛ يوم وصولنا إلى روما، كان أكثر اعتيادية، حيث شربنا الشوكولاته الساخنة مع داريو وفرانكا في مقهى بجانب مسرح فيتوريا. وللتخفيف من توترنا قرأ علينا فو نصاً يجمع عشرات اللغات واللهجات، استطعنا فهمه بما يشبه الإنجاز. ضحك داريو وقال: «ها ها، هذا ما اعتاد أن يفعله المهرجون القدماء. ففي كل منطقة انتشرت لهجة مختلفة، وتوجب عليهم التأكد من أن يفهمهم أبناء كل تلك المناطق، فاستطاعوا ذلك من خلال تقليد الكلمات المفتاحية في لغات عدة وتكرارها. أستعمل في أعمالي كل اللهجات الإيطالية تقريباً: لهجات نابولي، وكالابريا، وميلانو والبندقية، ولومبارديا».

عاش فو، ابن عامل القطارات، في طفولته في أماكن مختلفة من إيطاليا، فقال: «وسافرتُ بالقطار إلى كل مكان، حيث حصلتُ على التذاكر مجاناً. وهكذا، تعرفتُ إلى الكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام. كما قال الطبيب النفسي بيتلهاييم لمرضاه: احكوا لي عن السنوات السبع الأولى من حياتكم، فكل شيء يكمن فيها. يمكنكم الاحتفاظ بباقي السنوات».

في أحد الأيام، تبتى داريو فو مهمة العامل في الأدب، وقرر أن يفكك التراث قطعة قطعة ليجعلنا نرى أن النصوص الكلاسيكية ليست دوماً كما نراها، سواء أتحدثت عن الإنجيل، أم عن أَلغاز العصور

مسرح جماعي

كثيراً ما يقاطع الكاتب المغنّين ليشرح ما وراء كل موضوع، كما يروي ذلك مع النكات مصدراً أصواتاً غريبة، ومغيّراً نبرته وهو يقفز ويقوم بإيماءات تجعله ينال إعجاب الجمهور (ويروي لنا في ما بعد أنه لا يفهم «الكلمة من دون الإيماءة»). يشبه الأمر مقطعاً ارتجالياً تصرخ فيه فرانكا ببعض الأشياء، ويقلدها الجمهور في نهاية المطاف، مما يُفسح المجال لردود بارعة. يتذكر بعد ذلك وجود «مرحلة أُملى عليّ فيها الجمهور مباشرة موضوعات أعماله. ومع نهاية العمل، اعتدتُ أن أنظّم اجتماعاً أسألهم فيه عمّا يريدون مني أن أتحدث عنه. هكذا، وُلدت مثلاً مسرحية لا يدفع أحد هنا! عن نساء يقررن نهب السوبرماركات بسبب عدم تمكنهن من شراء منتجاتها».

في لحظة معينة يتحدث عن أغنية ريفية: «علينا أن نغنيها هكذا، وجسمنا يتحرك بهذه الطريقة، كما لو كنا في الحصاد. إنه انسجام إيمائي يخفف الجهد،

الوسطى، أم عن الأساطير اليونانية، أم عن لوحات عصر النهضة. وهو يتصرف بالمثل في ما يخصها جميعاً: يذهب إلى الأعمال الأصلية، ويظهر وجود ترجمة أخرى لتلك التي وصلتنا، «ترتبط بخطاب السلطة». بالنسبة إلى فو، «لا توجد ثقافة عليا وأخرى دنيا، كما يجعلوننا نعتقد في المدرسة، فالكرامة نفسها توجد في كل الثقافات، وكيفينا أن نعرف مفاتيحها لنكتشف ذلك».

قبل العرض الجامعيّ تناولنا العشاء مع فو ورامّة وأصدقائهم القدامى، ومنهم جيوفانا ماريني، نجمة الغناء الشعبي في نابولي. تعلمنا معهم كلمات أغاني مثل «لا بيللا لافا آل فوسو» بلهجة بين لومبارديا وفينيتو، ذات طابع إيريوتيكي واضح، وتعرّفنا إلى الموضوعات التي تناولتها أغاني العمال في المصانع في الستينيات والسبعينيات. وبعد الحلويات، قدم طلاب لا سابينزا عرضاً ممتعاً عن مشاكل الحب. وبعدها، بدأ عرض الأغاني في صالة بسيطة تغصّ بجمهور شابّ يهلهل لفو واقفاً.





وصقلية، ونابولي، وروما وفلورنسا... ولكن ليس في ميلانو، وهي مدينة الثورة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، بكل كتابها، وفنانيها، ورساميها، ومخرجيها المسرحيين، والسينمائيين الهامين... كل هذا قد اختفى بإرادة المدينة، التي لم تعد تحتفظ إلا بنصف مسارحها التي وُجدت حينها. أما في روما، فيحدث العكس. ففي المدة الزمنية نفسها، تضاعف عدد المسارح، وازداد عدد المعارض والأفكار والمظاهرات بشكل كبير...».

انتهى حفل التكريم الكبير الذي أقامته العاصمة على شرف فو في القاعة العظمى في جامعة لا سابينزا بعرض كبير للألعاب النارية، وبالمطالبة بانتخاب رجال الفكر التقدميين في إيطاليا (مثل السينمائية سابينا غوزانتي مخرجة فيلم يحيا ثباتيرو). في ذاك المهرجان أهدوا فو قناعاً قديماً، فعلق قائلاً من حيث يجلس على مقعده: «هذه هدية خطيرة جداً. تعرفت ذات مرة إلى ممثل كبير من هذا البلد اعتاد تمثيل دور آرليكين. وفي نهاية الأمر، لم يستطع أن يمثل أي دور من دون القناع. حتى إنه كان يضعه خارج المسرح، لكنه اكتشف أخيراً أن المهم هو القيام بالأمر من دونه. الخطر الذي يلاحقنا نحن الممثلين هو التالي: لا قيمة لنا من دون القناع».

بعد وقت قصير، قفز فو إلى المسرح من دون نص، ليقدّم نوعاً من إسكتشات العصور الوسطى مبنياً

كما أن الإيقاع الموسيقي مثالي للحصاد. أتلاحيان؟ فحوى الانسجام والإيقاع أمر خاص بالشعب وليس بالأرستقراطية كما علمونا دائماً».

في الأيام التي دام فيها لقاؤنا، أقيمت في روما العديد من حفلات التكريم لداريو فو وفرانكا رامة اللذين مر على عملهما المشترك خمسون عاماً. يتذكر فو عند باب منزله، إلى جانب الهيكل الروماني: «بدأت بهذا على أنه لعبة، فأنا أنحدر من منطقة يعتبر اختراع القصص فيها أمراً اعتيادياً، حيث يباشر الشباب باكراً البحث عن مواقف غريبة ليحيلوها إلى تهكم أو سخرية. درستُ العمارة وعملت فيها، لكنني في أحد الأيام اكتشفتُ أنني لم أحظُ بالمهمات إلا بفضل الرشى ودفع الكومسيون للحكومة والأحزاب السياسية. تأثرتُ إلى حدٍّ أصبتُ معه بالاكتئاب، فذهبت إلى طبيب، هو صديق جيد لي، وقال: قم بشيء تحبه؛ شيء لطالما حلمت به. هكذا، أنقذني المسرح من دخول مستشفى المجانين. كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وباشرتُ حياة جديدة».

ومع أن فو يعيش في ميلانو، إلا أن زياراته إلى روما تزداد ليكون مع زوجته عضو مجلس الشيوخ. «لا أريد أن يبدو الأمر تحسراً لأنني قد ولدتُ في ميلانو، كممثل ومخرج وكاتب وليس جسدياً، وأنا أدين لها بالكثير. لكنني وفرانكا لسنا موجودين هناك. نلاحظ نماذج عاطفية في كل إيطاليا: في كالابريا،

فتلغي هذه القوانين ولا تترك له خياراً إلا الرحيل عن هذا البلد كي لا يعود إليه مطلقاً».

يقبل فو زوجته ويستأذن للانصراف، ونقرر الدخول مع رامة إلى مكتبها، حيث تقص علينا قائلاً: «حصلت على المنصب من دون أي حملة انتخابية، أو ملصق يحمل صورتني، أو ظهور على شاشات التلفزة. لكن الشهور الأولى كانت فظيعة: يقوم الناس بما يحلو لهم، ويصوتون لمن يريده زعيمهم: أحمر، أخضر... لا أحد يصغي إليك، وليس هناك نقاش... ورواتبنا فضيحة، وهي أعلى بكثير من رواتب السياسيين الإسبان: أقض كل شهر خمسة عشر ألف يورو أو ستة عشر ألفاً».

يتسم فو ورامة دائماً، وهما مستعدان للمزاح وللنقد الذاتي. ومع ذلك، هناك موضوع ممنوع بينهما، تروييه لنا رامة في مكتبها قائلة: «في العام 1973، اختطفنتي مجموعة من الرجال واغتصبوني. كان الأمر بمثابة تخويف سياسي. كان عمري حينها واحداً وأربعين عاماً. وفي تلك المرحلة، كنت قد تفرغت لزيارة السجون لأحاول تحرير السجناء السياسيين والعمال والمناضلين ضد الفاشية... أذكر الأمر كما لو أنه حدث البارحة.

شعرتُ بمسدس أو بإصبع مصوب على ظهري، ووضعوني في عربة للبضائع. كانوا أربعة خاطفين، وما فعله بي أولئك الأربعة؛ الواحد تلو الآخر لساعات وساعات، كان فظيلاً، إلى حد أنني احتجّت إلى وقت طويل لأتمكن من شرحه. حين عدتُ إلى المنزل لم أملك من القوة إلا ما يكفي لأقول لداريو والشرطة إنهم قد ضربوني. ولأتمكن من إخراج كل ما بداخلي اضطررتُ إلى كتابة مونولوج مسرحي، الاغتصاب، وأقصّه على شخصيتي. حين عُرضت المسرحية في برشلونة، أصيب أحد الحضور بنوبة صرع. اكتشف داريو كل شيء بعد سنوات من حدوث الأمر، ولم يتمكن حتى من مشاهدة ذاك العرض. أسوأ ما في الأمر هو أننا اكتشفنا أن هاتفي مراقب، وأنهم لم يدفعوا ثمن ما فعلوه... ولن يدفعوا. لقد سقط حقي. نظّم اختطافي الكارابينييري، أي رجال الشرطة، وهناك

على نص قديم. فمثل دور شاب متزوج حديثاً يبحث في الريف وفي منزل حماته عن ثمرة بابايا لزوجته. سرعان ما يكتشف الجمهور أن المهرج باستعماله هذا التعبير الغريب، إنما يشير إلى الأعضاء الجنسية الأنثوية. لماذا لا يسميها باسمها؟ هذا ما نسأله إياه في اليوم التالي في أثناء تجولنا بين آثار مركز روما، فيقول: «أستخدم تعابير من اللهجات القديمة لأنها تسمح لي بتجنب الابتذال. مثلاً، لا شيء يثير ذعري أكثر من هذه الحركة التي كثيراً ما نراها عبر شاشة التلفاز (ويحرك ذراعيه ممثلاً العملية الجنسية). اللقاء العاطفي وبعض أجزاء الجسم أشياء مهمة ومحترمة. وللإشارة إليها أفضل اللعب على الكلمات أو اللجوء إلى الفتازيا والتبديل. أما العكس، عذراً على هذه الكلمة، فهو براز. لا داعي للهبوط بالمستوى كي يضحك آخر غربي في المسرح. فاستعمال التعبير الجنسي بصراحة ابتذال ونقص في اللباقة والقوة التعبيرية. من الأفضل إعادة صياغته لتضفي على المسرح جواً ميثافيزيقياً ملؤه المفاجأة والتألق. الفابيالات في العصور الوسطى، وأغلبها كوميدي، تحدثت عن الجنس بإيجابية وحب، من دون أن تطفئ عليها فكرة الجنس الحيواني المبتذلة والمهينة كهذه التي نقرأها اليوم. افهماني، لست أتحدث عن التزمّت، ففي سجلي واحد وأربعون تهمة من الرقابة، وقد حبسوني مرات عدة كذلك».

ضد البرلوسكونية

بعد التوقف في المعبد الروماني، نصل إلى أبواب مجلس الشيوخ حيث يتوجب على فرانكا رامة مباشرة عملها. فو واثق أن الأولوية السياسية في إيطاليا هي تدمير ما تبقى من البرلوسكونية: «صرح بيرلوسكوني إنه يريد الانسحاب ليعيش في جزيرة بعيدة وغريبة... وليفعل ذلك. ومع هذا، فقد بقي في إيطاليا. وبدلاً من أن يهدأ، فهو يبدو كالممسوس، يخشى أن تتغير القوانين التي تضمن احتكاره شبه الكامل لوسائل النقل، ويمارس الكثير من الضغوطات ليحافظ على وضعه الراهن... على الحكومة أن تكون صارمة،

شهادات تؤكد أنهم قد شربوا نخب اغتصابي في بعض الثكنات. لا أتحدث أبداً عن هذا، لأنه يؤلمني...».

الترام بيئي

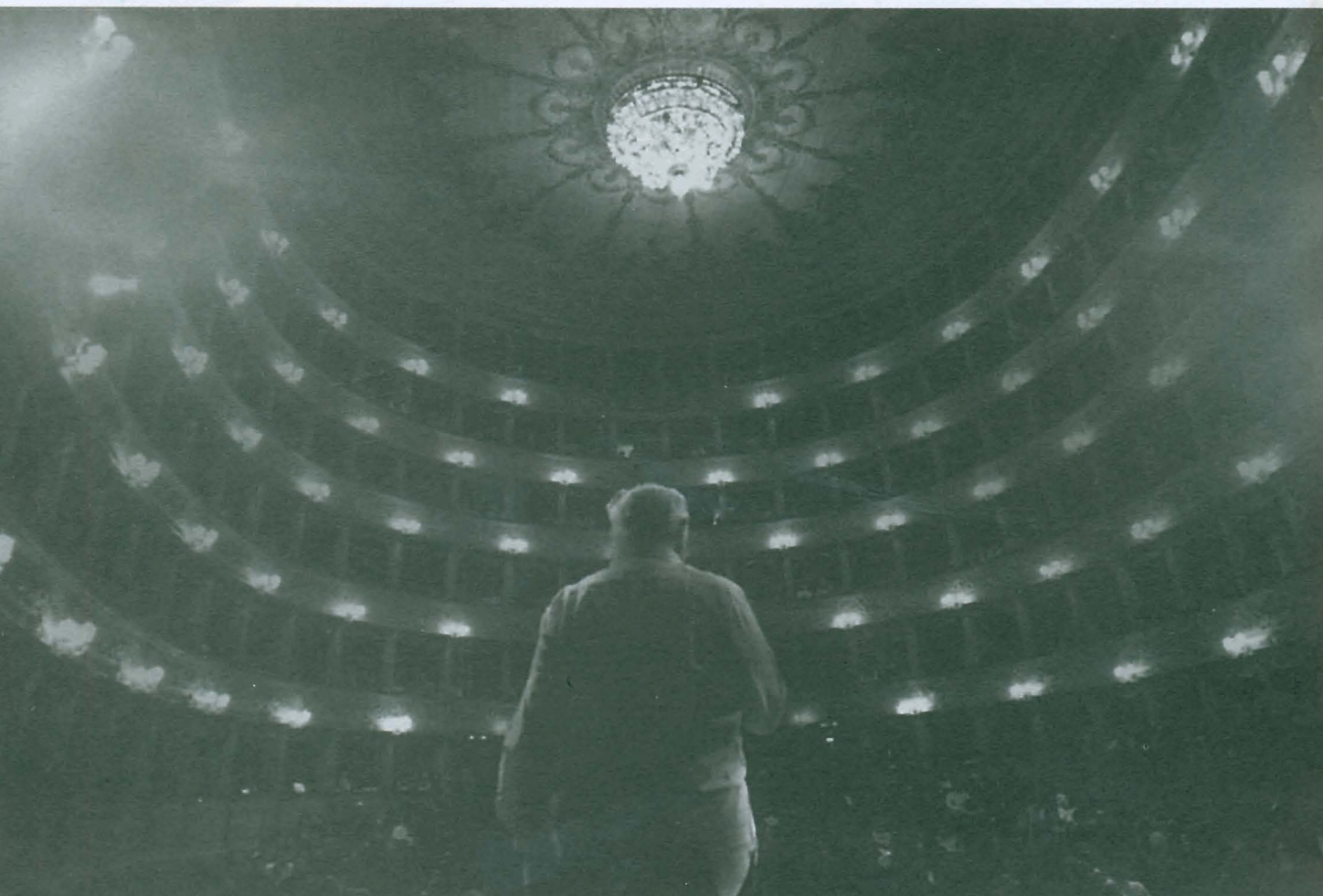
بالرغم من الانفعال الذي تقصّ به فرانكا ذاك الحادث الأليم، إلا أننا لا نشعر بكراهية في كلماتها، ولا في كلمات داريو حين وجدناه في مسرح الأرجنتين، وهو جوهرة من القرن الثامن عشر، على بعد أمتار من مجلس الشيوخ. كان يطلب من مجموعة كبيرة من الشباب الذين اجتمعوا لسماعه أن يلتزموا بدفاع شديد عن البيئة، وبعدها طرح مجموعة من الطرائق المحددة لإنقاذ النظام البيئي، والتي لا يتم تنفيذها بسبب ضغوط من السلطة الاقتصادية.

البيئة هي أحد القطارات الكثيرة التي يسافر فيها داريو واقفاً اليوم. يعلق سعيداً مع نهاية عرضه الذي جمع بين الالتزام والضحك «مسرح مليء بالشباب! جاءوا ليتحدثوا عن السياسة! السخرية هي أكثر الأسلحة فاعلية في وجه السلطة. كان المهرجون على علم بذلك، لذلك أحرقوهم. السلطة لا تحتمل الظرافة، ولا حتى الزعماء الذين يدعون الديمقراطية، لأن الضحك يححر الإنسان من مخاوفه. إن جائزة نوبل التي أعطوني إياها تعويض لكل أولئك المهرجين الجوالين الذين تجرأوا على إظهار الظلم وآلام الناس». يعانقنا فو ثم يختفي في أحد الأزقة. نراقب معطفه وقبعته وشاحه حتى اختفى بين الحشود. من المؤكد أنه سيموت متعللاً جزمته. تصفيق.



القضية: الانتقال بإيطاليا إلى الديمقراطية

حتى لو لم يرشح نفسه كمحافظ يساري لمدينة ميلانو، لا يزال فو ملتزماً بالقضية. يشارك بحركة ليبيرا سيتادينانزا، الاسم الجديد لجيروتوندي، وهي شبكة مدنية نشأت قبل ثلاث سنوات، ونظمت مظاهرات ضد برلوسكوني واستغلال السياسيين للرسائل القصيرة والإنترنت، وتمكنت من إخراج مليوني إيطالي إلى الشارع. يؤكد فو قائلاً: «علينا أن نصبح الوعي الناقد ليسار، فنبدع الآراء، ونضغط على الحكومة الجديدة من دون أن نساهم في إسقاطها، لأن حكومة متوسطة الجودة كحكومة برودي أفضل من عودة التمساح برلوسكوني. علينا أن نضغط على برودي ليعيد تأسيس التوازن الديمقراطي، ويعيد للتعليم جلاله، ويمنع العفو عن السياسيين المتهمين بالفساد. على السياسة أن ترمي على اتصال بالحياة اليومية». فو الفوضوي الذي عارض الحزب الشيوعي القديم الذي حكم بلاده، أصبح رائداً كذلك في محاربة المافيا التي توقع انتشارها الحالي قبل ثلاثين عاماً. يتوق فو وزوجته إلى زعيم مثل رودريغث تاباتيرو «الذي سحب القوات من العراق في غضون أربع وعشرين ساعة».



ثورة نوبل

حوارات مع ستة عشر مؤلفاً حائزاً على جائزة نوبل للآداب

REBELDÍA DE NOBEL

هول سوجينكا دوريس ليسينغ خوسيه ساراماغو
نادين غورديمر غاو كسينغجيان غابرييل غارثيا ماركيث
غونثر غراس نجيب محفوظ توني موريسون
في أس نايبول إيمرة كيرتيس كينزابورو أوي
ديريك هولكوت أورهان باموق ويسلاو زيمبورسكا داريو فو

يجمع كتاب ثورة نوبل الأحاديث التي أجراها الصحفي شافي آيين خلال ثلاث سنوات مع ستة عشر شخصاً حازوا على جائزة نوبل للآداب، وقد رافقته طوال ذلك الوقت نظرة كيم مانريسا، المصور ذي الشهرة العالمية، وهو ما يجعل من هذه المقابلات تحقيقاتٍ صحفية استثنائية. سافر آيين ومانريسا حول العالم ليكشفنا لنا عن طريقة تفكير كل من هؤلاء الأشخاص، والصفات الأكثر حميمية في شخصيات هؤلاء الكتّاب الذين يكافحون لإنتاج مساحات حيوية ومعبرة من الحرية، وللحفاظ عليها. وخلاصة عملهما جاءت لتشكل ثورة نوبل.



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



ثقافة
THAQAFAT
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.